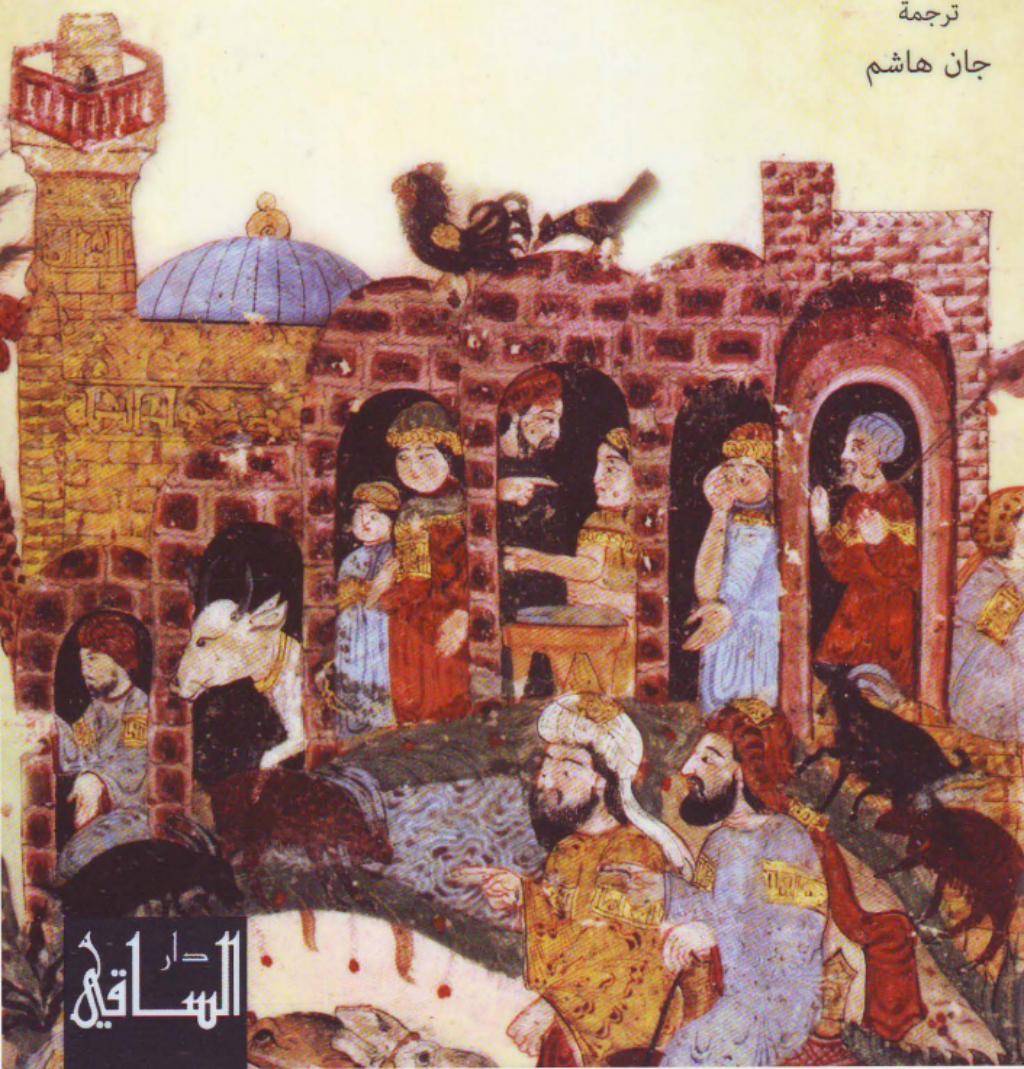


فائز على جائزة
دبلن للأدب 2004

الطاھر بن جلون

عشر ليالٍ وراوٍ

ترجمة
جان هاشم



الطباقيل
دار

الطاھر بن جلّون

عشر ليالٍ وراوٍ

ترجمة
جان هاشم



الساقية

Tahar Ben Jelloun, *Mes contes de Perrault*

© Éditions du Seuil, 2014

الطبعة العربية

© دار الساقى 2016

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-891-0

دار الساقى

بنية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033

هاتف: +961-1-866 442، فاكس: +961-1-866 443

email: info@daralsaqi.com

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

شكراً لكم على دعمكم لنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi 

دار الساقى 

Dar Al Saqi 

المحتويات

٧	مقدمة
١٣	جميلة الغاب النائمة
٤٩	فتاة البرق الأحمر
٥٩	أبو لحية زرقاء
٨٥	الهر أبو جزمه
١٠٧	الجنيات
١٢٣	سندريللا
١٤٥	حكيم أبو خصلة
١٦٣	الإبهام الصغير
١٨١	إهاب الحمار
٢١١	الأمناني الفارغة

مقدمة

آوى أهلي في ما مضى امرأةً تدعى فضيلة ادّعت أنها أخت غير شقيقة لجذّتي من والدي. وقد بربعت في الكذب لدرجة كانت تُضحك والدي الذي سرعان ما أدرك أن زوجها وأولادها قد تخلوا عنها لأسباب غامضة لم يحاول كثيراً استيضاحها.

سكتت فضيلة إذن عندها، وكان يطيب لها أن تروي لنا الحكايات، وقد أحببناها، أنا وشقيقتي، كثيراً لأنها كانت تسريح بنا على أجنبية قصصها الخارقة، وفيها ينتصر الخير دوماً على الشر، والأوغاد قُساة والجن يتمتعون بكلّ أنواع القدرات. تروي مغمضة عينيها كأنّها تقرأ على صفحة من عمق روحها. تأسّرنا بمنظرها وصوتها وتذهبنا كلّما روت. وإذا ما لاحظت أنّ الخوف بدأ يتسرّب إلى نفوسنا توّقفت فوراً قائلةً: «هذه مجرد قصص وأساطير لا أساس لها من الصحة، لا تخافوا». ...

عنها أخذت كل ما أعرفه من ألف ليلة وليلة، وعندما قرأت لاحقاً هذا المؤلّف الأساسي أدركت أنها كانت تعرفه تماماً من دون أن تقرأه، إلا أنها كانت تهمّل المقاطع الأكثر مجوناً. فهي في النهاية

كانت تراعي وضعنا وإن كانت تعلم على الأرجح أننا قد نهتم أكثر
بأخبار عربات الأماء والشياطين ...

عندما سجلني والدي في المدرسة الفرنسية المغربية الخاصة بأبناء
وجهاء مدينة فاس، قال لي: "انتهى زمن تلفيقات عمتك العجوز !
وجاء أوان الجدّ."!

كان يحلو لمدرستنا، الآنسة بوجاريـنـاتـ، أن تقرأ لنا مرّةً في
الأسبوع قصصاً مأخوذاً من كتابِ مزيـنـ برسومات لغوستاف دورـيـهـ
بعـنـوانـ نـوـادـرـ بـيـرـوـ (Les Contes de Perrault) بعد أن تسـجـلـ دـوـمـاـ علىـ
الـلـوـحـ اـسـمـ مؤـلـفـ الـكـتـابـ وـرـسـامـهـ. وـإـذـاـ مـعـلـمـتـناـ تـحـمـلـنـاـ إـلـىـ عـالـمـ
الـجـنـيـاتـ وـالـأـمـرـاءـ وـالـحـيـوـانـاتـ ذـاـتـ القـوـىـ الـخـارـقـةـ وـالـجـزـمـاتـ
الـسـحـرـيـةـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ الغـرـائـبـ. وـكـانـتـ بـالـطـبـعـ أـقـلـ إـقـنـاعـاـ مـنـ فـضـيـلـةـ
وـأـقـلـ موـهـبـةـ مـنـهـاـ. لـكـنـتـ أـجـدـ نـفـسـيـ مـنـسـاقـاـ إـلـىـ الـرـبـطـ بـيـنـ أـلـفـ
لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ وـتـلـكـ القـصـصـ تـلـلـىـ عـلـيـنـاـ فـيـ إـطـارـ مـدـرـسـيـ.

تخيلت لاحقاً لو أن فضيلة هي التي تروي حكايات بـيرـوـ، لـغـيـرـتهاـ
وـأـعـمـلـتـ فـيـهاـ خـيـالـهـاـ عـلـىـ سـجـيـتـهـاـ وـصـبـغـتـهـاـ بـلـوـنـ لـحـظـاتـ الـوـحـدةـ
وـالـبـؤـسـ الـتـيـ عـاشـتـهـاـ قـدـوـمـهـاـ إـلـىـ مـنـزـلـنـاـ. أـوـلـمـ يـكـنـ مـمـكـنـ
أـنـ تـطـعـمـهـاـ بـقـصـصـ مـنـ شـرـقـ غـرـبـ الـأـطـوـارـ يـسـيرـ بـهـ إـلـىـ الـهـلاـكـ جـنـ
وـبـشـرـ مـعـطـشـونـ إـلـىـ السـلـطـةـ؟

وعلى الأرجح أن رغبتي هذه في اقتباس بعض حكايات شـارـلـ
بـيرـوـ عـلـىـ طـرـيـقـيـ نـابـعـةـ مـنـ كـلـ هـذـهـ القـصـةـ التـيـ لاـ تـزالـ جـلـيـةـ فـيـ
ذـاكـرـتـيـ، وـعـنـدـمـاـ قـرـأـتـهـاـ مـجـدـداـ لـمـ أـتـمـالـكـ نـفـسـيـ عـنـ التـفـكـيرـ فـيـ
عـمـتـيـ الـكـذـوبـ الـعـطـوفـ الـمـثـيـرـ لـلـشـفـقـةـ. لـقـدـ كـانـتـ صـاحـبـةـ خـيـالـ

مدهش، ولو عرفت القراءة والكتابة لوضعت ربما مؤلفاً رائعاً. وتساءلت مثلاً: ”كيف كانت ستروي قصة ”إهاب الحمار“؟ هل كانت لتجرأ على قول كل شيء عن صاحب اللحية الزرقاء؟ ما العبرة التي كانت تستخلصها منها؟“ مختصر الكلام أنني تسللت داخل عقلها وسمحت لنفسي بتشريح تلك الحكايات، أي أنني أضفت إليها نكبات وألواناً من بلدان مختلفة، وتخيلات أخرى. وإن اخترت إطاراً لها بلداناً عربية وإسلامية فلأنه آن الأوان لرواية هذه البلدان بعيداً عن سمات الفاجعة والمأساة ومن خارج سياق التعصب والإرهاب وما توصم به. لكن هذا لا يمنع بالتأكيد انتقاد المجتمع والإشارة إلى ما يسوده من تنافر ورياء.

وقد احتفظت ببنية الحكاية الأصلية وخرجت عن النص، وهذا ما استهواي في العمل، أي أن أكسو الهيكل العمظيم جسداً وروحاً من زمن آخر، ومن عالم في حقبة غير محددة، لكنه يعنينا اليوم بشكل أو باخر. وفيما أنا أكتب كان يُحوم فوقي وجه فضيلة المحدد وعيناها الغائرتان، وليس أنها كانت تتراءى لي من ليتها المدلهم وحسب، بل كنت أسمع صوتها يُ ملي علىّ ما يجب أن أكتب، حتى ليمكن تصوّرها جنحةً أفلتت أخيراً من المتاعب التي حكم بها القدر عليها. فبشكلٍ ما هي انبعثت بفضل شارل بيرو.

ومن المعروف أن نجاح هذه الحكايات تجاوز الحدود حتى ترسّخ في مخيّلة العالم كله جماعةً وأفراداً. لكن ليس مردّ هذا التألق إلى مضمون الحكايات بحد ذاتها، بل إلى عبقرية بيرو الأدبية وقد طمح إلى الردّ بطريقته على التحدّي الذي أطلقه لافونتين وأمثاله

القصصية في وجه أدباء عصره. ولأن تلك الحكايات شكلت عملاً أدبياً ثراؤ لا يضاهي فهي استمرت خالدة عبر القرون والقارات.

وهذه الحكايات التي كُتبت بمعظمها ابتداءً من العام ١٦٩١ لم تفقد رونقها البة. وهي، منظومةً كانت أم منثورة، ما تزال تمتيناً وتبهرنا. وإن كان خطر لي أن أقتبسها فليس فقط لأنّ تشابهها مع ألف ليلة وليلة ظاهر بشكل جليٍ (صدرت ترجمة أنطوان غالان العام ١٧٠٤)، بل لأنّها تشكل لكاتب اليوم تحديًّا خوضِ المجازفة بكل حرية ومتعة ووفق شروط دقيقة.

ولم تَغُّ عن بال شارل بيرو، الأكاديمي والمسيحي الصالح، ضرورة “سلية الناس كأولاد” ومنحهم ”متعة القراءة“. كأنّه يتجاوب بشكلٍ ما مع أبيات لافوتين هذه:

لو روِيت لي حكاية إهاب الحمار
لغمرني متعة قصوى
أظنَّ العالم عجوزاً كما يقال، ومع ذلك
ما يزال بحاجة إلى سلية كالأولاد.
(القصص الأمثال، VIII، 4)

لم أحاول أن أستخلص من كلّ حكاية مغزى، فهذا لا يتماشى مع عصرنا وقد تأتي نتيجته سلبية، لذلك اكتفيت بمسلمة بسيطة متواصلة من زمن سocrates إلى سيوران مروراً بسبينوزا: يواكب الإنسان على ما هو عليه ولا شيءٍ يغيره، لا في وحشنته القصوى ولا في طبيته اللامتناهية.

اعتمد شارل بيرو على "غفلة المنطق" لكي يؤمن التمتع بقصصه عن الغيلان والجنيات. ولا تستدعي مَنْا هذه الحكايات الموجّهة إلى الأولاد وأهلهم على حد سواء طرح الكثير من الأسئلة. مع أننا نعلم أن حقبتنا لا تخلو من الغيلان والغوارات بشخصياتها الصادمة، كل هؤلاء المخاتلين ووحش الأنانية والمستخفّين الذين يهيمنون على العالم ويشيخون حتى الموت بشكل طبيعي.

أخيراً، إن العبرة الوحيدة التي يعلمنا إياها التاريخ هي أنه يجب، في كل مكان وفي جميع الظروف، إبقاء البصيرة والحدر في حالة تيقّظ. فعلى مر الأزمنة، لم يتعامل الإنسان كحيوان جارح مع أبناء جنسه بل كان، بشكل أبسط، مخلصاً لنفسه كـ"إنسان لأجل الإنسان". ومع ذلك جاءت الأضرار أشدّ فطاعة.

وبعد، إن تمكّني من إعادة كتابة تلك الحكايات بهذا القدر من الحرية يعطي فكرة عما أدين به لمن ابتكرها وأعطتها الشكل المناسب.

الطاهر بن جلوّن

كانون الثاني / يناير، ٢٠١٤

جميلة الغاب النائمة

كان في قديم الزمان ملُكٌ وملكة يعيشان في حالة من الحزن والتعاسة لأنهما لم يتمكنا من إنجاب ولد. وقد جرّبا كل الوسائل عاملين بإرشادات الكثير من الأطباء والقابلات وحتى بعض السحرة. وحتى أنَّ أحد أمناء الملك نصحه باتباع نظام غذائي خاص جداً، وعلى الأخص أن يأكل في أوقات محددة وهو ممسك بيد الملكة، لكن من دون جدوى. وفي أحد الأيام انتقل الملك وزوجته إلى جبل "الطفولة" حيث أقاما سبعة نهارات وسبع ليالٍ يشربان من مياه "نبع الحياة" المالحة الفاترة، فيصابان غالباً بالغثيان ويتقىآن من دون تذمر. وعند عودتهما إلى القصر أدى صلواتهما قبل أن يدخلان مخدعهما. بعد فترة، وإزاء محاولة أخرى فاشلة، أوحى حمزة الشهير، وزير الملك الطاعن في السن الذي أنجب ستة عشر صبياً وبنتاً، بأنَّ سرّ الخصوبة يكمن في الصمت والتأمل. وبالرغم من أنَّ الملك لا يثق كثيراً بحمزة فقد وافق على أن يلزم الصمت مدة أسبوع. فانعزل مع

زوجته في جناحهما الخاص ولم ينسا بكلمة، بل كانا يتفاهمان بالإشارات وينفجران أحياناً بالضحك مثل ولدين مقاصصين. ومرة

الوقت ولم يتغير شيء...

ثم راحا يستشيران أطباء الشرق والغرب من جدّين ودجالين، وقابلات سمينات، وعرافين عميان، وبعض الغجر المارين بالمكان، ورعاية من حرس أضحة الأولياء، وشحاذين محترفين وجنيات معروفات وأخريات خفيات. فاضطروا إلى أكل بعض الحيات وعيون النعاج وأمعاء الكلاب وانتهى بهم الأمر إلى ابتلاء طبقٍ كبير من "الكسكس" فُرِكْ دقيقه بيد ميت اشتهر بكرمه وطيبة قلبه.

وفي يوم جمعة، تماماً في موعد صلاة الظهر، أطلقت الملكة صيحة فرح هرع لها كل سكان القصر. لم يُعرف أكانَت صيحة أم صرحاً، ترنيمة أم دعاء لله وأنبيائه. فقد ظهرت رافعة يديها إلى السماء تشكر الغيوم والجبال، والملك، وعلى الأخص ولادة الجنية ذات العينين اللوزيتين والوجه البهبي الذي تغرّد له طيور المدينة. هي جنّية لا عمر لها، قامتها قامة بنت عشرين وخبرتها خبرة عجوز في المائة من عمرها. مررت ولادة يديها على بطん الملكة وتلّت الألف بيتٍ وبيتٍ من قصيدة الخصوبة التي نظمها شاعرٌ مجھول في زمن عظمة الإمبراطورية، فيما الملكة تكرر كلام ولادة بيتاً بيتاً. وعند وصولهما إلى البيت ٩٩٩ شعرت بشيءٍ يتحرّك في أحشائها وأحسّت بارتعاشات وأبخرة ثمّ أصابها غثيان، حتى كاد يُغمى عليها. فقطع الشك باليقين، إنها حبلٍ. هي عرفت ذلك، وأحسّته. ومسحت ولادة العرق المتصلب على جبينها وعادت إلى جحرها

بعد أن منحتها بركتها.

انتظر الملك عدة أسابيع ليحتفل بالحدث السعيد. واستدعي رجال الدين ليتناوبوا على تلاوة الصلوات لكي يستمر الحigel على أحسن ما يكون. ولم يعد من شغل في القصر سوى الانتظار والترقب. وأحرق البخور من الهند والجزيرة العربية، واستدعي الشعراء فأنشدوا ورقصوا حول كتاب بعنوان جمال الرحم الخصب الباهر. ثم ولدت الأميرة التي طال انتظارها، فدعاهما الملك "جوهرة" لأنها كانت بجمال لؤلؤة نادرة. وبعد أن كان الجفاف يعم البلاد منذ أشهر طويلة إذا بالأمطار تهطل في الأرياف غامرة الفلاحين بالسعادة.

عاشت البلاد كلّها فرحة العيد، وراح الناس يتداولون التهاني، وتصالح من كان بينهم خلاف وعادت البسمة إلى وجوه النساء. وفي اليوم السابع بعد الولادة، يوم العماد، دعا الملك كل الأشخاص الذين استشارهم، وحضروا احتفال التضحية بالحمل الذي نحره الملك بنفسه. وأطلقت التسمية على الأميرة وفق طقس الجدود وتقلديهم. وكان من بين المدعوين ولادة وست جنّيات آخر ارتدين الثياب الحرير الزاهية الألوان والمعطرة بعبير مسك نادر. وتلقت كل واحدة منها علبةً من الذهب الخالص تحوي ملعقةً وشوكةً طعام وسكيناً من الذهب مرصّعاً باللؤلؤ والياقوت، إضافةً إلى رسالة شكر من الملك ومعها بطاقة سفر على متن سفينة للحج إلى مكة المكرمة. بُهرت الجنّيات السبع بهذه الهدايا النفيسة، فجعلن يغنين ويرقصن بأناقة ورشاقة كأنهن معلقات بالفضاء بخيوط خفية، مرتجلات حفلة إليه راقصة. وتلألأت الأنوار وغمرت الأغاني الشجية الملك

والملكة بالسعادة والغبطة.

ما إن عادت الجنّيات السبع إلى مقاعدهنّ حول المائدة حتى ظهرت “قنديشة” الجنّية الشريرة الأكثر قبحاً والأشد كراهيّة والأفظع وحشية في البلاد. وقد اشتُهرت بقدرتها على الإصابة بالعين، تكفي نظرة واحدة منها لإلحاق الخراب بالبيوت وإنزال الكوارث والتسبّب باختلالات مناخية ونشر الأوبئة وتاريق الأولاد في نومهم وتحويل الحليب ماءً مالحاً وبإفلات التجار وتجويع عائلة بأكملها. وإذا خرجت من جحرها توقف الطيور عن الزرقة وتذبل الأزهار وتحوّل الفراشات غباراً وتحتبّئ النساء ويكيي الأولاد.

لا يُعرف لقنديشة عمرٌ محدّد، لكنّ أخبارها محفوظة في كل ذاكرة. يقول البعض إن عمرها مائة وخمسون عاماً، ويؤكّد آخرون أن عمرها من السنين ما لا يمكن لعلم حساب البشر أن يُقدّره. هي عجوز بالطبع لكنها ذات بنية صلبة وحيوية، تفوح منها رائحة نتنة لا تُطاق، تسبّقها من بعيد منذرةً بقدومها ناشرةً الذعر المُريع.

كان الملك يظنّ أنها ماتت ودُفنت، إذ إنّ هذه الجنّية الشريرة لم تظهر منذ زمنٍ طويـل. ويحدث في الواقع أن تناـم قنديشة عشرات السنوات ثم تستيقظ كأنـما من قيلولة، “أريـح فيها عظامي” كما كانت تقول.

وما إن دنـت من القصر في ذلك اليوم حتـى راحت جوهرة تبـكي ذارـفة الدـموع الغـزيرـة وقد أصابـها أحـمرار شـديدـ. لم يـعـد بالإـمكان إـسـكاتـها، لا بدـ أنـ آلامـاً مـبرـحة اـنتـابـت أحـشـاء الأمـيرـة لـكـي تـبـكي

بهذه المرأة. هي المصيبة حلّت للتو في مكان العيد هذا الغارق في البهجة. وأحرق المزيد من البخور لتبديد الروائح الكريهة العابقة من تلك الجنية الشريرة.

وتوجهت قنديشة بالكلام مباشرهً إلى الملك حادجهً إيه بنظره من نظراتها المشعوذة الشهيره:

- ظننت أنني ميته ولم تستعن بي لحل مشكلة ذريتك البسيطة! لقد أخطأت. وقد أندرك في أحد أحلامك، ذاك الذي رأيته ليلاً كان القمر بدرًا وأنت نائم على الأرض لصداع أصابك. قلت لك: "تعال إلى قنديشة، فعندها ما يلزم ملكتك لكي تمنحك ما تريد، تعال واحمل لي معك دماغ الضبع الأسود الذي قتله في رحلة الصيد في الشتاء الماضي". وأنت اعتدت أنه كابوس، أحد تلك الأحلام السيئة التي يراها الملوك لأنهم يعتبرون أنفسهم أرفع شأنًا منا، نحن أبناء العامة البوءاء.

أصابت الجمدة الملك وهي تتكلّم. فقد أفلتت عندها عدسة القراءة المكبّرة المعلقة بعنقه، وبسقوطها على الأرض تحطّمت ألف شظية، وأن تكسّر عدسة قراءة فهذا شرٌ ونذير شوئم.

وتاتبعت قنديشة:

- وقد زدتَ وضنك تعقيداً بتقديمك الهدايا لجنّيات المدينة الصغيرات، جنّيات رخيصات لا يتمتعن بأي قدرات فعلية، مجرّد دمي صالحة للعب مع الأولاد. ونسيني، وجاء سخاؤك منقوصاً. تجاهلت الجنية الأهم، الجنية التي بمقدورها زعزعة البلاد كلّها. أنا أيضاً يحقّ لي بهذه الرعاية، يحقّ لي بعلبة من الذهب الخالص

وبأحجار الياقوت والemas هذه.

ورد الملك متلعثماً

ـ أنا آسف، لم يخطر ذلك بيالي. وعلى كلٌ لم يعد بإمكاني أن أحضر شيئاً لك، فالصانع الذي صنع هذه العلبة سقط أمس عن حصانه وتوفّي.

ـ أعرف، فقد طاله حقدى لحظة اعتقاده أنه كلي القدرة. أنا التي أرسلت إليه بعض الأبخرة الكريهة من رائحتي المقزّزة وذلك لكي أدوّنه فيسقط سقطته القاضية. حادثة مؤسفة...

لدى تفوّهها بهذه الكلمات اختبأت جنّية صبيّة وراء إحدى الستائر، وفي الوقت نفسه، من أجل صرف انتباه الحضور ولإبطال السحر الرهيب الذي كانت قد نيسّة على وشك إطلاقه، راحت الجنّيات الأخريات يتوقّعن أموراً جميلة لجوهرة، فقالت الأولى: ”ستبقين دوماً جميلة وبهية“، وقالت الثانية: ”أنت كنزٌ من الذكاء والإحساس وستبقين دوماً موضع محبة وهيام“، والثالثة: ”لن تعرفي المرض في حياتك، وصحتك هي أثمن ثروة لك“، والرابعة: ”ستكونين بلسمًا لقلب والديك ولن تسبّبي لهما أيّ حزن“، والخامسة: ” تكونين النعمة بحد ذاتها وتقومين بكلّ ما يُملي عليك الجمال والطيبة فعله، ترقّصين مثل نجمة وتغّرّدين مثل عندليب الجنة وتستنزلين المطر على الأرضي العجاف وتملئين جرار الفقراء بكلّ ما يحتاجونه. لن يصيّبك مكروه، ومحميّة أنت من صبية العين والأفكار الشريرة“. أما الجنّية السادسة فوجّهت كلامها إلى قنديشة: ”طالما نحن هنا لن تتمكنّي من إلحاق الأذى بأميرتنا، نحن درعها وخدمها وحرسها الأمين. لن

تغلّبَي علينا، هيّا ارحلِي، عودي إلى جحرِك وموتي بغيظك وبالسُّم
الذِي تَغْتَذِين به!“.

تنفَضَت قنديشة فتساقطت البراغيث والبَق والقمل من ثيابها
البالية. ثمَ التفتَت إلى الجنيات وأطلقت حكمها:

– شيءٌ قاطع، شيءٌ تافه، لا أعرف ما هو بعد، لكن سيكون مريعاً،
شيءٌ قاطع سيتبرأ يد الأميرة اليمني ويتبَّع بموتها. هذا ما أراه، وهذا
ما أسمعه، صرخات ودموع الموت آتٍ على متن حمارٍ دهرِيٍّ
يخطف الأميرة الصغيرة...“.

إذاً خرجت الجنية السابعة من وراء ستاره وهتفت:

– يا مليكي، ويا ملكيتي، اطمئنّا، لا تقلقا، لن تموت ابنتكما،
أميرنا الحبيبة. أنا لا أملك الحيلة الازمة لإبطال السحر الذي أطلقته
هذه العجوز. لا أنا ولا أخواتي نملك قدرةً وقوّةً يمثل قدرتها وقوتها
بما يساعدنا على منع ما تكهنت به. لكننا نملك إمكانية تفادي موتك
ابنتنا الجميلة جوهرة. صحيح، شيءٌ ما قاطع سيجرح يدها اليمني
لكنها لن تموت بسبب ذلك، أنا أضمن لكما هذا، لكنها ستغرق في
نوم عميق، عميق جداً يدوم مائة سنة...“

فصاحت الملكة:

– مائة سنة! يا إلهي! مائة سنة!

فأكملت الجنية السابعة:

– اطمئنّي وثقّي بحسن تدبيرنا. هي ستستيقظ منه، لكن ليس من
تلقاء نفسها. سيفقدها أمير ابن ملك، بهيّ الطلعه كالشمس، لتهدا
 بذلك حيَاةً جديدةً.

نهض الملك، مُتَفَلِّاً بالحزن والغم، وتبعته الملكة، لينسحبا إلى جناحهما. وهرع أطباء القصر إلى سريرهما يُعْنون بهما، بينما كانت قنديشة تبول على الأزهار الموزعة حول الطاولة، ثُمَّ ما لبست أن اختفت وسط غيمةٍ من دخان، فيما أحاطت سائر الجنّيات بالأميرة لحمايتها.

وأمر الملك بسحب كلّ الأشياء القاطعة في القصر، وحضر على العاملين في المطبخ استعمال السكاكين، وأبعد عن جناح الأميرة الخياطات وكلّ الحرفين الذي يستعملون أدوات يمكن أن تنغرز في يد جوهرة.

ومرت السنون.

وها إن الأميرة قد بلغت السادسة عشرة من عمرها وما زالت تلعب مع نسيبة لها اللعبة "الاختباء". وفي ذاك اليوم وجدت مخبأ لها في أعلى علية في القصر حيث كانت تقيم "مندوبة"، العيدة العجوز السوداء، ذات الوجه المخطط بندوب عمودية من الجراح التي ألحقتها بها أسيادها السابقون قبل أن يأويها الملك. وقد فرّت لأن تغادر هذا المكان أبداً. وبالتأكيد أن مرافقي الملك أسكنوها هناك من باب الشفقة وعملوا على إيصال كل ما تحتاجه إليها. كانت جوهرة قد سمعت بوجودها من قبل، لكنها المرة الأولى التي تراها فيها. فسألتها:

– ماذا تفعلين هنا أيتها السيدة العجوز؟

– أروي قصة حياتي.

– لكن لمن تروينها؟ لا يوجد أحد هنا...

– لك ولأولادك وأحفادك... لكل من يأتون من بعدك ويرغبون

في معرفة قصة حياة مندوبة.

- وما الذي تفعلينه طيلة النهار؟

- تكرّم علىي والدك ووضع في العلّية نول الحياكة هذا. ومن زمن بعيد وأنا أحيلك السجاد، وكل سجادة تروي مرحلةً من حياتي الماضية. وكلها موضوعة وراءك. لدى الصوف وكلّ ما يلزمني، فأحيلك وأحيلك، ربما في يومٍ ما يصعد الملك إلى هنا وأقدم له السجادات.

بُهرت جوهرة بالسجادة التي كانت مندوبة على وشك إنهائها، وعليها صورة يمامنة سوداء عاجزة عن الخروج من قفص أحمر بسبب بيت عنكبوت هائل. ذهلت الفتاة وقالت لها:

- كم هذا جميل! هل يمكن أن تقولي لي ماذا تعني؟

- إنها الحرّية!

- كنت أفضّل أن يكون فيها بعض الأخضر، إنه لون الأمل أليس كذلك؟

- هل تريدين أن تحيكها بنفسك؟

- أوه! بالتأكيد!

- هيّا، أمسكي هذا المغزل، لكن انتبهي، رأسه حادّ جداً وقد يؤذيك.

ابتهجت جوهرة لمشاركتها في هذه الحياكة، فأمسكت المغزل وحرّكته من يمين النول إلى شماله، لكن عندما أرادت ردّه لإعادة العملية شقّت به يدها، ومن دون أن تصرخ أو تبكي سقطت مغميّاً عليها.

حاولت مندوبة إنشاها، ومالت بأذنها على قلب الصبية. لم تكن ميتة، بدت غارقةً في نوم عميق. وصاحت العيدة العجوز طالبة النجدة، وراحت تبكي وتلطم وجهها، وحضر الجميع من كل زوايا القصر، قطعوا بصلةٍ وقربوها من أنف جوهرة، سكبوا على وجهها دلو ماء بارد، ولم تتجاوز. كان الدم قد تخثر في قضبة يدها اليمنى. رشّوا على وجهها إكسيراً من طيوب الجزيرة العربية، وكادت العجوز تغيب عن الوعي. وسارع طبيب الملك داعياً الله أن يساعد في مهمته، وقدر أن المسألة معقدة، وفيما هو يجري لها فحصاً دقيقاً وصل الملك، فوضع يده على جبين ابنته ثم أعلن:

– هي نائمة وحسب، هذا ما تكهنت به الجنيات.
فرد الطبيب مؤكداً كلامه:

– قلبها ينبض ببطء، ما تزال حية لكنها تغطّ في نوم عميق. هل يمكن أن تكون قد أكلت من تلك النيبات الممنوعة؟

أجابه الملك:

– كلا، هذا انتقام جنّية شريرة، نوم عميق، طويل... لامتناه. أريد أن ترقد ابتي في أجمل جناح في القصر، في الغرفة الزرقاء حيث يهددها هدير الموج وترانيم النوارس، الغرفة المطلة على حديقة كل الزهور، ولتُغطّ قبة سريرها بالستائر المطرزة بالذهب والفضة. سترقد فيها بسلام حتى يوم يقطتها.

ثم مسح دمعةً وغادر المكان.

وُضعت الأميرة في تلك الغرفة الجميلة الهدامة. بدا وجهها كوجه ملاك وخدّاتها وشفتها بلون المرجان الأحمر. لم تُغضّن غيبوبتها

جبيتها ولا جفنيها، ولم ترك أي أثرٍ بشع على ذلك الوجه الجميل. كانت تتنفس ببطء وهي مغمضة العينين فترتعش أهداها الطويلة قليلاً. كانت على قيد الحياة لكنها غافية. وأمر الملك أن تُترك بسلام. لم تكن الجنّية السابعة التي تكّهنت بهذا النوم الطويل في القصر. لكن ما زال كلامها ماثلاً في الأذهان، فقد نجحت في إنقاذ حياة جوهرة عندما حكمت عليها بالنوم مائة سنة. وأراد الملك إبلاغ هذه الجنّية الصبية بما جرى، لكن للأسف كانت على بعد اثني عشر ألف فرسخ من المكان. فأمر ببعث رسالة إليها بواسطة الحمام الزاجل. لكن قبل إطلاق الحمامات كان القزم ستيتو، ذو جزمة السبعة فراسخ القفازة، قد قفز بها فوق البحار والجبال وصولاً إلى الجنّية وهمس في أذنها: "نامت الأميرة لمائة سنة. هيا، اذهبي إلى القصر، هي راقدة في الغرفة الزرقاء".

كانت الوسيلة الوحيدة لقطع المسافات هي بطلب المساعدة من الثنائين السّتة حرّاس البركان الخامد. هم وحدهم القادرون على نقلها بسرعة قياسية. وقد طاب لهم تقديم هذه الخدمة للجنّية الصبية التي استقلّت عربةً وصلت بها بعد ساعة واحدة إلى القصر. ولم يلبث الثنائين أن غادروا لأنّهم كانوا يخشون أن تثور حمم البركان مجدداً في غيابهم.

استقبل الملك الجنّية وساعدها على التقاط أنفاسها، إذ كانت رحلتها سريعةً جداً لدرجة أنها أصيّبت بدوار. وبعد أن شربت كوبَ ماء وتشقّقت عطور حديقة كل الأزهار قالت للملك إنه حسناً فعل بوضعه الأميرة في الغرفة الزرقاء، وفكّرت أن المفروض حالياً

التحضير لصحوة جوهرة. في يوم تستفيق الأميرة من نومها الطويل يجب ألا تجد نفسها وحيدة في هذا القصر الكبير، إذ لا والداتها ولا أحد من سكان القصر سيكونون موجودين لكي يحضروا استيقاظها. لكن الجنية حرصت على ألا تقول الأمور بهذه الصراحة.

قالت للملك:

– أطال الله عمرك سنيناً طويلاً، أنت والملكة، سنيناً إضافية بما يسمح لكم بروءة ابنتكم كما هي الآن، يافعةً وجميلة. لكن الملك أجابها بحكمته ورزانته:

– يا للجنية الصبية! كم أنت ودودة، لكن قدراتك لن تقوى على هذا الإحسان ولن تكون قادرةً على تحقيق هذه المعجزة. أنا أعرف أن الإنسان ميت لا محالة ولا شيء يمكنه منع هذا القدر، ولن أكون هنا بعد مائة سنة! شكرًا لكلامك اللطيف، لكن ما الذي تنوين فعله الآن؟

– سأئرم كل من هم في عالمها، كل العاملين في القصر. من دون أن أمس بك ولا بالملكة.

– هيا! نفذ ذلـك، لقد تحطمـت حياتـنا بعد هذه الحادـثـة ولم يـعد لها من أهمـيـة. سـتنـصـرـفـ منـ الآـنـ وـصـاعـداـ إـلـىـ الـاهـتمـامـ بـشعـبـناـ وـتـوفـيرـ وـسـائـلـ العـيشـ الرـغـيدـ لـهـ. سـنـقـومـ بـعـملـ الخـيرـ، أيـ مـمارـسـةـ وـاجـباتـناـ كـمـلـكـ عـبـرـ التـفـكـيرـ بـالـآـخـرـينـ وـلـيـسـ فـقـطـ بـأـنـفـسـنـاـ، هـذـاـ كـلـ مـاـ تـبـقـىـ لـنـاـ. أـخـرـجـتـ الجـنـيـةـ عـصـاـ ذـهـيـةـ مـنـ تـحـتـ ثـوـبـهـاـ وـقـالتـ: ”إـنـهاـ عـصـاـ سـحـرـيـةـ!“، وـوـجـهـتـ بـهـاـ ضـرـبـةـ خـفـيـفةـ إـلـىـ رـأـسـ كـبـيرـةـ المـرـبـيـاتـ التـيـ لمـ تـتـأـثـرـ بـهـاـ كـمـ بـدـاـ.

استغربت الجنية عدم تأثير السيدة وقالت:

- عندما يلمس طرف عصايم السحرية شخصاً ما، سرعان ما يغرق في نوم عميق. ماذا جرى؟ ألم تعد عصايم الجميلة سحرية؟ في الحال ظهر القرم ستيلو حاملاً عصا فضية وقدّمتها للجنية قائلاً: - لم يعد الذهب قادرًا على التنويم، بل بالعكس صار يوقظ الشهوات. إليك هذه العصا، لقد غطّست الليلة بالذات في ماء الفضة. تناولت الجنية منه العصا وراحت تلمس بها رؤوس كل الأشخاص الموجودين. نال الجميع ضربتهم الخفيفة حتى الجياد والحيوانات المرافقة لهم. وحده ستيلو أفلت من هذا السحر واحتفى سريعاً، فيما الرجال والنساء والحيوانات رقدوا ببطء نائمين حول الغرفة الزرقاء. وحمدت النيران في المدافئ وانطفأت شعلة القناديل، وغابت الشمس قبل موعد الغروب، ثم شحبت الأنوار وعم الظلام.

مشت الجنية خطوات قليلة وخاطبت الملك:

- سيكون هذا الليل طويلاً، سيدوم مائة سنة. وستستيقظ جماعتك في الوقت نفسه مع الأميرة ويكونون حاضرين لخدمتها. لا تشغِّل بالك، ستسير الأمور على ما يُرام، وأنا نفسي سأحرص على ذلك.

طبع الملك قبلةً على جبين جوهرة، ومسحت الملكة دموعها وقبّلت يدي ابنتها المجموعتين، ثم غادرا القصر بعد أن حظرا الدخول إليه وانتقالا للعيش في بيتٍ صغير في الجبل يمكنهما منه رؤية مقرّهما السابق، وفوجئا عندما تبيّنا أن القصر قد كُسي بقطعة قماش ضخمة بيضاء تُزّرّها حالٌ متعدد الألوان، حتى بدا المبني كرزمةٍ كبيرة مربوطة بخيطان في انتظار عودة مالكه. وفكَّر الملك أن

هذا أيضاً بفعل سحر الجنيات الطبيات. ثم أوكل الحكم إلى وزرائه وكرس نفسه لقراءة النصوص الصوفية. واكتفى بالشيء القليل، بالزهد والتواضع والتأمل. أما الملكة فقد فقدت شيئاً فشيئاً ذاكرتها والرغبة في العيش. وبعد سنوات توفياً متعانقين أثناء نومهما في فراشهما.

بعد مائة سنة كان القصر لا يزال مغلفاً، وقد تحولت القماشة البيضاء إلى اللون الرمادي، وارتخت الحال. فيما الأشجار الضخمة التي نمت حول القصر القديم جعلت الدخول إليه صعباً. وأيّاً يكن لم تراود الناس أي رغبة في دخوله بسبب ما يروى عنه من أخبار مرعبة. ومن هذه الأخبار أن القصر مسكون، وأن أشباح البلاد كلها تلتقي فيه مرةً في السنة في ليلة القدر، فيقيمون فيه حفلات راقصة وطقوس عربدة يقدم فيها الأولاد الصغار كأضاحي. وحتى أن البعض كان يزيد على ذلك أن مصاصي دماء يقصدونه من مقابر الشرق ويتداولون الدماء الطيرية بتقبيل بعضهم البعض بنهم. وتزعم شائعة أخرى أن القماشة لا تخفي قسراً بل سيركماً افترست حيواناته مرؤضيها وصادرت سلطتهم. أو أيضاً أن الغابة المحيطة بالقصر كانت مأهولةً بسعادين مصابين بمرض معد جداً وفتاك ولذلك يجب ألا يقترب منه أحد. وأخيراً روى البعض أنه كان منزل قنديشة الجنية العجوز الأكبر سنًا والأكثر وساخنة والأعنف سُمّاً، ما يعني أنها الأخطر بين كل الجنيات. وتکاثرت الشائعات مؤكدةً كل شيء وأي شيء. والأشد غرابةً منها حكت عن أميرةٍ صبية ذات جمال يوقع الطيور من سمائها، بنت وحيدة لملكٍ توفي منذ زمن بعيد وأنها لا تزال نائمة في غرفةٍ رائعة في القصر منذ مائة سنة. كان يروي هذه

القصة في الساحات العامة قصّاص شهير يدعى بيرّو. كان يظهر، يسرد حكاياته ثم يغيب، والناس يضحكون ولا يصدقونه. في أحد الأيام مرّ قيس، ابن الملك، على مقرية من القصر، وكأنما جذبه هذا الشيء الرمادي المحاط بغابة كثيفة، فسأل عما يكون، فأجابه كبير الوزراء:

– يا سيدي، من الأفضل ألا تعرف عنه شيئاً!

وقال آخر:

– يا سيدي، هذا قصر الغولة الأكثر شرّاً في الأرض.

وقال أحد معاوني الملك:

– هذا مكان مسكون بالأرواح الشريرة ومشبع بدم الأطفال.

وقال أمين سره:

– هذا قصرٌ قديم حلّت عليه لعنة الله والبشر. وتروى عنه أيضاً قصة خرافية عن أميرةٍ تناول فيها منذ مائة سنة... رواها شخص يدعى بيرّو في قرية الجنّيات السبع. وبحسب هذه الحكاية أنّ الأميرة في انتظار أن يوقظها ابن الملك. وفي رأيي المتواضع لا صحة لكل ذلك. تناول مائة سنة! لا بدّ أنّ الأميرة أصبحت متصلبةً ومتغضنةً ومجرّد تراب. مائة سنة! كيف توقظ التراب! كل شيء يتلاشى ويتبدّد وليس ما يتبقى من هذه الشخصية الفاتنة.

– بالتأكيد، أنت على حقّ، لكنّ بي فضولاً لكي أذهب وأرى عن كثب ما يجري في هذا القصر. اسمع، لقد رأيت حلمًا منذ ليالٍ، كنت فيه تائهاً في صحراء الجزيرة العربية وأنا أسير من دون توقفٍ وفي الأفق أمامي قصرٌ منورٌ من كلّ جهاته. وكلما تقدّمت ابتعد. إلى

أن حملني ملاكان تحت أجنحتهما وأنزلاني في باحة القصر حيث كانت أميرة جميلة جداً تلعب بالدولاب وهي تترنّم بأغنية مثل: «أنا في انتظار أميري الساحر...». وما إن أقتربت منها حتى تلاشى كل شيء في سحابة من دخان. في تلك اللحظة أفقت من نومي متسبباً عرقاً وخفقاً في القلب. ومذاك وأنا على يقين أنّ صبيةً ما تنتظرني لكي أحرّرها. لذلك سأخلع باب القصر وأفتّش عن الأميرة التي بُتّ مغرماً بها.

بلغ الخبر الملك فاستدعي ابنه وقال له:

- أميرة نائمة منذ مائة سنة! ألا تعتقد أنّ أمامك مهمات أهمّ من الذهاب لايقاظ شبح؟ هل تعرف أن عليك الالتحاق قريباً بالكلية العسكرية استعداداً للولي الحکم؟ لقد تغير العالم، ولم نعد نعيش في عصر حكايات الجنّ. يابني، أتعلم أنّ البلاد تعاني من جفاف مستدام وأن علينا مواجهة الكثير من المشاكل، ويجب أن تحضر لمعالجتها. الفلاحون يغادرون أراضيهم ويأتون للاستجدة على أبواب المدن. وهذا عار! يجب أن نبادر إلى عمل ما، أن نجد حلّاً لكي يتمكّنا من رى أراضيهم. لقد أصدرت الأوامر بقطع عيون الماء في القصر وبتحويل مجرى بعض السوادي إلى من هم أكثر حاجة إليها، وأنت تحدّثني عن أميرة عمرها مائة عام تنتظرك في قصر عشعش فيه الغبار!
- لكن يا أبي يجب أن أذهب، هذا أقوى منّي. وأعدك بتنفيذ أوامرك بعد ذلك.

- بما أنك مصر على ذلك سأرسل بعض حرسي برفقتك. من الأفضل لزوم الحذر، فقد يكون في الأمر فخ.

وتوغل الأمير الشاب في الغابة يتبعه سبعة رجال مسلحون. وما كاد يلمس شجرة ليشق طريقه حتى تساقطت عصافير ميئية وغطّت الأرض. وهذا نذير شؤم. كان الحرس يسيرون من دون أي تعليق، وبوصولهم عند باب القصر وقع الرجال السبعة في فخٌ مغطى بأوراق الشجر. خاف الأمير وسحب طرف حبل من الحبال وإذا كلّ القماشة التي تغلّف المبني تحول تراباً رمادياً. ودفع الباب فأصدر صريراً، وتهيأ له أنه يدخل متحف شمع، إذ كان هناك رجال ونساء وكلاب متجمدون كلُّ في وضعيته. وما كاد يلمس بإصبعه أول رجل جالس وبيده رغيف خبز حتى انهار أرضاً وتحول في وقوعه كومة رماد صغيرة. ولم يلمس كلباً فتفتّ بالطريقة نفسها. أدرك الأمير أنَّ من الأفضل لا يحاول مجدداً. ثم تابع شعاع ضوء متسللاً من كوة العلية فقاده إلى الغرفة الزرقاء الشهيرة. راح قلبه يخفق بقوة وأحسَّ أنه مدفوع بقوة داخلية غريبة، حتى بدا مستعداً لمواجهة كل المخاطر.

كانت عدة أفاع تحرس باب الغرفة. لم يلمس بطرف عصاه الفضية رأس واحدة منها مثلثة الرأس، فإذا هي على قيد الحياة وفررت فاما وقدفت بوجهه حزمة من أشعة ضوء باهر. تراجع قليلاً وعاد يلمس بعضاه أفعى من نوع كوبرا تكونت على نفسها مثل الكرة. عندها سمع الأمير صوتاً يتكلّم:

– أخيراً ها أنت!

دار على نفسه وتلتفت حوله لكنه لم ير أحداً. ومجدداً سمع الصوت:

- لا حاجة بك إلى التلفت، الكوبرا هي التي تكلّمك، هي التي أنهكتها حراسة غرفة حبيبك. ادخل إذن، أيقظها ولنجز الأمر! دُهش الأمير وأراد أن يقول شيئاً، لكن لم يصدر أي صوت من فمه.

- على فكرة، هل معك شيء للتدخين؟ سيجارة، تبغ للمضخ أو بعض أعشاب الجزيرة العربية التي تبعث الأحلام... هل أنت عاجز عن الكلام؟ انتظر، إن ضفدعه الكلام موجودة في هذه النواحي، يكفي أن تملّس ظهرها سبع مرات لكي تستعيد القدرة على الكلام. وراح الأمير يفتش عن الضفدعه على الأرض، فأشارت عليه الكوبرا أنها في بطن "ميش-ميش" رئيسة الأفاعي والعجز الكبير بين كل الزواحف، وهي لا تلدغ لكنها تتطلع كل ما تجده في طريقها.

- انتظر إلى أن تعطس وتبصق!
وتسمّر منتظرًا في ثيابه الأميرية مفكراً أن هذا قد يدوم سنوات.
- كلا، أنا أقرأ أفكارك، إنها مسألة صبر. هنا نتعذّر بالصبر، هو طبقٌ يؤكل بارداً. لا تشغل بالك، سأساعدك، ليس حبّاً بالملوك، بل لأننا تحملنا فوق طاقتنا من هذه الحياة التي لا تلائمنا، وكلما استعجلنا فلن أسرنا كلّما كان ذلك أفضل.

وما انتهت من كلامها هذا حتى بصقت ميش-ميش ضفدعه الكلام، فإذا هي كلها كالورق المعلوك، لم تكن بمظهر حيوان بل كرزة مكتوب مضغوط. تطايرت منها بعض الأوراق فانحنى الأمير وملس ظهرها سبع مرات، وللتتو انطلقت من فمه كلمات متدافعه كالهرج والمرج ما جعل كل كلامه غير مفهوم: أميرة، قصر، ملك،

مائة سنة، غابة، بحر، كبد، ستارة، شجاعة، حرس، زنجية، سمراء،
سوداء، صاحب، عاصفة، رأس، شجرة، رماد، ضوء، شكرأً،
نعمه، جمال، كرامة، كريمة، أمينة، وَجْنة، الأذن، هيروت، فيبور،
ديافيمizi، والو، دين، ملّة، هنش، صبر، جمال، صبا، غنى...
وأنجدته الكوبرا مجددًا:

- حسناً، حصلت على الكلمات، ويجب علينا أيضاً أن نرتبها في نسق مفهوم. ومن أجل ذلك عليك يا أميري أن تجتاز امتحاناً آخر. لا تتوتر، لست هنا في قصرك بل في قصرنا. فاصبر واسمعني جيداً.

هزّ الأمير رأسه موافقاً وانتظر. فرأى الكوبرا تقترب من سائر الأفاعي وتوشوشها.

- اسمع أيها الأمير. نحن نريد استعادة حرّيتنا! وهذا لا يتوقف إلا عليك وعلى ما ستقوم به. وإليك مطلبنا: عندما تستعيد الكلام ستتلئ الصلاة المناسبة.

ولم يلبث الأمير أن تكلّم كمالو أنه محاط برجاله الموثوقين ناسياً أنه في حضرة مجموعة من الأفاعي:

- ”عندما يفيض النهر تُغوي الأفاعي الضفادع فتخبئها في أحجارها.

عندما يهزّ الهواء الأشجار تفقد الطيور عقولها وأعشاشها.
عندما تحرق الشمس رؤوس شجر النخيل تساقط حبات البلح
من التعب“.

وَهَا أَنَا أَسْمِحُ لَكُنَّ بِالرَّحِيلِ، اذْهَبْنَ لِلقاءِ صَخْرَوْرِ الْجَبَالِ الدَّافِعَةِ،

أنتَ يناسبكَنَ الجفاف. ربما استجلبتنَ الغيوم وأنتَ تُنسَبْنَ بين الصخور.

عندما راحت الأفاعي كلها تزحف ورحلت من دون مشاكل، وبقي الأمير وحده أمام الباب الضخم الذي انفتح عندما أطلق عباره: ”ها أنا يا أميرتي!“.

كانت الجنينات السبع هناك محطة بالسرير الذي تنام فيه جوهرة، وكل واحدة منهن تحمل شمعةً مضاءة. تقدم الأمير بشيءٍ من التردد، ثمّ جثا على ركبتيه ورأى صبيّة ذات جمالٍ مشرقٍ. وعندما دنا من وجهها لتقبيله أحسَّ الأرض تداعى تحت قدميه، لكن شفتيه لامستا جبين الأميرة، وفي الوقت نفسه انبجست من السرير نافورة ماء قوية رافعةً جوهرة على رأسها. تراجع الأمير وقد تبلّل كلياً. فقد فجرت قبليته للتو نبعاً عظيماً وتدفق الماء في كل مكان راوياً الريف والمدينة. نبع ماء لا ينضب. وراحت الجنينات تغّني فيما جوهرة تستيقظ على مهلٍ وهي ما زالت معلقةً بالهواء، إلى أن خفَّ دفق الماء وأنزلها إلى مستوى الأمير الذي مدّ لها ذراعيه.

كانت جوهرة قد فقدت لون بشرتها الأبيض، وأصبحت سمراء، شديدة السمرة، سوداء تقريباً. وهتفت إحدى الجنينات:

- أيها الأمير، لا تستغرب الأمر! فلكي تحافظ الأميرة على شبابها كان عليها أن تتخلّى عن لون جلدتها الأبيض الجميل. كان لا بدّ من تضحيةٍ بسيطة... لكنني واثقة من أنك لست من أصحاب الأفكار السيئة عن الناس الملؤنين!

– أنا لا، لكن أمي متيقنة من أنّ السود خلقهم الله لكي يكونوا
عيدياً وحسب!

– لكن العبودية سوف تلغى في يوم من الأيام!
غادر الحبيبان القصر تبعهما الجنّيات وهنّ يعزفون الموسيقى.
ولم تحر جوهرة كثيراً في أمرها. غفوة دامت مائة سنة! ليل طويل
كانت أحلامها في خلاله بهيجه كلها، لكنها كُوِّنت فكره مختلفة
عن الأمير مخلصها. تخيلته أشقر طويل القامة أخضر العينين، أما
الأمير الذي يحملها الآن على ذراعيه فهو أسمراً اللون قصير القامة
هزيل أزرق العينين. ولم يفتتها أنّ كل أفراد أسرتها قد فارقوها الحياة.
وهمست في أذن الأمير:

– ما اسمك؟

– قيس.

– كيف صدف أنّ عينيك زرقاءان؟

– ورثهما من أمي.

– أين تأخذني؟

– إلى البلد الذي لا ينام فيه أحد.

– هذا ما أريده، لكن ماذا يفعل الناس ليبقوا مستيقظين؟

– يعيشون واقفين، ليس هناك أسرة ولا لحف ولا شرافف ولا

أدوية منومة...

– ولا أحلام وبالتالي!

– يحلمون وعيونهم مفتوحة، يتحادثون ويتداولون أخبار أحلامهم.

– ألا يصيبهم المرض أبداً؟

- بلـى، لكنـهم يُدفـون وقوـفاً، كـلٌ في مـكانه. وحدـها العـائلة
الـمالـكة لـها حقـ النـوم وـامتـيازـه.

- لكنـ لا رـغـبة لـي في النـوم.

- عندـما تـرـين أمـي الـملـكة ستـغـيرـين رـأـيك.

- لماذا؟

- لأنـ والـدـتي لا تحـبـ الغـربـاء. هي بيـضـاء البـشـرة ولا تحـبـ السـوـدـ.
والـمـلـكـ أـيـضـ. أمـا أنا فـكـأنـي من عـالـمـ آخرـ لأنـي لا أـشـاطـرـهـما رـأـيهـما.
دخلـ الأمـيرـ قـيسـ القـصـرـ سـرـاً، فـبارـكـ الجنـياتـ الحـبـيـبـينـ ثـمـ
رـحـلـنـ. وهـطـلـ المـطـرـ وـروـيـتـ الأـرـاضـيـ وـاحـتـفلـ السـكـانـ فيـ كـلـ
مـكـانـ. وـكـانـ الأمـيرـ مـبـهـجـةـ حـتـىـ وإنـ كـانـتـ تـخـشـىـ اللـقـاءـ معـ
الـمـلـكةـ الأمـ. وـكـانـ قـيسـ قـرـأـ أـفـكـارـهاـ فـقالـ لهاـ مـطمـئـناـ:

- سـأـفـعـلـ أيـ شـيءـ كـيـلاـ تـؤـذـيـكـ أمـيـ. سـوـفـ نـتـزـوـجـ وـنـنـجـبـ أـولـادـاـ،
وـنـرـحلـ عنـ بـلـادـ "الـنـاسـ الـواـقـفـينـ" وـنـقـصـدـ "قرـيةـ الـأـحـلـامـ الـمـتـحـقـقـةـ"
نقـيمـ فـيـهاـ. هـنـاكـ لـا مـكـانـ لـلـأـذـىـ وـالـقـساـوةـ وـالـخـيـانـةـ فـيـ قـانـونـ الـبـشـرـ،
وـالـأـشـارـ يـطـرـدـونـ مـنـهـاـ.

- عـالـمـ مـنـ دـوـنـ شـرـ، إـنـهـ لـأـمـرـ رـائـعـ لـكـهـ مـسـتـحـيلـ!

- ستـرـينـ، سـنـعـيـشـ وـسـطـ الجـنـائـنـ وـالـجـداـولـ وـكـلـ الـحـيـوانـاتـ التـيـ
تـحـبـيـنـهاـ.

- وـمـاـذاـ نـفـعـلـ فـيـ نـهـارـاتـناـ؟ لـاـ يـفـوتـكـ أـنـيـ أـرـيدـ الـعـملـ، أـنـ أـشـتـغلـ
بعـضـ الـأـمـورـ، مـائـةـ سـنـةـ مـنـ التـعـطـلـ زـمـنـ طـوـيلـ!

بدـتـ جـوـهـرـةـ حـيـوـيـةـ، جـمـيـلـةـ، لـاـ تـفـارـقـ الـبـسـمةـ ثـغـرـهاـ. تـدـهـشـ
لـكـلـ شـيءـ، وـتـغـبـطـ لـكـلـ شـيءـ. عـنـدـماـ تـذـكـرـ نـوـمـهـاـ الطـوـيلـ، تـتـحـدـثـ

عن فاصلٍ زمنيٍّ سحريٍّ، عن تقاعد قبل الأوّان، عن اختبار الفراغ واللاشيء. لأنها ما كانت لتتذكّر الأحلام السعيدة التي رأتها بفضل الجنّيات طوال هذه السنين لولا وجه أميرها الفاتن، ذاك الذي سيحضر لإيقاظها.

وفيما العاشقان يستعدان للخروج من جناحهما فاجأتهما الملكة الأم ساخطةً وهاجمت ابنها بشدةً:

- أين وجدت هذه الشمطاء؟ أنت لا ترى ما يراه قلب الأم، كلها تجاعيد تفوح منها رائحة النوم العطنة ونفسها كريه مثل ميّة نُبشت من قبرها! ليست بشرتها سوداء لكن الأوّاسخ غطتها، فهي لم تغسل قطّ، ولن يزول عنها هذا السواد أبداً، ستبقى سوداء على الدوام. وهل تعرف ما الذي يصيب السود؟ يجعلون عبيداً، نعم، خدماً وأناساً أذلاء لأنهم خلقوا ليخدموا ويقولوا صامتين! يابني، فهو والدك من ذلك على هذا الطريق؟ أنا لا أستغرب الأمر، فهو غبيٌّ وأنت ساذج! هي أميرة نامت مائة سنة! وماذا بعد؟ صدقت قصة المجانين هذه وأحضرت لي إلى القصر تلك التي يجب أن تكون في المقبرة!

- أمي، أنت شريرة وظالمة، وعيناك تمثلان حقداً. دعى هذه الفتاة بسلام، واهتمي بسائر أبنائك، أما أنا فسأنسحب وأصون جميلتي.

- جميلتك! ومنذ متى يحق للزنوجيات ادعاء الجمال؟ مساء اليوم نفسه استدعت الملكة الأم الجنّية الشريرة، تلك التي خلّفت قنديشة واتّخذت لنفسها اسم "روندا" لأنها كانت متخصصة

بلغة ورق مأخوذة عن إسبانيا تحمل نفس الاسم. قالت لها:

- افعلي شيئاً، خلصيني من هذه اليقطينة الجافة، اجعلها ترحل
وتدع ابني بسلام.

- ليس بإمكاني أن أفعل شيئاً ضدها، هي محمية ألف مرّة ومنيعة
بعد أن حصلت بها سائر الجنّيات وباتت في منجى من الضرر، وحتى
أني أعتقد أنها لم تعد موجودة...

- اصمتي أيتها الحمقاء، هي موجودة بالتأكيد، لقد شاهدتها للتو!

- نعم، لكنك لم تشاهد إلا جسدها، أما روحها فقد التحقت
بروح الأمير قيس، وصارا واحداً أحداً. هما متحابان، وفي مواجهة
الحب ليس بإمكان الجنّيات أن يفعلن شيئاً، حتى الأكثر شرّاً بينهن
مثل قنديشة ومثلي. طالما الناس متحابون لا يمكن تحطيمهم.

- إذن ما الفائدة منك؟

- أنا الحق الأذى لكن ليس بكل البشر، هناك استثناءات، والأميرة
أحد هذه الاستثناءات.

- أغربي من وجهي، سأتدبّر الأمر بنفسي.

رأت الملكة الأمّ أن عليها الانتظار، وأن تأخذ الوقت الكافي
للتفكير واللجوء إلى العحيلة لتحقيق مبتغاها. لم تعد توجه الكلام
إلى جوهرة، وصارت الوحيدة منها تجتنب الأخرى، وعلم كل
من في القصر ما كانت تكتبه الملكة العجوز من كره للأميرة الشابة.
ونصح الملك ابنه بالانزعال في قريةٍ بعيدة أو على جزيرةٍ ما، فرحل
قيس وجوهرة إلى "قرية الأحلام المتحقّقة" ولم يعودا قطّ إلى
القصر.

لم يكن يعيش في تلك القرية سوى أناس سعداء، امْحى فيها الحسد والغيرة والشرّ والخداع وكل المشاعر السيئة. وكل فرد فيها وجد الصفاء في نفسه بعد تحقيق حلمه. فيها يمكن الالتقاء بأدونيس وهو يتنزّه يتاج على رأسه بعد أن لُقب "أمير الشعراء"، وماريا مع أولادها الأربع الذين يرفضون أن يكبروا وما زالوا يتغذّون بحليب أمهم، وأنجيليك المرأة السمراء الفاتنة التي تتطاير كالفراشة من زهرة إلى زهرة، وأطباء ومحامين لا عمل لهم ومع ذلك لا يتذمرون، وصحافيين يمضون أوقاتهم واصفين ذكرياتهم، ورياضيين يحافظون على لياقتهم في جوّ من البهجة والمتعة، وجندو عُزل يتسلّكون لملء أوقات فراغهم، و"حلوة" تلك المرأة التي تأكل طول الوقت من دون أن تسمّن، وزوجها الذي يشمل بمجرد شربه الماء، وبأناس على سفر دائم لا يتوقفون في القرية إلا لتغيير ملابسهم، وبجماعة من المولعين بالكذب الذين فقدوا الرغبة في رواية الحكايات، وبخصوص محتالين تائبين امتنعوا عن سرقة أي شخص، وبسحره يخفون المال ويستبدلونه بفواقع صابون، وبأولاد يعيشون في عبّ الشجر ...

في هذه القرية وضعت جوهرة توأمِن، صبياًً أسود اللون وبنتاً بيضاء، فأقيمت احتفال لعدة أيام وأوفد قيس رسولًا ينقل الخبر السعيد إلى أهلها. فملأت الملكة عربةً بالهدايا وطلبت إلى الرسول أن يقدمها إلى الزوجين الفتّيَّين. وتكلّمت بكلّ لطف ورجُتُ الرجل أن يبلغ جوهرة اعتذاراتها لأنها أساءت استقبالها، معبرةً عنأملها في أن تراهما في القصر مع ولديهما.

كان من أثر الإقامة في قرية الأحلام المتحقق أن أزالت كل فكرة سيئة أو نية ميتة. ولم تشعر جوهرة ولا قيس بالارتياب بالملكة الأم، واعتقدا أنها نادمة بصدق على موقفها وأنها تريد التصالح مع الأميرة. واتفق قيس مع زوجته على زيارة القصر وتمضية فترة فيه. فغادرَا القرية التي اجتمع كل سكانها لوداعهما. وعلقت بين الأشجار يافطات كتب عليها:

قيس وجوهرة، يا إنساني عيوننا
قرية الأحلام المتحقّقة تعبّر لكما
عن إخلاصها وتعلّقها الدائم بكما.
عوداً إلينا بسرعة!
إنّ وجودكما بيتنا نعمة
و هبة من السماء.

ارتدت الملكة الأم ثوباً أبيض واستقبلتهما بابتسامة وذراعين مفتوحتين. وضمت ابنها بحرارة ثم كتّها، فيما طلبت أن يُحمل التوأمان إلى جناحها لكي تُقدّم لهما الهدايا. تأثرت جوهرة بتغيير المزاج هذا، إلا أنها سمعت صوتاً، ربما كان صوت الجنية الطيبة، يهمس لها: - انتبهي، لا تصدقِي هذه الابتسامات وهذه الطيبة. حذاري، ليس من العبث إذا قيل إن الإنسان لا يتغيّر، وإنَّه قد يداهن ليضرب عندما تخلّين عن احتراسك!

وعندما رأى قيس زوجته قد أصبيت فجأةً بعض القلق حاول أن يطمئنها:

- أمي تحبك. عندما رأتك في المرة الأولى تصرفت بداع الغيرة، فقد استولت امرأة أخرى على ابنها وقلب ابنها. وهي اليوم تغيرت بعدما فكرت طوال هذا الوقت. وعند ولادة طفلينا شعرت أنها تحبنا وهذا ما أرادت أن تقوله لنا وتبته. فمن فضلك، ابذل جهداً وابتسمي ولا تُبدي ارتياحاً بها بعد الآن.

مر الأسبوع الأول من دون أي حادث. كان الأولاد يلعبون عند جديهما ويعودان عند والديهما في المساء. وفي أحد الأيام أبلغت الملكة ابنها أنها تنوی اصطحاب حفيديها معها في نزهتها البحريّة الأسبوعية. ولم تتمكن المربية من مراقبتهما لأنها لم تستيقظ من نومها، وفيما بعد علِمَ أنها نُوّمت بواسطة زهورات مغليّة ذُوب فيها مسحوقٌ منْوّم. هكذا باتت الجدّة وحدها بصحبة الولدين. وعندما وصلت إلى عرض البحر طلبت إلى معاونها أن يلقي في الماء قارب النجاة، ونفذ الرجل الأمر من دون اعتراض، فوضعت الطفلين في القارب وانكفت عائدة. كانت الشمس حارقة، وراح الولدان يسبّيان.

لم تلبث الجدّة أن دخلت القصر مبللة الثياب وهي تتحبّب وتحدّش خديها:

- يا إلهي ! يا للكارثة ! لقد أودت موجة هائلة بالطفلين، كنّا نغرق، وقد سبّحت وسبحت إلى أن أنقذني مركب مرّ بالمكان، أما الولدان فقد وضعتهما في قارب النجاة لكن وبالأسف كان البحر أعنى من طيبتي وقد أودت بهما أمواج هائلة. لقد أُسقط بيدي، وصرخت، صرخت، لكن خادمي غرق، والقططان قفز إلى الماء ليستعيد الولدين

لكن هو أيضاً أودت به موجة مشوّمة...
بكت جوهرة وقيس حتى جفَ الدمع في مآقيهما وتحطم قلباهما
من الألم، وو جدا سلواهما في الصلاة. أما الملكة الأم فكانت تتظاهر
بأنها مفجوعة وتبكي وتنوح. لكن أحدهم فاجأها وهي تتنشق من
بصلة مقصومة نصفين لكي تستدرِّ الدموع، وعندما رأته هدّدته بأشد
انتقام إن هو فضحها.

في منتصف الليل سمع قرع على باب القصر، فقفزت جوهرة
مثل حيوان استشعر وجود صغاره، ولحق بها قيس وأسرعا راكضين
شبه عاريين عبر فناءات القصر. وفتح قيس الباب الكبير فإذا هو أمام
عجز يرتعد ويقول له:

- سيدِي، أنا مجرد صياد بائس. وقد أنقذت بعد ظهر هذا اليوم
طفلين متrocين في قارب نجاة، ولم أجد أهلهما، ربما غرقوا. وأنت
إنسان طيب وفكِّرتُ أنك قد توافق على أن تشمل برعايتك هذين
الملاكين الصغيرين. لم أعرف إلى من يجب أن أتوجه، لكن زوجتي
حليمة نصحتي بأن أسلّمهمَا إلى القصر. وقد أطعْمَتْهُمَا وغيَّرْتُ
ثيابهما. ها هما نائمان في قفة الصيد هذه يحلمان أحلاماً سعيدة.
ارتمت جوهرة على الرجل العجوز وضمَّته بذراعيها، ودعاه قيس
إلى الدخول لكن الصياد قال له إنه يجب أن يرجع إلى البحر.

وهمسَت الجنية الطيبة في أذن جوهرة:

- سبق أن نبهتُك، إن الناس لا يتغيرون أبداً. حالياً خذِي ولديك
وارحلِي مع زوجك إلى حيث تكونون في مأمن، وعليك بالصبر.
ستتحقق العدالة، فإذا عرفت كيف تنتظرين سترين روح عدوك تفارق

بالم جسده، جسداً مدمراً لا قوة فيه ولا رجاء.
انعزل قيس مع زوجته ولديه في جناحهما وقرر ألا يتعاطى مع
أمه من الآن وصاعداً.

بعد أيام استدعت الملكة ابنتها وقالت له:

- عليك أن تختار بين أمك وهذه الرنجية، بنت العبيد رببة الأكواخ والجوع. أنا والدتك، بإمكانني أن أجربك من لقبك وأجعل منك نكرة. أنت لم تعمل بنصائحني وانسقت وراء نصائح أبيك. وكلا كما خاني. والآن لم أعد أتحمل هذا الوضع عندي، فإما أن تخليص منها وإما أن تغادر البلاد، وطالما أنا على قيد الحياة لن تنعم أبداً بالسلام.

- لكن يا أمي، لماذا كلّ هذه الكراهية؟ لماذا قلبك أسود وكبدك جاف وعيناك صفرا وان من البعض؟ ما الذي ينقصك؟

- ليس عليّ أن أبحث معك في وضعك. من واجبك احترامي والإخلاص لي، وإذا مانعـتـ تنتهي علاقتي بك.
قرر قيس أن يستشير والده المريض الذي كان شاحباً ومنهكاً،
فقال له:

- يابني، كنت أنتظرك. أنا مريض، وأعتقد أن مرضي ليس طبيعياً، قد يكون أحدهم سـمـمنـي أو سـحرـني. صحيح أنـيـ أـفـقـدـ قـوـايـ،ـ لكنـ ليسـ عـقـلـيـ وـلـاـ صـفـاءـ ذـهـنـيـ.ـ ماـ كـانـ عـلـيـ أـنـ أـسـمـحـ لـكـ بـإـيقـاظـ تـلـكـ الأمـيرـةـ الـبـائـسـةـ.ـ فـمـنـذـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـدـأـتـ صـحـتـيـ تـتـدـهـورـ،ـ كـأـنـمـاـ شـخـصـ شـرـيرـ جـداـ قـدـ سـحـرـنيـ.ـ لـاـ تـقـلـ لـيـ إـنـكـ لـاـ تـؤـمـنـ بـالـسـحـرـ،ـ فـنـحـنـ فـرـائـسـ سـهـلـةـ لـأـنـنـاـ أـنـاسـ صـادـقـونـ وـعـفـوـيـوـنـ.ـ لـاـ تـغـادـرـ،ـ لـاـ تـرـحـلـ،ـ يـاـ بـنـيـ،ـ يـجـبـ

أن تقاوم الشيطان وتحاربه.

- لكن ما هذا الشيطان الذي ينگد حياتنا؟

- صحيح يابني، إن اللاهوتيين والعلماء وأهل الخير يؤكدون لك إن الشيطان داخل كل واحد منّا، وهو مرئي عند البعض، وكامن عند البعض الآخر. ولنقل إننا، أنا وأنت، نكافح لكي نبعده ولكي لا يعمل من خاللنا. أعرف أنك تفكّر في أمّك، وأنني لا أجرو على كسر خاطرها. وقد بلغني ما فعلته بأولادك، لكن الغيرة هي التي تدفعها إلى التصرّف بهذه الطريقة، هي نفسها يسكنها شيطان آت من مكان بعد. اعمل على حماية ولدك، وأبقهم قربك، وعلى الأخضّ لا تدخل متأهّلات السحر والأعمال الانتقامية. استدع طيباً من خارج حاشيتي، طيباً غريباً لا يعرفني، واطلب منه أن يفحصني، أريد أن أعرف ماذا أطعمني. قم بذلك سراً، لا تخبر أحداً.

في هذه الأثناء كانت الملكة قد أمرت باستدعاء الغول الأشدّ شرّاً في البلاد. كان يقيم على رأس شجرة لا ينزل منها إلا لاصطياد الذئاب التي يأكلها بنّهم. رجلٌ من أكلة الذئاب! ليست هذه خرافة، فقد كان يحبّ اللحم النّيء، وحتى أنه افترس بعض الرعيان الصغار. وهنا اختفت الروايات، فزعم البعض أنه لا يأكل من البشر إلا الكبد والقلب، وقال آخرون إنه لا يقتلهم بل يعذّبهم عذاباً شديداً.

كان الغول يتمتع بمظهر لا بأس به، فهو لا أعور ولا أغurg، ولا يبدو الشرّ على وجهه. يظنّ الناس أنّ القبح الجسدي ملازم للأذى والوحشية، وليس هذا صحيحاً، فقد كان الغول ذا مظهر بشريّ لائق تماماً. عندما وصل إلى القصر سجد أمام الملكة وقال لها:

- فلتتصدر جلالـة الملكـة أو امرـها فينـذـها عبدـها بكلـ سـرور!
- أـريد منـك أنـ تـأـتـينـي بـكـبدـ الزـنـجـيـةـ، الأمـيرـةـ المـزـعـومـةـ التـيـ نـامـتـ مـائـةـ سـنـةـ وـتـزوـجـتـ باـبـنيـ الغـبيـ.
- الكـبدـ فـقـطـ يـاـ صـاحـبةـ الجـلاـلةـ؟
- أـتصـوـرـ أـنـكـ قـبـلـ أـنـ تـقـتـلـعـ كـبـدـهاـ يـحـبـ أـنـ تـقـصـفـ عـمـرـهاـ!
- هـذـاـ رـهـنـ بـمـاـ تـرـيدـ جـلاـلـتـكـ، بـإـمـكـانـيـ أـنـ أـنـزـلـ بـهـاـ العـذـابـ بـسـحبـ هـذـاـ عـضـوـ حـيـويـ مـنـهـاـ مـنـ دـوـنـ أـنـ أـقـتـلـهـاـ.
- أـنتـظـرـ أـنـ أـجـدـهـ عـلـىـ هـذـاـ طـبـقـ الفـضـيـ غـدـاـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ. هـيـاـ اـذـهـبـ إـلـيـكـ حـزـمـةـ المـفـاتـيـحـ هـذـهـ لـكـيـ تـمـكـنـ مـنـ فـتحـ كـلـ الـأـبـوـابـ.
- غـادـرـ الغـولـ مـتـرـاجـعاـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـرـفعـ نـظـرـهـ إـلـىـ الـمـلـكـةـ. وـرـاحـ يـرـاقـبـ مـدـاـخـلـ جـنـاحـ قـيـسـ وـجـوهـرـةـ، مـنـتـظـرـاـ أـنـ تـكـونـ الأمـيرـةـ بـمـفـرـدـهـاـ. وـكـانـ قـيـسـ قدـ غـادـرـ لـيـأـتـيـ بـطـبـيـبـ لـوـالـدـهـ. تـسـلـلـ الغـولـ إـلـىـ
- الـقـصـرـ الصـغـيرـ حـتـىـ بـاتـ وـجـهـاـ لـوـجـهـ مـعـ الأمـيرـةـ، فـصـعـقـ وـكـادـ يـقـعـ.
- لـقـدـ اـضـطـرـبـ لـجـمـالـهـاـ وـإـشـرـاقـ الصـادـرـ مـنـ وـجـهـاـ الـأـسـوـدـ وـرـاشـقةـ
- قـامـتـهاـ وـلـطـفـ عـيـنـيهـاـ وـأـحـسـ بـحـرـجـ شـدـيدـ، وـجـعـلـ يـعـتـذـرـ مـنـهـاـ:
- حـضـرـةـ الأمـيرـةـ، أـعـتـقـدـ أـنـيـ أـخـطـأـتـ الغـرـفـةـ. فـأـنـاـ هـنـاـ لـكـيـ أـصـلـحـ
- دـرـفـ الشـبـايـكـ التـيـ خـلـعـتـهاـ العـاصـفـةـ فـيـ الأـيـامـ الـأـخـيـرـةـ.
- بـالـفـعـلـ لـقـدـ عـصـفـ الـهـوـاءـ بـقـوـةـ، لـكـنـ أـلـيـسـ مـعـكـ مـعـدـاتـ؟
- يـحـبـ أـنـ أـعـاـيـنـ الـأـضـرـارـ أـوـلـاـ ثمـ أـعـودـ لـاحـقاـ.
- أـتـحـبـ أـنـ تـشـرـبـ فـنجـانـ شـايـ؟
- بـكـلـ سـرـورـ، إـنـهـ الـمـرـأـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ أـشـرـبـ فـيـهـاـ الشـايـ مـعـ أـمـيرـةـ
- بـهـذـاـ جـمـالـ.

ومجدداً همست الجنية الطيبة في أذن جوهرة ناصحةٌ إياها
بالحدِر. ثم استأنف الغول كلامه:

- أيتها الأميرة، أنت جميلة وشابة، ولون بشرتك رائع، أنت طيبة وشرقية، وأرى لزاماً على أن أبوح لك بأمر رهيب. أنا لست نجّاراً، أنا وحش آكل لحوم البشر، ليس لي مبدأ ولا أخلاق. أنا الابن البكر للشيطان، وأنا فاسدٌ مُشبع بالكراهيّة، الكراهيّة المجانية لكل البشر. لا أصدقاء لي، ليس إلا أعداء، فماضي وقتي في التسبّب بالأذى، وقد حضرت هنا لكي الحق بك أذى شديداً. صارتني بالحقيقة، وأنا عادةً لا أتكلّم لكن حضورك أعاد لي الكلام ودفعني على الأخص إلى تفسير عملي الشنيع. أنا لا أعيش بين البشر، ولا أحب أحداً وأحسد الجميع وردة فعلي الوحيدة هي الفتوك. أنا سفاح بلا شفقة، لا أتردّد ولا أبصّر ولا ضمير لي. أنا أسوأ من الحيوانات، لأنّ الحيوانات لا تهاجمك إلا إذا جاعت أو إذا استفزّتها، أمّا أنا فإنّي أهاجم من لم يلحقوا بي أذى، أذبح وأسلخ الجلد وآكل الكبد وأشرب الدماء... لكتّني هنا، أيتها الأميرة، وجذبني شخصاً آخر، أحسست بضعفٍ وطلعٍ لي الكلام جاعلاً مني إنساناً. أتصبّب عرقاً بارداً وأشعر بالخجل، الخجل والخوف. لا أريد أن الحق بك الأذى، لأنّ كبدك هو المطلوب مني أن أحمله للملكة على هذا الطبق، كبدك.

هل تستوعبين ما أقول؟

- إذا أردت كبدِي، أعطيك إياه شرط ألا تصيب ولدَي بأى أذى.
- كلا أيتها الأميرة، لن أمسك بسوء، وأنا أنحنى أمام طبتك وجمالك. أنت شخص رائع، وأنا آسف لأنني تسللت إلى شقتك،

وأريد الآن أن أساعدك، أن أؤدي لك خدمة، مُريني فأنفذ أوامرك.

- ليس عندي أوامر أصدرها لك. أنت حرّ.

- كلا، أريد أن أكفر عن خطئي، أن آتي عملاً حسناً ولو لمرة واحدة، ساعدبني على عمل الخير... يمكنني مثلاً أن آتيك بكبد الملكة الشريرة جداً، أو بقلبها...

- كلا، لا حاجة بي للأذى لكي أنتقم، أدع السماء تفعل فعلها. غادر الغول باكياً للمرة الثانية في حياته. بكى للمرة الأولى في طفولته عندما تخلّى عنه أهله ورموه في الغابة حيث عاش بصحة الحيوانات المتوحشة. ومجراً رؤيته وجه الأميرة الرائع كان كافياً لكي يقضي على كل النزوات السيئة والطفولية فيه. وكلما تأملها تضاءلت ميوله الشريرة. لكن ما كان بإمكانه أن يعود إلى الملكة خالي الوفاض. فقام بجولة في الغابة واصطاد خنزيراً صغيراً فقتله وانتزع قلبه، لأن قلب الخنزير هو الأكثر شبهاً بقلب الإنسان، ثم نقعه في صلصة العشرة بهارات وأضاف إليها كمية كبيرة من ميد الجرذان. ثم وضع القلب المعد على الطبق الفضي المذكور وعاد يقدمه للملكة التي كانت تتضرر بفارغ الصبر في صالة الطعام، وقال لها:

- فلتسامحني جلالـة الملكة إذا ما تأخرت! فالحقيقة أن جلد الزنجية متصلب جداً ولم ينفرز أثـي من سـكاكينـي فيه، فـكان عـليـ أن أذهب لـشـحـذ أدـواتـي قبل أن أـعـود لـتـقطـيع هـذـه البـضـاعـة الخـسيـسةـ. أمـا كـبـدهـا فلا يـؤـكـلـ، هو من المـطـاطـ المـقـوىـ بـأـلـيـافـ شـبـهـ مـعـدـنيةــ. ولـذـلـكـ رـمـيـتهـ، وـعـلـىـ كـلـ أـكـلـهـ ذـئـبـ مـارـ بـالـمـكـانـ وـمـاتـ عـلـىـ الفـورــ. وـبـالـعـكـسـ حـافـظـ قـلـبـ الـأـمـيـرـةـ عـلـىـ نـضـارـتـهـ مـثـلـ مـظـهـرـهــ، فـهـوـ رـخـصـ وـطـيـبــ

المذاق، وهو على الأخص سيعيد إلى جلالتك الحيوية والشباب. وقد سمحت لنفسي بأن أنقעה في العشرة بهارات التي تحبينها، الكمون والزعفران والفلفل الحمراء الحلوة والفليفلة الحمراء الحارة والزنجبيل والقرفة وذباب الهند وزيت البرغموت وعصير الكزبرة ممزوج بزيت اللوز البري المستورد من بلد بعيد يدعى المغرب. والآن فليبدأ الاحتفال! لم تعد هناك أميرة سوداء، ولا دخلية على الأسرة العظيمة. وابنك عاد حراً، وهو لك.

رمت الملكة للغول كيساً مليئاً بنقود ذهبية، فارتدى زاحفاً مثل ثعبان والتقطه وأدناه من فمه يقبّله، وقال للملكة:

- أقبل كل شيء لامسته يداك، إنه لشرف كبير لي أنني خدمتك. أطال الله بعمرك وعساك لا تلقين إلا ما يتنماه قلبك. ليمنحك الله الصحة والعافية لكي تتغلبى على كلّ من يتجرّأون على تمني الشرّ لك ولينقلب هذا الشرّ عليهم ويدمرهم كلّياً.

- كفى أيها الغول، تعال وشاركني الطعام!

ارتعد الغول وحاول أن يتفادى هذه المحنّة:

- لكن لا يمكن جلالتك أن تجالسي إلى مائدةك متشرّد غابات بائساً مثلّي، ليس هذا لائقاً. ما أنا إلا عبد، الخادم الأمين لجلالتك. أعطني حصّتي فآكلها كالعادة في شجرتي.

فرمت له قطعةً من القلب قبلها ودستها في جرابه وتراجع منسجباً.

لم تكمل الملكة تأكل عدة لقّم من قلب عدوتها حتى استبدّت بها آلام مبرحة ونُقلت إلى غرفتها، وظلّت تنازع النهار بطوله والليل بطوله. وفي الصباح صُدِّمت حين شاهدت ابنها يدخل ووراءه

زوجته، فأطلقت صرخةً وقالت:

– هي ما تزال حيةً! أعرف أنَّ السود ليسوا مخلوقات مثلنا، فكلُّ أعضائهم مزدوجة. هم أقوى منا ولذلك علينا أن نبدهم...
وأعطي الطبيب تشخيصه:

- حالة تسمم. لقد سُمِّمت والدتك. استدع طاهي القصر.
- لقد مات إثر انلاقه على جلد عنزة فسقطَ وتهشمَ رأسه.
- هذا عقابه من الله!

وراحت الملكة تخنق عاجزةً عن النطق بأي كلمة، وسال لعابُ أبيض من زاوية شفتيها، وانحسرت كلها ثم ازرتَت حتى فارقت الحياة مختنقَةً وسط تشنجات لا شيء أوقفها.

وحضر الملك على جناح السرعة، كان آنذاك في شمال البلاد. وما إن رآها حتى أدرك أنها وقعت ضحية سلوكها الشرير. فكلَّ ساعٍ إلى الأذى ينتهي دوماً مختنقاً بالشر الذي يضمراه.

بكى قيس، فمن دفنهما هي أمَّه في النهاية، وحزنت جوهرة، إذ لا طريق للمشاعر السيئة إلى قلبها، وأخبرت ولديها أن جدَّهما صعدت إلى السماء، وأن ملائكة حملتها إلى أبواب الجنة حيث عليها أن تجيب عن بعض الأسئلة قبل أن تنضم إلى الناس الذين من مقامها ومنزلتها.

بعد سنة تنازل الملك متخلياً عن العرش لابنه. وانتاب جوهرة خوفٌ مفاجئ من الآتشيخ أبداً، وراح القلق يساورها. في الحقيقة لم يظهر أي تغصن على وجهها الناعم. وعندما شبَّ ولداها طَوْباً أمَّهما «قدِيسة الزمان».

فتاة البرق الأحمر

كان ما كان في قديم الزمان قرَوِيَّة صغيرة ذات جمال باهر تُدعى سُكينة. كانت جميلة لدرجة أنَّ طيور الغابة وحيواناتها كانت تسارع لتأملها والاحتفاء بها أثناء اغتسالها عند أسفل النبع. كانت جميلة لدرجة أنَّ الشمار وعصافير الدوري كانت تقع من الشجر. وفي طريق عودتها إلى القرية يرافقها بعض الحيوانات محيطةً بها كحرس شرف. لكن لم يكن لهذه الصغيرة سوى والدتها التي كانت بطبيعة الحال تعجبها أكثر من أي شخص، فتتابها المخاوف كلما غادرت ابنتها المنزل.

كان ذلك في زمن يفرض فيه القانون رجال ملتحون، يرتدون جلابيب سود، مسلحون بالسيوف والبنادق، ويضطهدون الرجال الذين لا يتزدرون على المسجد، ويرجمون النساء اللواتي يتجرأن على تحديهم بارتداء أثواب خفيفة. حرموا المدارس على البنات وراقبوا عن كثب تعليم الصبيان لكي يكون تعليماً دينياً صارماً. كانوا

يشكّلون “فرقة” خاصة بهم وقد أطلق عليهم اسم ”المنافقون“ لأنهم ادعوا التصرف باسم الدين بينما هم يهتمون أكثر بتجارة المخدرات. وقد أطلق بعضهم على نفسه لقب ”أمير“ والبعض الآخر ”إمام“، والكل يزعم أنه يطبق القانون فيما هم ينهبون البلاد وينفرون السياح. وقد نشرت هذه الفرقة الشقاء في بلد إسلامي تعايش فيه المسلمين والمسيحيون واليهود في جوٌ من الوئام التام.

كان البلد يرثح تحت هذه الديكتatorية، وكل من يتجرأ على رفع صوته متحجّجاً يتعرّض للسجن والتعذيب، حتى عم الرعب كلّ مكان. إلا أنّ القروية الصغيرة، ومع أنها سمعت ما يُحكى عن المساوى التي يرتكبها الغاشمون، لم تخافهم مطلقاً. فهل كانت تجهل الخطر الذي تعرّض نفسها له؟ وهل آنست من نفسها من القوة ما يساعدها على مواجهة أي خطر؟ سمعت كلاماً كثيراً عن اغتصابات جماعية تتعرض لها الصبايا، وعن رجم الزوجات المتّهمات بالخيانة الزوجية من دون أي إثبات، لكنها كانت مقتنة بأنها، هي شخصياً، محمية بحسب نبوءة أبيها الذي تكهن لها وهو على فراش الموت بمستقبلٍ باهر.

في أحد الأيام علمت والدة الصغيرة أنّ جدّتها الساكنة خارج البلدة عند أطراف الغابة مريضة، قيل لها إنّها أصبت بنزلة برد. فقد حضر رسول لإبلاغ العائلة، إلا أن الأم لم تكن قادرة على التنقل بسبب سقطة مؤذية على الدرج، فكُلّفت سُكينة أن تحمل إلى جدّتها فطائر بالزبدة ووعاءً من الهلام الشهي ودواءً لمعالجة نزلة البرد، وقالت لها:

- يا ابنتي المحبوبة، تحملين كل هذا إلى جدّتك وتعودين بأسرع ما يكون إلى المنزل. لا تكلمي أحداً في الطريق وظلي متيقظة، وبشكلٍ خاص لا تتأخّري.

لفتت سكينة أمها إلى أنَّ ليس عندها برقع تلبسه للخروج وأنَّ الملتحين البغضاء قد يتذرّعون بذلك لكي يهاجموها.

تناولت الأم إذَاك ملاءة حمراء ولفت بها ابنتها التي انطلقت إلى بيت جدتها مغلفةً بهذا البرقع المرتجل من رأسها حتى قدميها.

لم تكن سُكينة ترى إلا عين واحدة إذ غطّت الأخرى بطرف من البرقع لأنَّ النساء كنَّ ملزمات التلتفع بهذه الطريقة كيلاً يُثْرِنَ سخط الملتحين المرعبين، فمشت ونظرها إلى الأرض داعية الله أن يساعدها على الإفلات من الرقابة، لأنَّ أصحاب اللحى احتلوا البلدة بعد أن هزموا قوات الشرطة والدرك، وقسموا البلاد مقيمين الحواجز هنا وهناك، وفرضوا شرائعهم ونشروا الرعب. وقد ساعدتهم أموال المخدّرات على شراء الأسلحة واقتناء وسائل الاتصال الفعالة. أما جماعة النظام السابق فقد غادروا إلى الخارج تاركين البلد وشعبه لهذه الزُّمرة من المجرمين.

اجتازت سُكينة المدينة من دون أن تلتفت الأنظار، كانت صغيرة جدًا للدرجة أنَّ أحداً لم ينتبه إلى هذه الكتلة الحمراء الضئيلة.

لكن بوصولها عند طرف الغابة المؤدي إلى بيت جدتها اعتراض

طريقها شابٌ ملتحٌ كثيف الشعر وجسور:

- أنت! توقفي! أين تذهبين بهذا الشكل؟ ولمَ هذا النوع من التفكّر؟ ألا تعرفين أنَّ الأحمر هو لون الثورة؟ هل يعني هذا أنك

متمرّدة معارضة لثورتنا المجيدة؟

تظاهرت سكينة بأنّها لم تفهم شيئاً وأجهشت بالبكاء. والغريب أنّ هذا الرجل الطويل والنحيل قد تأثّر بهذه الدموع:

- لا تبكي أيتها الصغيرة! قولي لي أين تذهبين وأنا أساعدك.

فهنا كما ترين، في هذه الغابة، هناك ذئاب شرسّة، لا بل شرسّة جداً، وتحبّ اللحم الطري. فقولي لي أين تذهبين.

- أنا ذاهبة عند جدّي المريض، أحمل إليها بعض الفطائر والعسل والأدوية.

- وأين تسكن؟

- في بيت أخضر عند مخرج الغابة. وفي الحقيقة هو أزرق اللون لكن الأعشاب غطّته حتى سمّي "البيت الأخضر".

- أتعرفين؟ لقد علّمنا في المدرسة القرآنية أن نمدّ دوماً يد المساعدة إلى الناس المسنيّن، خصوصاً في حالات مرضهم. يجب علىي إذن أن أزور جدّتك، هذا واجب يملّيه علينا الإيمان. لو أردتِ أسبّقك فأبلغها بزيارتكم، وأنا متأكّد من أنها ستسرّ بذلك.

فسألته سكينة:

- لكن لماذا تحمل سلاحاً؟

- أقصدين خنجر؟ إنه جميل جداً، قطعة من المتحف، ورثته عن جدّي الذي قاتل الإنكليز عندما احتلوا بلادنا. لكنه ليس سلاحاً بالمعنى الصحيح للكلمة، فهو لا يكاد يقطع الزبدة.

- عجباً! لكنك تحمل بندقية أيضاً! أهي لشقّ البطيخ؟

- كلا، البندقية ليست ملقةً. إنها فقط للتخييف.

- لكن ممّن تخاف؟

- لا أخاف، بل أنا على أن أخوّف الفاسقين الذين لا يحترمون شرائع ديننا الحنيف، أولئك الذين يلاحقون الفتيات اللواتي ينشرن الرذيلة والفسق في كل مكان. أما أنت فليس عليك أن تخشي شيئاً، أنت بريئة وتعيني بجديتك. إنه لعملٌ خيرٌ فعلاً أن تصرّ في بهذا الشكل، وفقاً لوصايا الله تعالى.

عملت سُكينة على التظاهر بالاطمئنان إليه. وقبل أن يتركها ربت هذا الوحش الملتحي والضخم على خدّها فوقع برقبها كاشفاً عن جمال قسماتها. كانت ذات نهدين صغيرين ضامرين تبدو منهما حلمتان في أول تفّتحهما، تأملها الوحش بعينين حمراوين جاحظتين ثم هم بالاقتراب منها، فتراجعút سكينة وأعادت البرقع إلى وجهها وطلبت من الرجل أن يتبع عنها بنبرة حازمة لا توحّي عملياً بأنّ صاحبتها صبية خائفة.

وانطلق الرجل كالسهم وتوجّل في الغاب.
انتاب سكينة القلق، لكنها عادت واطمأنّت عندما فكرت أنّ كوكب سعدها ساهرٌ عليها. ومع ذلك فكّرت بالعودة على أعقابها لكن تصوّر حالة جدّتها أقنعتها بإتمام واجبها، فواصلت طريقها من دون استعجال.

وفي فورة غضب دخل الرجل من النافذة وانقضّ على العجوز النائمة يطعنها بخنجره بكلّ وحشية، وهو لم يكُن يتلو شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. ولم يتورّع هذا الوحش عن لفّ جثة الجدة بلحاف وإخفائها تحت السرير، ثم استلقى، متّكراً كيّفما

كان، حيث كانت ترقد العجوز قبل دقائق.

استشعرت سكينة وقوع أمر سيء، وهو حدسٌ تعرفه جيداً وهي تصدق قلها عندما ينبعها بعض الأحداث. وقفـت جامدةً قدماً الباب وأصاحت بأذنها فلم تسمع شيئاً. فطرقـت الباب ونادـت:

- جـدـتي! جـدـتي هل أنت هنا؟

فرد المـلـتحـي بـصـوـتـ جـهـورـيـ مرـتعـشـ:

- نـعـمـ، أـنـاـ هـنـاـ يـاـ بـنـيـتيـ، المـفـتـاحـ تـحـتـ مـزـهـرـيـةـ الفـخـارـ.

دخلـتـ سـكـيـنـةـ عـلـىـ رـؤـوسـ أـصـابـعـهاـ فـشـمـتـ رـائـحةـ غـرـيـةـ.

- جـدـتيـ، ماـ هـذـهـ رـائـحةـ؟

- آـهـ يـاـ بـنـيـتيـ، لـقـدـ ذـبـحـ جـارـنـاـ حـمـلـاـ فـيـ منـاسـبـةـ وـلـادـةـ صـبـيـ لـهـ، وـهـذـهـ رـائـحةـ الدـمـ التـنـتـةـ... لـاـ تـعـيـرـيـهاـ اـهـتـمـاماـ، تـعـالـيـ، أـسـرـعـيـ لـتـدـفـقـةـ جـدـتـكـ العـجـوزـ المـرـيـضـةـ.

وـإـذـ اـقـرـبـتـ سـكـيـنـةـ أـدـرـكـتـ أـنـ المـلـتحـيـ قدـ تـنـكـرـ وـرـقـدـ مـكـانـ جـدـتهاـ. تـجـمـدـ الدـمـ فـيـ عـرـوـقـهاـ وـكـادـ يـغـمـيـ عـلـيـهاـ، لـكـنـ قـوـةـ خـفـيـةـ فـيـ أـعـماـقـهاـ مـعـنـعـهاـ مـنـ ذـلـكـ، وـحـرـصـتـ عـلـىـ عـدـمـ إـثـارـةـ شـكـوكـهـ، فـقـالتـ بـصـوـتـ نـاعـمـ:

- لـكـنـ يـاـ جـدـتيـ لـاـ يـجـبـ اـنـ أـدـنـوـ مـنـكـ لـكـيـ لـاـ تـعـدـيـنـيـ بـالـمـيـكـرـوـبـاتـ، سـأـبـقـىـ بـعـيـدةـ قـلـيلـاـ عـنـ سـرـيرـكـ.

- حـسـنـاـ، لـكـنـ لـوـ تـعـطـيـنـيـ مـاـ أـتـيـنـيـ بـهـ.

- طـبـعاـ يـاـ جـدـتيـ، لـكـنـ اـمـنـحـيـ بـعـضـ الـوقـتـ لـكـيـ أـنـزـعـ الـبرـقـعـ فـأـهـتـمـ بـكـ.

وـدـخـلـتـ الـمـطـبـخـ وـانـفـجـرـتـ باـكـيـةـ. وـفـتـشـتـ عـنـ سـكـيـنـ كـبـيرـ لـكـيـ

تدافع عن نفسها، لكنها لم تجد. فتمالكت نفسها وقالت:

- جدّتي، هل تحكين لي قصّة الذئب الباباتي؟

عندما فقد الملتحي صبره وقفز كالنمر منقضاً على سُكينة التي تفادته في اللحظة المناسبة فسقط على زاوية الطاولة، لتبدأ معركة رهيبة. فراحت سُكينة، وهي أخفّ منه وأكثر مرونة، تقفر من مكانٍ إلى آخر متفاديةً ذراعيه الممدودتين وهو يزعق مغضباً:

- ها، هل تظنين أنك ستفلتين مني؟ صدق الله العظيم عندما حذّرنا من قدرة المرأة على الأذى. سأريك أيتها الصغيرة القدرة، سترین عندما تخضعين لمشيئتي ...

لم تُجب واستمرّت ترکض في كل الاتجاهات راميةً وراءها كل ما تجده في طريقها لكي تُكثر المعوقات أمامها.

(من البديهي أنّ الملتحي كان أقوى منها وأفضل سلاحاً. وبطبيعة الحال كان سيحشرها في زاوية ويغتصبها قبل أن يقتلها. لكن قيل إنّ البراءة، في مرات، تنتصر على الشر المطلق، والنساء على وحشية بعض الرجال).

في غمرة ركضه في المنزل فقد الملتحي تذكره وبدا عارياً تماماً، فانفجرت سُكينة ضاحكةً وهي تشير إلى عضوه الذكري:

- ياه! كم هو صغير عضوك يا سيد! يا للغرابة! أبهذا العضو تغتصب النساء؟ يا لضآلته، عليك أن تخجل به...

وكلما استرسلت في الضحك كان الملتحي يستشيط غيظاً لأنّه لا يمكن من الإمساك بها.

كانت قد تعلقت على رأس عارضة، وهو يحتاج سلماً ليتمكن

من الوصول إليها، وهذا متعدّر عليه. وفي مكانها هذا باتت خارج دائرة الخطر، وإذ وقفت سكينة من نفسها ومن وضعيتها، استأنفت تهكماتها:

– تزعم أنك مسلم! بئس الإسلام! أنت لست جديراً باعتناق هذا الدين. ما أنت سوى مهووس جنسي بـ”حمامة“ صغيرة عاجزة حتى عن إثارة الشهوات. أنت قبيح ونِتْنَ، حقير لا قيمة لك، أنت قاتل...

– ييدو أنك شيطانة، أين تعلّمت هذا كله؟

– نعم، أنا شيطانة، سأجتّ أعضاءك التناسلية. هي في كل الأحوال لا تقيدك شيئاً، فقط لكى تتبوّل بها... هذا ما سأفعله عندما أمسك بك!

جذب الملتحي طاولةً ووضع فوقها مقعداً وحاول الوقوف عليها، لكنه سقط منظر حاً أرضاً، وإذا الدم يسيل، لأنه أثناء سقوطه انفرز خنجره في جنبه، وعلى الأرجح أنه أصاب منه الكبد. راح ييكي من الألم ويجرّ نفسه على الأرض يتولّ طالباً النجدة. لكن حتى في وضعه هذا لم يكفَ عن إطلاق التهديدات:

– سترين ما سأفعل بك، ستندمرين على اليوم الذي ولدت فيه، يا ابنة إبليس.

نزلت سُكينة بهدوء عن العارضة وتمكّنت من تقييد رجليه وخرجت تطلب المساعدة. كان هناك بعض الجيران وصيادون يلمّعون أسلحتهم. أخبرتهم سُكينة أنها تمكّنت من السيطرة على قاتل جدتها، فما كادوا يصدّقون ذلك:

- أنت، الفتاة الضئيلة، الصغيرة، تمكّنت من توقيف مجرم؟
- نعم، فلنُقل إنني كنت محظوظة، أما الآن فعلينا استدعاء الشرطة.
- كم أنت مسكونة! هل تعتقدين أن الشرطة ستتكلّف نفسها عناء الحضور؟

- إنها فرصة سانحة لنبرهن أن بإمكانها أن تفعل شيئاً ما، لأنّ الأمر يتعلّق بأحد هؤلاء "المنافقين"، هؤلاء الملتحين الذي ينخدعون حياتنا.

اندفع الرجال داخل البيت الأخضر، فوجدوا الملتحي يتختبط بدمائه، وينازع مستمراً في شتم سكينة.
وأخيراً وصلت الشرطة، وبذا قائدتها في حالة رضى تام لاعتقال وحش من هذا النوع سرعان ما اعترف بجريمه:
- لقد عاقبني الله، فأنا طعنت نفسي بخجري... هذا عقاب الله لي ...

تأخرت سيارة الإسعاف بالوصول بسبب كثرة الحواجز التي نصبها المنافقون. وعندما وصلت كان قد فات الأوّان، فالملتحي فارق الحياة.

حرص قائد الشرطة على مرافقة سكينة إلى منزلها حيث قدم التعازي لوالدتها وهنأها في الوقت نفسه بابنتهما التي تتمتع بهذه الدرجة من الذكاء والقوّة.

وقد بكى الجميع. وفي اليوم التالي عُلِم أن الشرطة والجيش قاموا بعملية أدّت إلى توقيف الكثير من أعضاء جماعة المنافقين، فيما فرّ الباقون إذ كانت لهم قواعد خلفية في البلد المجاور الذي أصبح

معقلًا للإرهاب الدولي.

وشكلت مراسيم دفن الجدة مناسبة للشعب لكي يندد ليس فقط بجماعة المنافقين، بل بالبلد الذي يدعمهم. ونظمت مظاهرات في كل مكان تقريباً بدعم من الجيش الذي عين رئيساً مؤقتاً على البلاد. وحاول بعض المتعاطفين مع هذه الجماعة إثارة البلبلة إلا أن الشرطة استعادت زمام المبادرة وطاردت أولئك الذي حملوا معهم الظلامية إلى البلاد.

تابعت سكينة دراستها. وفي أحد الأيام طلب منهم المعلم التوسيع في الموضوع الإنساني التالي: ”ناقش هذا القول: الإنسان للإنسان ذئب ضار“ . وأوضحت سكينة طوال نصها، استناداً إلى ما خبرته، أن لا دخل للذئب في هذه القصة، ولا حتى للجرذ أصلاً، وخلصت إلى هذه العبارة التي بدت أكثر صوابية: ”الإنسان للإنسان هو إنسان“ . ومذاك صار الأستاذ يستشير سكينة بانتظام قبل أن يطلب من التلامذة معالجة هذا الموضوع أو ذاك، فقد رأى أنها ليست ذكية جداً وحسب بل وتحلى بحكمةٍ وحسنٍ سليمٍ صارا محظوظاً إعجابه.

أبو لحية زرقاء

كان ما كان في قديم الزمان رجلٌ ورث، كابنٌ وحيد لأهله، ثروةً كبيرة، فلم يضطر إلى العمل وعاش في قصرٍ كبير لا يعرف كيف يتصرف بالأملاك التي بات يملكها. وهو بالكاد تعلم القراءة والكتابة، فكان يشعر بالسأم ويعامل الموظفين عنده معاملة سيئة ويمضي وقته جاهداً لملء أوقات فراغه في تعطله. كان ولداً مدللاً وزاده إثراوه المفاجئ تعجراً. في الصباح يحتسب أمواله المخزنة في صناديق ضخمة مالاً بذلك بعض ساعات فراغه خصوصاً عندما يخطئ في الحسابات ويضطر إلى البدء من جديد. بعد الظهر يغرق في قيلولات طويلة مستقبلاً في سريره نساء بدينات موسمات. وفي المساء يحصي السجاد والأقمصة الحريرية والمطرزات التي حملها معه والده في أسفاره إلى الشرق الأقصى. وكان يؤدي الصلوات الخمس، إنما جلوساً. فكرشه الكبير كان يعوق سجوده كما يجب ولذلك سمح له إمام المسجد بأن يصلّي جالساً أسوةً بالمرضى والمعوّقين. وممّا

يقوله: ”المهم هو نشر عمل الخير حولك، وعندما تصلّي فكر بالذين لا يملكون شيئاً“.

لم يكن مسلماً صالحًا لكنه اهتم بالحفظ على المظاهر، ومرة واحدة في السنة، في عيد المولد النبوى، كان يؤدى فريضة الزكاة ويقيم وليمة كبيرة لفقراء منطقته.

عندما يسأم من كل ما يملك يلتجأ إلى حمامه على أمل أن يخيس بضعة كيلوغرامات. ويروح عندها يفكّر في وحدته التي يعزوها إلى سحر ألقته عليه امرأة كانت تدعى أنها ابنة سفاح لأبيه. وكان قد طردتها فهدّدته بجعله يعيش في عزلة أبدية.

كان مدلّكه ”مومو“ شاباً شديداً الجمال والوفاء، يقوم بعمله بصمت وهو يشق به ويصارحه، وممّا يقوله له: ”كيف تعمل لكي تحظى برضى كل هؤلاء النساء؟ ألا تلك شاب؟ أنا أيضاً شاب. وجميل؟ أنا أيضاً جميل. ما الذي يميّزك عنّي؟ ما هو سرّك؟“ فلا يجيئه مومو ويواصل تدليك ذلك البدن المدهن ويصرف تفكيره إلى أمور أخرى.

في أحد الأيام قال له الرجل:

- أضاعف أجرك إن أتيتني بإحدى أولئك النساء إلى القصر.

فنكص مومو برأسه مجيناً:

- ليس هذا عملي.

زاد ذلك من حزن الرجل ومن عذابه إذ ما من امرأة تجاوبت مع مبادراته. لم يفهم لماذا يهربن منه، فهو يرى نفسه رجلاً جميلاً وذكياً يتحلى بالجاذبية والخيال. فيقول في نفسه في ساعات وحشته

الثقيلة: ”لا تعرف النساء ماذا يفوتن على أنفسهن، فمعي سيعشن السعادة والفرح والثروة والتزوات، لأنني أعرف كيف أضحكهن وأنهن القيام بمقابل غريبة. نعم، يمكنني أن أسعدهن لبعض الوقت“.

ابتداءً من ذلك اليوم صار ”عامر“، رجل كل المهمات، هو الذي يأتيه بالفتيات، يتقطنهن من المنازل الفقيرة ويغريهن بالمال. يعد بعضهن برحلة ممتعة ويمتئن آخريات بأن السيد سيحتفظ بهن لفترة طويلة وحتى أنه قد يتزوج بهن. وكان عامر يتنكر وبغيير الأحياء لكي يستقدم فتيات جديداً، حتى أصبح مدبر الفتيات اليائسات.

وكان سيده، لتمضية وقته وفي انتظار النساء، يطلب أن يؤتى إليه بالنعاج فيعدّها قبل أن يمزقها إرباً ويأمر خدمه برميهما في حفرة الأسود. أحياناً يحمل إليه حمل فيد الله كأنه ابنه قبل أن يدق عنقه ويدعوه يموت في إحدى الزوايا. وعندما يعود الخدم يوعز إليهم بطهوره وتوزيع لحمه على الفقراء. فصار الطهاة يتظرون يوم الجمعة ويحضرون ”الكسكس“ الغني باللحم أكثر من الخضار ويوزّعونه على أبواب الجوامع. ويقال للناس: ”هذا تقدمة من السيد“، فيدعون له الجميع ويأكلون بشهية.

لكن لم يكن لهذا الذي يدعوه عامر ”السيد“ أصدقاء. أما من يتربّدون عليه فكانوا يطمعون بماله. ولذلك لم يكن يثق بأحد ويمضي الكثير من وقته في تأمل الخنادر المرصعة بالحجارة الكريمة التي جمعها والده.

في صبيحة أحد الأيام، وفيما كان يعدّ أمواله، برع له هرّ أسود ضخم بحجم فهد وماء عدّة مرات إلى أن لفت انتباهه فربض عندها

الهرَ على أريكةٍ فارسية رائعة مقصبة بالحرير والذهب ثم شرع في الكلام:

- النساء لا يرغبن في الرجال البخلاء وأنا لا أحبّ الأسياد الأشحاء. إذا أردت أن تأتي النساء إليك فكن كريماً وتصرّف على سجيتك وتوقف عن عدّ أموالك. ابتكر أموراً جديدة ورتب قليلاً من مظهرك وكن أكثر بساطةً وإنسانية... النساء يعجبن أن تحبّهن وتدلّلنهن وتغازلنهم وتُضحكهن وتجعلهنّ موضع تقدير كبير. ثم ما حاجتك إلى هذا العدد الكبير من النساء؟ لو كنت مسلماً صالحًا لتزوجت بامرأةٍ واحدة وأنجبت منها أطفالاً رائعين. لكنك جائع جداً.

لم يرُق هذا الكلام للرجل فقال له:

- من أنتَ لتتكلّمني بهذه الطريقة؟ أتعرف من أنا؟

- طبعاً أعرفك جيداً. أنت غير جدير بأن تكون وريث والدك الجليل. هو على الأقل كان يتحلى باللطافة، وأنت خبيث أمله، بل أنتَ أظنَّ أنك أنت من قتله.

فطرد الرجل الهرَ بركلة من قدمه وعاد إلى إحصاء أمواله. لكن الكلمات التي سمعها للتوَ ظلت تشغله. ولم يلبث أن توقف عمّا يقوم به وقرر استشارة عامر الذي لا تفوته الشعوذة فيعرف كيف يتعامل معه ليبعد عنه الأفكار السيئة.

نصحه عامر المداهن والمأكر بأن يقتل الهرَ ويرمي جثته في حفرة الشعابين. لكن الهرَ كان قد اختفى في هذه الأثناء. فمن الطبيعي أن هرَّاً يحكى ويسمع لن يبقى متسلكاً في هذا المنزل المشؤوم.

عندما تذمر معلمه من قصور قدراته الجنسية أعطاها عامر مسحوقاً أحمر ليذيه في كوب نعناع ويشربه وهو يدور في غرفته سبع دورات. وفي إحدى الليالي ما كاد يتلع هذا المشروب حتى أصيب بمغص مبرح. وعاده أحد المطبيين إذ تراءى للرجل أن ساعته قد أزفت. واستدعي عامر وأعطي تركيبة المنشط الجنسي. ولأن الرجل لا يستطيع الاستغناء عن خدماته اكتفى بتوبخه واحتجازه في سجن مدة نهارين وليلتين من دون طعام ولا شراب.

وفي صبيحة أحد الأيام، وفيما الرجل يتأمل نفسه في المرأة، خطرت له فكرة إطلاق لحيته. أراد أن يبدو مختلفاً وفريداً إذ لا يحس نفسه مثل الآخرين. ثم رأى أنه بقامته الممتلئة وبهيئته كرجل ناضج وبماله ليس عليه أن يبذل جهوداً خاصة لإغراء النساء. لقد أحب النساء فعلاً، إنما على طريقته الخاصة. أما الصبايا التي كان عامر يدبّهن لها فغالباً ما كنّ يتامى أو معوزات لدرجة أنهن يرضين بأي مغامرة بدلاً من أن يقعن في حالة البوس هذه. وهو ما إن يُشعّ رغباته حتى يتخلص منها. وهنا اختلف المؤرخون والمحققون، فبسحب البعض كان يقطع رؤوسهنّ وبحسب آخرين أنه كان يدفنهنّ حيّات. أمّا الأمر الأكيد فهو أنهنّ لا يظهرن مجدداً. فمن ذا يهتم لمصير فتيات الشوارع اللواتي لا عائلات لهنّ ولا أزواج؟ مومسات بسبب اليأس ينكل بهنّ بعض الوحوش مقابل بضعة فلوس. منهنّ من نحوهنّ بأنفسهنّ واختبأنّ، وأخريات وقعن في الفخ من دون أن يبالى بهنّ أحد.

وما إن طالت على الرجل لحيته وعرضت حتى زاد قبحاً، فقد

اكتسحت لحيته وجهه وغابت خلفها عيناه فعلاً. إذَاك قرّر أن يصبّعها على أمل التخفيف من تأثير منظرها. وفَكِّر أولاً في اللون الأحمر لكنه اعتير أنّ لون الدم قد يفضح نوایاه. ثم فَكِّر في الأخضر لكن سرعان ما قال في نفسه: “أنا لست بنتةً في النهاية!”. وأخيراً كأنما نزل عليه الوحي فثبت خياره على الأزرق. لماذا هذا اللون؟ لأنّ على قمة الجبل المجاور كانت تسكن إحدى الطوائف ولرجالها جميعاً لحّي زرق، وقد لُقبوا بـ”رجال الجبل الزرق”. وكانت فلسفتهم بسيطة تقول بأنّ النساء هم سبب الشقاء في العالم فوجبت مكافحتهنّ وإذا أمكن قتلّهنّ. وكانت هذه الطائفة تحتمي في مغاور يتعدّر بلوغها وتستخف بالسلطات التي عجزت عن كفّ أذاهما. ومن وقت إلى آخر كان بعض أفرادها ينزلون إلى المدينة ويختطفون منها امرأة أو اثنتين، ويرمون هؤلاء النساء، بعد اغتصابهنّ، من على قمة جرفٍ صخريٍّ. وكان الكلام يدور حول هذه الطائفة من دون أن تكون معروفة. وقد أغْرِم الناس برواية القصص الغريبة عن هؤلاء الرجال المولودين جميعاً بإصبع سادسة في اليد وإصبع ناقصة في القدم. هذه العلامات الخاصة هي التي جمعت بينهم وميّزتهم عن غيرهم. وقد قيل إنهم من أنصار الشيطان وإنهم أتوا من كوكب آخر وإن بعضهم سقط من السماء في يوم عاصف جداً. فيما كان آخرون واثقين من أنّ لا وجود لهؤلاء الناس وأنّ السلطة اختلقت كل هذا الكي تزرع الرعب.

أما بعض المشعوذين المتقاطرين من مختلف أنحاء البلاد، فقد حاولوا من جهتهم أن يتصلوا بهم، إذ رُّغم أن ”رجال الجبل الزرق“ كانوا يتمتعون بقدرات خارقة.

لكن بالطبع لا يكفي صبغ اللحية باللون الأزرق لادعاء هذه القدرات. ولذلك استعان مرّة أخرى بعامر، رجله لكل المهمات. كان عامر يسكن على بعد خطوتين من منزل أسرة وديعة تسهر ربتها على تربية ابنتيها بالعمل كخادمة، وكان زوجها قد مات في الحرب. كانت الصبيتان حسناوينٍ وذكيتينٍ لكنهما على شيءٍ من طيبة القلب، وهذا بالضبط ما يطلبها معلمه. فاصطحب المرأة عند أبي لحية زرقاء الذي طلب يد إحدى ابنتيها، لكنها ترددت وطلبت إمهالها بعض الوقت لإقناع الزوجة العتيدة بالاقتران بها. الرجل الذي بدا لها شديد الغرابة. وكانت هذه الأم تتمتع بحسٍ مرهفٍ ينبئها بطبيعة البشر الذين يحدّثونها. وعلى الفور حدت أنَّ لا خير في حضور هذا الرجل، ثم إن اللحية الزرقاء أرعبتها، فماذا يخبئ وراء هذا الطلاء؟ وجهه الحقيقي بالتأكيد!

إذاء ترددتها دعا أبو لحية زرقاء كل أفراد الأسرة وأصدقائهم لتمضية عدة أيام في أحد قصوره الكثيرة. أراد أن يغرى هؤلاء الناس الطيبين المعوزين. وكلَّف عامر أن يبلغ الدعوات، فارتدى هذا الأخير بالمناسبة جلبابه الجميل الحريري الأبيض وبرنسه ثم قصدتهم حاملاً باقةً من الزهر كما هي العادة عند طلب الزواج.

كانت الفتاة البكر تدعى أمينة والأخرى خديجة، بفارق سنة بينهما لكنهما تتضارعان ذكاءً وسرعة بدبيه. وقد اصطحب عامر عازف ناي بارعاً جداً في عزفه. وأمام المنزل أعلن عن زيارته فدعته الأم إلى الدخول، وقدم إليها باقةً ورد أبيض وقال لها بإجلال: - أرسلني سيدِي ومعلمِي لأطلب منك أن تشرّفي بحضورك

قصره حيث يقيم احتفالاً كبيراً على شرف ابنته! والدعوة موجهة إلى شخصياً كما إلى أفراد أسرتك وأصدقائك وإلى كل من يرغب في الانضمام إلى هذه المناسبة السعيدة. يمكنكم الحضور ابتداءً من يوم الجمعة تماماً بعد صلاة الظهر.

مضى الأسبوع كأنه لحظة، في أجواء احتفالية دونما انقطاع، والموسيقيون يعزفون في كل مكان، وأقيمت مأدبة فاخرة على مدار الساعة ليل نهار، وقدّمت الهدايا مرّة تلو الأخرى... وقد بذل أبو لحية زرقاء جهداً جباراً لكي يخفى بخله وتقديره، فالأمر يستحق العناء.

في الأمسى كانت تُجرى الألعاب في مختلف صالات القصر، والكل يضحك ويتسلى في جوٌ من الخفة والمتعة. ولم تبدر عن أبي لحية زرقاء أي حركات خارج اللياقة ولا أي موقف مثير للشبهة. كان سيّداً وتصرّف كسيّد كبير. ولم تعد لحيته تخيف الصبايا، لا بل إنّ خديجة وجدت فيها بعض الجمال وهذا ما جعل أختها ورفاقاتها يهزّأن بها، فانفجرت ضاحكةً وقالت:

– لن أشارك أبداً هذا الرجل البدين السمين فراشه.
لكن أمينة ردت عليها قائلة:

– لكن هو في النهاية رجل، ومعه سنّسدة عوزنا، أنت ونحن. كل الرجال متشابهون، يكفي أن نعرف كيف نلاطفهم فيتحوّلون كالحملان بين أيدينا. صحيح أن الأمر يبدو أصعب مع أبي لحية زرقاء، لكن تأملي عينيه، هما صغيرتان وملؤهما الكآبة، وهذه هي نقطة ضعفه، يجب أن تنجحي في تبديد هذه الكآبة التي تلازمه

وتأكله. وهذا هو المطلوب في الزواج، يجب استئصال الكدر من نفس الإنسان الذي نحبه. وإذا ما نجحت في ذلك تسيطرین على زوجك وتصبحين أنت سيدة القصر لا هو. ويصبح ذهبها ومجوهراته وثرؤته كلها ملك يديك شرط أن تحسني التصرف وتجعليه مجنوناً بحبك!

أجبت خديجة:

- طالما تعرفين كلّ هذا فلماذا لا تزوجينه أنت؟
- كلا يا عزيزتي فهو يريدك أنت، هذا ما قاله لأمنا. وهل نسيتِ حبيبي نور الدين.

كان نور الدين حرفياً موهوباً، لكنه رفض ذات يوم أن يصنع سريراً بقبة لأحد الأمراء إذ تناهى إليه أنّ هذا الأمير لا يدفع أبداً أجر الناس الذين يستغلون له. فأوقف نور الدين بتهمة سرقة مزيفة ورمي في السجن. وظلّت أمينة في انتظاره على أمل أن يُطلق سراحه لأنها تمكّنت من الاتصال بأحد القضاة النزهاء وقد وعدها أن يبذل كل جهده لإخراجه من السجن.

بعد أسابيع تم الاحتفال بزفاف الرجل ذي اللحية الزرقاء وخدیجة الجميلة، وأحياناً حفلات لا مثيل لها طوال أيام. وقد استقدم الرجل طهاء من الهند وببلاد فارس والمغرب وفرنسا والصين. وقدّم موسقيون من كل القارات عروضهم مدى أسبوع كامل. وتلقّت خديجة كهدية عدّة أثواب صممها خيّاطون من أوروبا، وزُرعت المجوهرات على كل أفراد الأسرة. ونادراً ما ترك زواج صدّي بعيداً بهذا الشكل.

لكن الأم ظلت قلقةً، لم تعرف ما السبب بدقةً لكنها رأت أنّ هناك ما يخفى وراء هذا البذخ الذي اعتبرته فاحشاً. إنها امرأة طيبة ظلمها القدر، وإن وافقت على هذا الزواج فليس عن طيب خاطر نوعاً ما. ووافقتها أمينة الرأي لكنها عولت على ذكاء خديجة لكي تُفشل أي مكيدة. وممّا كانت تقول: ”لا أحب نظرته، في عينيه ما يخيف ويقلق“.

في أحد الأيام اضطرّ أبو لحية زرقاء إلى السفر لأداء فريضة الحجّ عملاً بنصيحة الإمام الذي قال له: ”بعد الزواج عليك أن تتوج فرائضك كمسلم صالح وبذلك تُتم كلّ ما يدين به المسلم لله“.

فاستدعي زوجته ليوضح لها ما يريد منّها في غيابه الذي قد يطول:

- كان بودي أن أصطحبك معّي، لكن قبل الوصول إلى مكة المكرمة على التقاء بعض الناس، تعرفين كثرة الأشغال المملة غالباً.

ستبقين هنا وتدعين عائلتك وأصحابك لتسلّتيك. أنت في دارك وستكونين حارسة القصر، فإليك المفاتيح، هذه الحزمة الزرقاء هي مفاتيح الخزنات، والحرماء هي لآتية وأدوات الأكل الذهبية، والحزمة الخضراء لأبواب الوثائق المهمة والخزنات التي تجدين فيها ما تحتاجينه من مال. أما الحزمة البيضاء فتحمل مفاتيح عمومية لكل أبواب القصر. وفي هذه الحزمة مفتاح صغير لا هو من الذهب ولا من الفضة، بل من الحديد العادي. وهذا المفتاح الصغير عليك ألا تستعمليه أبداً، فهو يفتح باب حجرة صغيرة سرية يجب ألا يدخلها أحد. احفظي هذا جيداً ولا تنقادي لميولك الخبيثة ولا لفضولك، ولا تدخللي، في أية حال، هذه الحجرة الموجودة في آخر هذا الرواق

المفضي إلى رواق آخر ينزل إلى قبو تحت القصر فيه من المتأهّات ما يضيّع دائمًا. هل فهمت؟ يمكنك استعمال كل المفاتيح لكن لا تفتحي أبداً باب حجرتي السرية. وأنا أشدّ على ذلك لأنك لو حدث وخالفت أمري، فيا ويلك، سأغضّب غضباً شديداً لا رحمة فيه، وعندها كان الله في عونك!

وعدت خديجة أن تنفذ تعليماته بحذافيرها وأقسمت على القرآن الكريم وبحياة أمها وأختها أنها لن تفتح أبداً هذه الحجرة. إلا أن إلحاد زوجها بهذا الشكل راح يعذّبها واستفزّ فضولها، فبذلت جهداً كبيراً لكي تتغلّب على رغبتها الشديدة في الذهاب لرؤيه ما يخبئ وراءه هذا الباب المهمّ.

غادر أبو لحية زرقاء مطمئناً، فيما ظلّ عامر يرود حول خديجة، أما المدلك مومنو فلم يرافق مخدومه لكي يتسلّى له الوقت لتلميع الأوانى الفضيّة في القصر.

بعد أيام وقعت كارثة عند مدخل القصر، إذ تعرض عامر لطعنة خنجر من شابٍ هو شقيق إحدى الفتيات اللواتي اخْتَفَين. ولم تنجح السلطة في توقيفه ثم سرت الأخبار عن فساد هذا الرجل العامل في خدمة أبي لحية زرقاء.

دعت خديجة أفراد أسرتها وأصدقاءها إلى الحضور للبقاء في صحبتها في غياب زوجها. في الصباح كانت النسوة يتسلّين بالتباري في الطبخ، والتي عليها الفصل بينهن تدعى بهيجة، وهي عبدة سوداء سابقاً، كانت الخليلة الحادية عشرة لوالد أبي لحية زرقاء وقد نجحت في فرض نفسها حتى بات لا غنى عنها في هذه الدارة العظيمة.

بعد الظهر كنَّ يلتقين في الحمام حول خديجة التي تقصّ عليهنَّ الحكايات، والحكاية التي يطلبها كلُّهنَّ هي التي تروي حياة الخليلة. فتخبرهنَّ عندها أنها بيعت من مولاي، وهو تاجر كبير كان يقصد السنغال دوماً من أجل الأعمال:

كان ذلك منذ زمنٍ طويٍل، في عصرٍ كان لا يزال بالإمكان الاتّجاه بالبَشِر. كنا عشرة أولاد، وبعد وفاة والدي اضطُررت أمي إلى الاستغناء عن خمسة منا. فذهبت إلى سوق النخاسة وتكلّمت طويلاً مع سيد لم يلبث أن دسَّ في يدها بعض الأوراق النقدية ثم رحلت راكضةً، من دون أن تلتفت وراءها، لأنها ارتكبت جريمة. أظنَّ أنها بكت. كنت في السادسة عشرة من عمري، وحتى لو أردت الهروب لم أكن أعرف أين أذهب. وحضر رجال بيض بالجلابيب والبرانس يتفحصوننا ويحسّون حتى صدورنا، والمال ينتقل من يد إلى أخرى إلى أن وجدت نفسي في عربة مولاي الذي لم يكلّمني قطّ.

عند أول توقف طلب إلى أحد عملائه أن يأخذني إلى الحمّامات حيث كان عليَّ أن أنظف نفسي جيداً ثم ألبسني ثياباً جديدة. وبوصولنا إلى القصر سمعت مولاي يقول لامرأة بيضاء، هي على الأرجح زوجته، إنْ بهيجة، أي أنا، ستُقْيم في الغرفة السفلية. ثم صرَّت كل ليلة تقريباً أستقبل فيها سيدي الذي ظلَّ لا ينبع بكلمة،

ولو لم أسمعه يصرخ في وجه العاملين في القصر لظننته
أخرس. كان يدخل الغرفة وأعرف ماذا يريد، فأدعه
يفعل وعندما ينتهي كان ينهض ويربّت على خدي. لم
أكلّم قط الزوجات البيض. كنت أعيش وآكل وأضحك
مع الخدم. ومن وقت إلى آخر يأتيني عامر هذا ليبلغني
أن المعلم يطلب تحضير وجبة طعام أفريقية له، فيكون
هذا يوم سعدي، أصير أنا ملكةً على المطبخ وليس لأيٍ
كان أن يزعجني...

كانت الصبايا يرهنن السمع إليها مشغوفات بهذه القصّة التي كانت
ترضعها بتفاصيل تثير ضحكتهن.

وفي أحد الأيام طرحت عليهما خديجة السؤال الذي كان على شفةِ
كلٌ من أولئك الصبايا:
– ألم تنجبي أولاد؟

صمتت بهيجه برهاً وأحاببت بطريقةٍ جافةً:
– كلا، لا أولاد.

ليفهم الجميع أن عليهنْ تغيير الحديث. أما ما أرادت الصبايا
معرفته تحديداً فهو ما جرى ليلة الدخلة مع صديقهنْ.
أبدت خديجة بعض الانزعاج لكن الفتيات تجرّأن وطرحن أسئلةَ
دقيقةً جداً. فقالت لها بهيجه:

– هيّا احكى لنا، يا عزيزتي، كيف... كيف دخل عليك زوجك...
ترددت خديجة برهاً ثم تمنتت كلاماً مثل ”لا... هو لم
يدخل“...

وألحت عليها أختها كي تروي المزيد.

- لم يتمكن. عضوه صغير جداً، هو لا يتتصب كما قيل لي.
استسلمت له لكنه عرق واضطرب ثم كفَ من دون أن يفوته بكلمة.
ثم غفا وراح يشخر بقوة فلم يغمض لِي جفن طول الليل.

أيدتها بهيجـة كأنها تكلـم نفسها:

- أبو لحـية زرقاء ليس رجـلاً... ليس رجـلاً... لو كان مولـاي
على قيد الحياة لمات من العـار.

وطالـبت الصـبايا بالـمزيد من التـفاصـيل وأـلـحـنـ، فـراـحت خـديـجة

تحـكـي:

- بسبب كـرسـه الكـبـير لا يـمـكـنه أـن يـضـاجـعـ، جـسـمه يـعـوـقـهـ. فيـ
لحـظـةـ ماـ، ولـكـيـ أـسـهـلـ الأمـورـ عـلـيـهـ، أـرـدـتـ أـنـ أـعـلوـهـ بـنـفـسـيـ، لـكـنهـ
انتـفـضـ وـنـعـتـيـ بـالـعاـهـرـةـ، فـعـدـتـ إـلـىـ مـكـانـيـ وـتـرـكـتـهـ يـتـخـبـطـ فـيـ أـمـرـهـ.
فيـ الـلـيـلـةـ الثـانـيـةـ أـعـتـقـدـ أـنـ عـامـرـ أـعـطـاهـ لـيـشـرـبـ مـسـحـوـقـاـ أحـمـرـ وـأـسـوـدـ
فـأـصـيـبـ بـمـغـصـ شـدـيدـ حـتـىـ اـضـطـرـ الـأـمـرـ اـسـتـدـعـاءـ الطـبـيـبـ فـيـ مـنـتـصـفـ
الـلـيـلـ. أـمـاـ عـضـوـهـ فـظـلـ صـغـيرـاـ مـثـلـ حـلـزـونـ.

ولـفـتـ بـهـيـجـةـ إـلـىـ أـنـ عـدـةـ الـوـالـدـ كـانـ أـفـضـلـ، فـانـفـجـرـتـ الصـباـياـ
ضـاحـكـاتـ ثـمـ اـنـقـلـنـ إـلـىـ مـوـضـعـ آـخـرـ، جـوـلـةـ فـيـ القـصـرـ. وـأـطـلـعـتـهـنـ
خـديـجةـ عـلـىـ مـاـ تـلـقـتـهـ مـنـ تـحـظـيـرـ فـتـحـ الـبـابـ الصـغـيرـ فـيـ آـخـرـ الرـدـهـ،
وـهـذـاـ مـاـ أـثـارـ حـشـرـيـتـهـنـ أـكـثـرـ، فـقـالـتـ إـحـدـاهـنـ:

- هـنـاـ يـجـريـ كـلـ شـيـءـ.

وـقـالـتـ أـخـرىـ:

- إـنـهـ مـكـانـ سـحـرـيـ، لـاـ بـدـ مـنـ الدـخـولـ لـرـؤـيـةـ مـاـ فـيـهـ.

أما بهيجة فاستنجدت:

ـ لو أراد فعلًاً لا تكتشفني ما يوجد في هذه الغرفة لاحتفظ بالمفتاح. لكنه تركه لك وطلب منك ألا تدخلها أبدًا، فكأنه قال لك: “هيا، افتحي هذا الباب وسترين ما وراءه”...
وافتقتها خديجة الرأي، ثم سارت والفتیات يتبعنها صفّاً وراءها.
وعندما وصلت إلى آخر الدهلیز العابق برائحة الرطوبة طلبت إلى رفيقاتها الانتظار، عاودتها تهدیدات زوجها. لكن التجربة كانت تغريها بمخالفة أوامرها حتى قالت في نفسها أخيراً: ” وإن يكن، فليكن ما يكون“.

وأردات أن تكون أول من يدخل. ووجدت صعوبة في إدارة المفتاح الصغير في القفل، وعندما انفتح الباب دفعته بصعوبة فصرّ كأنّ كيس رمل يسده. فدفعت قليلاً وتمكنت من الدخول. الغرفة معتمة يتسلل إليها شعاع نور فقط من نافذة لم يُحکم إغفالها. ورأت بعض الأغراض لكنها لم تعرف ما هي بالضبط. ثم فاحت رائحة هي ما بين الرطوبة والتنانة. تقدّمت وشاهدت بقعاً سوداء صلبة، غرّزت فيها طرف قطعة خشب فإذا هي دم متخرّ. ورفعت عينيها فرأت جثثاً معلقةً بكلابات الجزارين. كانت أجساداً بشرية، أجساد نساء، أكثر من عشرة. وصرخت بقوة فتباهت رفيقاتها المنتظرات أمام الباب، فدخلن وجعلن هنّ أيضاً يصرخن أكثر فأكثر، أما بهيجة فكاد يُغمى عليها.

غادرن الغرفة راكضات، وقع المفتاح الصغير من خديجة في بقعة دم، فلمته وخرجت وهي ترغي وتزبد باكية. كانت الحجرة

السرية تخفي كل هؤلاء الائسات اللواتي يحضرهن عامر، فيضاجعهن معلمها، أو على الأقل يحاول أن يغتصبهن، ثم في فورة غضبه يذبحهن ويعلقهن هناك لحفظهن كما في مقبرة، في متاحف الرعب هذا.

كانت بهيجة تعرف كل ذلك ولم تقل شيئاً لأنها أرادت أن تكتشف الزوجة الشابة بنفسها الوجه الحقيقي الذي تخفيه اللحية المصبوغة، وراحت تبكي وتقسم لخديجة على أنها ستساعدها بكل قواها لمواجهة هذا المجرم الوحش.

خافت صديقات خديجة وغادرن القصر، وطلبت منها أمها وأختها أن تنتقل للإقامة في بيتهن. ثم كان هناك هذا المفتاح الملطخ بالدم والذي حاولت أن تنظفه، لكن عبثاً، كأنه مفتاح خاص مسحور بشكل ما، سيفضحها ويكشف كل ما جرى. ارتعبت خديجة وراحت ترکض كيما كان، فإذا بيد قوية تمسك بها، إنها يد زوجها الذي وصل للتوكيل من سفره. لم يكن بالإمكان التعرّف عليه، لحيته نصف سوداء ونصف زرقاء، لم يتسنّ له صبغها في رحلته إلى مكة المكرمة.

- أين تذهبين؟

- ليس إلى أي مكان، أنا هنا أنتظرك.

- أهكذا يجري استقبال الحاج؟ هيأ يجب أن نعدّ احتفالاً بمناسبة العودة. أما الآن فتعالي لتسليمة زوجك المشتاق إليك بعد شهر من التعفّف.

- حاضر، لكن دعني أعدّ نفسي، ففي الحقيقة أنا ذاهبة إلى

الحمامات مع أمي وأختي. من الضروري أن أغتسل بعد ميعاد دورتي الشهرية.

صدق كلامها وانتقل ليرتاح في غرفته الزوجية، لكنه طلب منها أوّلاً كل حزم المفاتيح. فوعدها بردها إليه بعد استحمامها. ثم استدعي بهيجـة وطرح عليها عدّة أسئلة. فأجابـته بشيء من الغموض وأخبرـته بموت عامـر. فلم يفاجأ ولم يصدـم واكتفى بالقول: “نعمـ النـهاـيةـ”， ثم راح يستوضـحـها عن زوجـتهـ وصـديـقاتـهاـ.

ـ تـصرـفـنـ بـشـكـلـ جـيدـ فـيـ غـيـابـكـ، لاـ مـلاـحـظـةـ يـمـكـنـ تسـجـيلـهاـ. حـسـنـاـ يـجـبـ أـنـ أـعـوـدـ إـلـىـ الـمـطـبـخـ لـاـ بـدـ أـنـكـ جـائـعـ وـمـشـاقـ لـأـطـبـاقـ الـصـغـيرـةـ الطـيـبـةـ...ـ

كـانـ خـدـيـجـةـ تـرـتـدـ خـوـفـاـ حـتـىـ أـنـهـاـ لـمـ تـمـكـنـ مـنـ الـاغـتـسـالـ وـلـاـ مـنـ تـنـظـيفـ جـسـمـهـاـ. اـرـتـبـتـ وـلـمـ تـعـرـفـ كـيـفـ تـواـجـهـ هـذـاـ الـوحـشـ، وـتـمـنـتـ أـنـ تـهـرـبـ مـعـ أـمـهـاـ وـأـخـتـهـاـ لـكـنـ زـوـجـهـاـ الـذـيـ اـسـتـيقـظـ الـآنـ يـجـولـ فـيـ القـصـرـ كـأـسـدـ فـيـ عـرـيـنـهـ، وـهـوـ يـرـيدـ اـسـتـعادـةـ الـمـفـاتـيحـ. لـكـنـ أـمـيـنـةـ الـتـيـ بـقـيـتـ مـعـ أـخـتـهـاـ قـالـتـ لـهـاـ:

ـ سـأـذـهـبـ وـأـفـتـشـ عـنـ إـخـوتـناـ وـنـعـودـ بـأـسـرـعـ مـاـ يـكـونـ لـنـحـرـرـكـ مـنـ هـذـاـ السـجـنـ.

وـضـمـتـ بـقـوـةـ أـخـتـهـاـ التـيـ يـنـتـظـرـهـاـ الأـسـوـاـ وـغـادـرـتـ عـلـىـ جـنـاحـ السـرـعـةـ.

كـانـ الـزـوـجـ يـصـرـخـ وـهـوـ يـلـبـطـ كـلـ شـيـءـ حـولـهـ وـيـزـعـقـ بـكـلـ قـواـهـ: ”ـخـدـيـجـةـ، الـمـفـاتـيحـ!ـ“، لـأـنـهـ كـانـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ يـشـكـ فـيـ حدـوثـ شـيـءـ ماـ.

عندما بدت له خديجة في ثوب أبيض قالت له:
- إن الحج إلى مكة المكرمة يُصلح من أمر المسلم ويجعل منه
رجالاً صبوراً وجيداً، فلا تصرخ إذ ربما ضيّعت كل ما نعمت به من
هذا العمل المبارك الذي أديته.

كانت تعمّد الرقة في كلامها وفي أعماقها ترتعد ولا تكاد تسيطر
على نفسها. وتابعت:

- سنشرب الشاي بالعناء على الشرفة وستحكى لي عن رحلة
الحج، فأنا متشرّقة جداً لأعرف كيف كانت...
- هاتي المفاتيح أولاً ثم ننتقل إلى الشرفة.
لم تملك الخيار وكان عليها أن تسلّم هذه الحزم الشيطانية.
فبدت منه شاحبة مرتجلة ورمتها عند قدميه.
- إليك مفاتيحك!

- لكنك شاحبة، فماذا جرى لك؟
- أشعر بصداع شديد، يبدو أنني أصبت بالبرد عند خروجي من
الحمام.
لم حزمة المفاتيح ولا حظ فوراً أنها تنقص مفتاح الحجرة السرية
الصغير.

- والمفتاح الصغير!
- كيلا أقع في التجربة وأغرى بفتح باب الغرفة السرية سحبته من
الحزمة وخبأته في أحد الأدراج، لكن لم أعثر عليه بعد.
- اذهبي وابحثي عنه!

كان ساخطاً لدرجة أن لحيته راحت ترتجف. وبذا لزوجته أنه

تضاعف حجماً وبدانةً، يمشي فترتج الأرضاً، ويصبح فتهتز المرايا وتصدق الأبواب. تحول وحشاً لم تعرفه من قبل، ذاك الذي قتل الصبايا وتركهنّ يتعفنّ في غرفة التعذيب. وفيما هي راكضة لتأتي بالمفتاح قالت في نفسها: "يجب بأي وسيلة ألا يعود هذا المفتاح بين يديه، فآثار الدم عليه ستفضحني وسائلى مصير ضحاياه". ركضت، وقعت، نهضت، تلاحقها صياحت الوحوش، إلى أن تمكّن أخيراً من الوصول إليها فامسكها بعنقها:

- أعطيني المفتاح فوراً وإلا أضغط وتخنقني.

وناولته المفتاح المذكور، فقرّبه من أذنه وسمع ما قاله له: "لقد استعملتُ، وانفتح الباب وشاهدت زوجتك وأصحابها كل ما يمكن مشاهدته. فما عليك إلا أن تقضي عليها! ثم انزع عنّي هذا الدم اللزج".

أمسك أبو لحية زرقاء بشعر زوجته الرائع الطويل وجرّها إلى غرفة أخرى. وفي هذه اللحظة تحديداً قرع جرس الباب. فقد حضر بعض المسؤولين ليحققوا في مقتل عامر. أرخي أبو لحية زرقاء قبضته عن شعرها ورتب تسرية شعره وراح ليكلّم الرجلين اللذين أرادا أن يعرفا منه كيف جرت الأمور، فقال لهم:

- لا أستطيع أن أفيدكم بشيء، كنت في مكة المكرمة عندما وقعت الحادثة. لقد كان رجلاً طيباً، وخادماً أميناً، لكنّني لا أعرف شيئاً عن حياته خارج القصر.

وراحت خديجة تصرخ: "النجدة!". وردّ عليها أبو لحية زرقاء كما لو أنهما يواصلان لعبةً ما معًا:

- نعم حبيبي، لقد انتهت اللعبة وأنا مشغول، وسأتي لأراك عندما
ينتهي هذان السيدان من طرح أسئلتهما.

واستغلت خديجة الموقف لكي تنجو بنفسها، فارتدى جلباباً
ومرت أمامه قائلةً له:

- أنا ذاهبة لأرى أمي، فقد وقعت هذا الصباح وهي بحاجة إلى...
أراك بعد قليل...

هكذا تمكنت من مغادرة القصر، وما إن صارت في الخارج حتى
أطلقت ساقيها للريح حتى وصلت عند أمها وانفجرت باكيةً وأخبرتها
كيف هربت. كانت أمينة قد أخطرت أشقاءها وأقاربها، وطوال النهار
كنّ يتظارن إشاراتٍ من الفرسان الشجعان، فيما خديجة تسأل مرّةً تلو
الأخرى أختها الواقفة على السطحة:

- أختي أمينة، هل تلمحين أحداً آتياً؟

- كلا لا أرى أي شيء سوى السماء والحقول، سوى الطيور
والفراشات.

ولم تكن خديجة في مأمن تماماً حتى في ملادها عند أمها. فقد
يدخل الوحش المنزل في أي لحظة ويخطفها. كان الكلّ خائفين،
وأمينة تستطلع الأفق، وسألتها خديجة مجدداً:

- أختي أمينة، هل تلمحين أحداً آتياً؟

- كلا لا أرى شيئاً سوى السماء والجبال والشجر وطيور الصيد
وسحابة كبيرة في البعيد...

- وما تلك السحابة؟

- إنها تقترب! هذا غبار تشيره القافلة. أرى جياداً ويدو أني أرى

أخوتنا وأقاربنا. ها هم يصلون، يقتربون، لقد نجونا...

- انتظري قليلاً قبل أن تحتفل بالنصر.

وقفت النسوة الثلاث وسط الطريق لتوقيف الفرسان وإطلاعهم

على الواقع، وبادرت أمينة إلى الكلام:

- أختنا عُرْضَة لِلْمَوْتِ، زوجها قاتل، سبق أن قتل عشرات الصبايا

البائسات، وهذا ما اكتشفناه أثناء غيابه في غرفة تحت الأرض حيث تكَدَّست جثث النساء الذبيحات المقطّعات إِرْبَأً. إنه متعطش للدم،

مجنون خطير جداً، يجب القيام بعمل ما، وتوقيفه...

فرد أحد الأخوة:

- لم أحب هذا الرجل قطّ، تبدو عليه هيئة الإجرام...

وقالت الأم:

- يا بني، ليس لأحد هيئة الإجرام! وأيُّ كان قد يتصرّف كوحش.

والامر بسيط، هل تلاحظ مثلاً أن هذا الذي يريد ذبح زوجته هو ذو لحية وعين من زجاج... وفي كل الأحوال يجب العمل على توقيفه.

فقال آخر:

- أنا لا أثق بالعدالة في هذا البلد.

- يجب على المرأة أن يأخذ ثأره بنفسه...

وتدخلت خديجة:

- من الأفضل توقيفه وتقديمه للمحاكمة أمام قاضٍ...

وردت أمينة:

- لكنه على درجة من الشراء تمكّنه من شراء ذمة كل قضاة هذا البلد. كلام، يجب أن يُقتل!

وقالت الأم:

- نحن لسنا قتلة، دعونا لا نضيّع الوقت ولننصل له فخاً، ولنتصرف كأننا لا نعرف شيئاً مما يخفيه. وأنا أقترح أن ندعوه إلى حفل زفاف أمينة.

وانتفضت أمينة صائحة:

- لست في وارد الزواج!

وردّت الأم:

- نتظاهر بذلك، كأنك تُرِفين إلى نسيك حسين. وحتى وإن لم يكن ذلك صحيحاً، يجب إيقاع الوحش في الفخ. نستدرجه إلى هنا ونكبله ونستدعي الشرطة أو الجيش...

ووجدت خديجة الخطّة ذكية واقتصرت أن يزوره الفرسان في قصره حاملين باقة زهر كبيرة.

وقصد الشقيقان والأقرباء الثلاثة القصر وطلبا مقابلة أبي لحية زرقاء. ففتحت لهم بهيجه، شاحبة اللون مرتجلة، وهمست لهم: - إنه في مزاج سيئ جداً، شديد الغضب وكفيل بأن يقتل أول من يراه، فكونوا على حذر...

وظهر لهم أبو لحية زرقاء من أعلى الدرج الرئيسي متوجّهم الوجه ومهمّل الثياب، ولم يتمكّن من كتم غضبه:

- ماذا تريدون؟

فقال له أحد النساء مبتسمًا:

- تقبل منّا هذه الزهور رمز صداقة وحسن جوار. وقد جئنا ندعوك إلى عرس أمينة ابنة حميّك، يوم الجمعة بعد صلاة الظهر.

- موافق، لكن قبل ذلك قولوا الخديجة أن تعود إلى المنزل. لقد تшاجرنا قليلاً كما يحدث دوماً بين الأزواج ثم ذهبت عند أمها. أنا بحاجة إليها، يجب أن تعود، أحبها ولا أريد أن أفقدها.

فقال أحد الأخوة:

- أعدك، لك مني عهد أن أعيدها إلى منزلها بعد حفل الزفاف.
فمن الواجب أن تعيش الزوجة مع زوجها.

- كلا، خديجة أولاً، ثم الزفاف.

وراح يصرخ ويختدّ ويخطب الأرض بقدميه ويلعن حظه...
في اليوم التالي أعادوا خديجة إلى القصر، بعد أن سلمها أحد أقربائها ظرفاً صغيراً يحوي مسحوقاً يعمي العينين، في حال عن لأبي لحية زرقاء أن يؤذيها، وحملها صفاراً لاستعمالها في حال الخطر. ثم عملت خديجة على صرف انتباه زوجها بما يسمح لأخواتها بالدخول إلى القصر والاختباء فيه، وظلوا في وضعية الاستعداد للتدخل بمجرد سماع الصفارة.

كان أبو لحية زرقاء منهكاً. لقد حطّمته معاكسة الظروف له. لكن هذا لا يعني أنه صرف النظر عن ذبح زوجته، لكنه كان يتضرر اللحظة السانحة لينفذ ما يرمي إليه. أما خديجة فقد اعتمدت على ابتسامتها وحسنها وذكائها لكي تنجو من المصير المشؤوم الذي يخبئه لها.
وبطبيعة الحال هو غير قابل للتاثير بكل ذلك، ما كان سوى رجل تملّكه الجنون وال الحاجة إلى سفك دماء النساء. راح يدور حولها وهو يتوعّدها بمستقبل مليء المفاجآت. وهي من وقت إلى آخر تجسّ جيوبها لتتأكد من وجود المسحوق والصفار، وبقيت على أبهة

الاستعداد لتطلب النجدة في أي لحظة.

وفيما هو يرغبي ويزبد ظهر الهر الأسود الشهير. تبادلت عيونهما النظرات وخفف أبو لحية زرقاء الذي كان يستعد لتأدية صلواته الخمس، علمًا أنه لم يدر من هذا الحيوان ما ينم عن خطر.

وبادره أبو لحية زرقاء بالكلام:

- أنت لا ت يريد أن تكلّمني بعد، أليس كذلك؟ لقد فقدت سطوتك ولم تعد سوى هر أزقة تمر صدفةً من هنا...
فماء الهر كأنه يقول لأبي لحية زرقاء إنه مجنون. ثم راح يدور حوله وبسحر ساحر عاد إليه الكلام:

- يا لك من إنسان بائس! أبحث لنفسك كل شيء. لكن إذا كنت عازماً على الاقتراب من هذه السيدة فسأقفز إلى عنقك، وأنت من يذبح عندها. لي مخالب تحول خناجر صغيرة مسنونة ورهيبة. فليس أمامك إلا حل واحد، سلم نفسك للعدالة وصل لله لكى يرحمك في الجحيم، فهناك مصيرك. ولن تفديك بشيء حجتك إلى مكة. فأنت تزهق حياة نساء ضعيفات ييد، وباليد الأخرى تصلي لله العلي العظيم!

امتنع أبو لحية زرقاء وتمتم بعض الكلمات ثم وجّه سجادة الصلاة نحو مكة وهتف: "الله أكبر". فوقف الهر عندها قبالتها وبال على السجادة، وبالتالي تعطلت كل صلاة وتوجّب التوضؤ مجددًا ورمي السجادة.

راح الهر يقفز من زاوية إلى أخرى ثم توقف فجأة ونظر في عيني الرجل قائلاً:

- أيها المنافق! تفترف الكبائر وتتجرب على الصلاة إلى الله! انتهى
أمرك.

كانت خديجة تتبع الحوار فتدخلت قائلةً:
- نفذ ما ي قوله لك.

- أنت لا تقترب مني. كان عليّ أن أقطعك إرباً منذ زمنٍ طویل،
لستِ أفضل من العاهرات الموجودات في الطابق السفلي.
وما كاد الزوج ينقض على زوجته حتى أطلق الهر صرخةً تشبه
صوت الصفاراة وقفز إلى عنقه مغزاً مخالبه في جلدِه معطلاً حركته
فيما الدم يسيل من عنقه.

وبرز الأخوة كلُّ بسيفه. فقيد أحدهم يدُّي ورجلٌ أبي لحية زرقاء
ثم غطوا رأسه بكيس خيش وأخرجوه من القصر. وقد اقيمت مباشرةً
ليمثل أمام القاضي الذي كان الأنسباء قد وضعوه في الأجواء، فيما
الهر يتبعهم لأنَّ القضية قضيته.

أُلقي أبو لحية زرقاء في السجن في انتظار محاكمته، وانتشرت
قصته في كل المدينة فراح العائلات تجتمع أمام قصر العدل رافعةً
يافطات كتب عليها: "العدالة لبنيتنا" و"أبو لحية زرقاء إلى الجحيم"
و"لا فساد. العدالة أولاً".

وحضر بعض حجاج المحكمة وفتحوا الحجرة السرية ليكتشفوا
حجم المجزرة، فأعدوا تقريرهم بأسرع ما يمكن وأبلغ قصر العدل
به، فصدرت الأوامر بأن تجري المحاكمة في أسرع وقت ممكن،
وعلى الأخص أن يتصرف القضاء بالحرية والشفافية.

كانت المحاكمة علنية، وتقاطر الناس من كلّ مكان، بعضهم

مدفع بحشرية مريمة. وقد رفض أبو لحية زرقاء الإجابة عن الأسئلة، فيما قدّم أحد محاميه المرافعة التالية:

إنَّ جريمة هذا الرجل ثابتة سلْفًا. وجرائمـه فظيعة بما يكفي
لعدم الوقوف على التفاصيل. لكنـ فليتصرـف القضاء برصانة، وأنا
سأرفع لإثبات مرضـه العقليـ. هذا الرجل يجبـ أنـ يخضع للعلاج...
قصـ حـ رـ اـسـ السـ جـ نـ لـ حـ يـةـ هـ ذـ اـ وـ حـ وـ شـ فـ كـ شـ فـ تـ عـنـ وـ جـهـ اـ كـ تـ سـ حـ
الـ جـ دـ رـ يـ، وـ جـهـ شـ نـ يـعـ مـ رـ عـ بـ، وـ قـ دـ غـ اـرـتـ عـيـنـاهـ الصـغـيرـ تـانـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ
فـيـهـ. وـ يـوـمـ صـدـورـ الـحـكـمـ بـحـقـهـ صـرـاحـ بـأـنـهـ لـاـ يـشـعـرـ بـالـنـدـمـ. وـ قـدـ حـكـمـ
بـالـإـعـدـامـ وـنـفـذـ الـحـكـمـ فـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ.

ورثـتـ زـوـجـتـهـ ثـرـوـتـهـ الـكـبـيرـةـ، لـكـنـهاـ ظـلـلتـ تـعـيـشـ فـيـ بـيـتـ أـهـلـهـاـ
مـعـ أـمـهـاـ وـأـخـتـهـاـ، وـاسـتـقـدـمـتـ بـهـيـحةـ لـلـعـيـشـ مـعـهـنـ، وـحـوـلـتـ الـقـصـرـ
مـدـرـسـةـ وـنـذـرـتـ حـيـاتـهـاـ لـأـعـمـالـ الـبـرـ. أـمـاـ أـمـيـنـةـ فـقـدـ تـزـوـجـتـ بـنـورـ الـدـينـ
الـذـيـ كـانـ لـهـ شـقـيقـ تـوـأمـ أـغـرـمـ بـخـدـيـجـةـ وـتـزـوـجـهـ. وـكـمـاـ يـقـالـ، عـاشـاـ
حـيـاةـ سـعـيـدـةـ وـأـنـجـبـاـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـوـلـادـ.

أـمـاـ الـهـرـ فـقـدـ غـادـرـ الـقـصـرـ لـيـلـتـحـقـ بـفـرـقـةـ "ـسـيرـكـ"ـ تـعـرـفـ فـيـهاـ بـهـرـةـ
خـيـرـةـ بـالـأـلـعـابـ الـبـهـلـوـانـيـةـ، عـلـىـ الـحـبـالـ نـهـارـاـ وـفـيـ الـأـرـاجـيـعـ مـسـاءـ.

الهرّ أبو جزمة

أما الهرة فهي أكثر دهاءً، أحرار متخالبون ماكرون، يعبرون ولا يطلبون شيئاً. ويعيظون من يحاولون التحكم بهم أو امتلاكهم. وهؤلاء أيضاً لهم أوامر توجه إليهم مثل "بُسْتِ يَلْلَا" بمعنى "سترى إن امسكت بك" أو "بيسي بيسي" بمعنى "تعال" أو "بعيد يا..." بمعنى "ابعد يا ابن الشارع".

إلا أنّ "ضاوية"، الهرّ الأرستقراطي الذي اختار السكن عند طحان فقير، كان في جعبته الكثير من الحِيل. يمضي نهاره حالماً قرب فرن الخبز مراقباً حياة هذا وذاك من الناس. وقد أسماه صاحبه "ضاوية" التي تعني "شرق" لأنّه كان أسود اللون بكماله. ففي هذه البلاد يحبّون معاكسة القدر باعتماد النقائض.

كان ضاوية هرّاً نباتياً، يرتعب من الفئران حتى وإن كان بارعاً في التقاطها، وغالباً ما يتراكها لهرّ الجيران، وهو هرّ أزقة سوقى لا أصل له ولا اسم ولا تربية. هو هرّ محروم لكنه راض بعيشته. كان للطحان ثلاثة أولاد، وهو رجل فاضلٌ أمضى حياته كلها في العمل ولم يجمع ثروة، رجل في منتهى النزاهة ويأنف من الكذب. في أحد الأيام قال له ابنه البكر حسن:

- إذا لم تتعلم الكذب قليلاً ستبقى طوال حياتك تاجرًا فاشلاً. وكان الهرّ يتبع النقاش فأطلق تنهيدةً عميقة رافعاً نظره إلى السماء. فضاوية كان يفهم لغة البشر وحتى أنه ينطق أحياناً ببعض الاقتراحات باللغة العربية وإن بعض الصعوبة، فهو موهوب أكثر باللغة اللاتينية لأنّه في حياة سابقة عاش في صرح حاضرة الفاتيكان حيث أحبه البابا في عصره كثيراً. وأيّاً يكن فتلك كانت روایته لمن يتعجبون وهم يسمعونه يبرّطم بتلك اللغة.

وتوفي الطحان من شقاء وشيخوخة، ولم يورث أولاده الشيء الكثير. فأخذ حسن الطاحونة، وفاضل، ابنه الوسط، أخذ الحمار وأسس شركة نقل. وبقي ضاوية فتولاًه رشيد ولم يكتم احتجاجه، فقفز الهرّ بين ذراعيه وراح يداعب وجهه ثم لاذ بقدميه. وقال رشيد:

- حظي سيء، الأول أخذ الطاحونة، والآخر الحمار الذي يمكنه تشغيله، أما أنا فماذا أفعل بالهر؟ بالتأكيد يمكنني أن أعرضه في سيرك، لكن من زمن طويل لم يمر سيرك "الار" بمدينتنا، كما يمكنني أن أدرّبه على صيد الفئران والجرذان، لكن وضعه ميؤوس منه فعلاً، فهو نباتي بشكل قاطع. وأخيراً إذا قررت أكله حتى وإن كنت لا أحب لحمه، أو أن استعمل جلده كساء لي في الشتاء، فلن يتبق لي شيء. يا الحظي التعيس!

عندها قال له ضاوية بصوت عذب:

- سيدى، نعم أنت الآن صاحبى وأنا في تصرفك. ثق بي تر، بإمكانى أن أقدم لك خدمات لا تضاهى، فمثلاً قد أتوصل إلى صيد الفئران والجرذان وأكلها، أبدل جهداً ولا أعود إلى نظامي النباتي إلا عندما تُدبِّر أمورك. حالياً يكفي أن تعطيني كيساً وتجد لي جزمةً لكي أتمكن من الذهاب إلى الغابة لصيد الأرانب. بعدها ترى، ولن تندم.

وحمله رشيد إلى حضنه وقال له:

- لكن أين أجد لك جزمة؟

- عند جيراننا. فهم يشترون كل سنة جزمات لأولادهم، من ماركات مشهورة. وما إن تبطل موضتها حتى يرمونها. أعرف أين. وأنا لا تهمني الماركات، الأهم هو أن تكون متينة وخصوصاً لأن تكون صنع الصين.

- لماذا؟

- لأن الصينيين يستعملون مواد ذات نوعية سيئة. وأنتم، أبناء البشر، لا تعرفون ذلك أو أنكم سُذج، أما نحن فنعرف ذلك لأن

الغراء المستعمل فيها يسبب الصداع والغثيان، ويقال إنه قد يسبب سرطان الجلد. ولذلك أنا أتجنبه.

تدبر له رشيد كيساً يُسَدّ بشرط وجزمه لمها من نفايات الجيران، فنفظها وسوها ولمعها وسلمها إلى ضاوية الذي انتعلها ووجد نفسه مرتاحاً فيها. كانت قدماه دقيقتين ولذلك حشا رشيد الجزء بالتبني والصوف.

في الصباح الباكر انطلق الهر إلى الغابة وهو يندنن نغماً جميلاً. ثم كمن في مكان تمر به الأرانب، ووضع الكيس بشكل جعل منه فخاً. ولم يتأنّ في اصطياد أرنب، ثم التحق ثان وثالث بالأول. فرأى ضاوية أنّ هذا يكفي لذاك النهار ثم جر بكل قواه الكيس بما فيه من صيد وتوجه بخطى واثقة إلى قصر الحكم، وهو أمير نسيب الملك.

أوقف عند مدخل القصر وسمع صرخة: «بعيد يلا! أيها الشرير». عندها طلع ضاوية، أمام الحراس، بحيلة كبيرة وكلّمهم بلغة عربية تقليدية بلهجـة دول الخليج. قـلد بشكل تام نبرة أمراء تلك المناطق البعيدة، وهو ما لم يؤثـر في الحراس وحسب بل جعلهم مضيافـين متزلـفين:

– السيد الهر، أنت غريب الأطوار، ماذا جئت تفعل هنا؟ بم يمكننا أن نخدمك؟

– أن تسمحوا لي بمقابلة سمو الأمير، الحكم باسم جلالته. أنا أحـمل إلـيه هـدية من سـيدـي رـشـيدـ، وهو رـجـلـ مـمـيـزـ من نـسـبـ شـرـيفـ، متـحدـرـ منـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ.

وتداول الحرّاس فيما بينهم، ثم استشاروا قائدهم وما لبثوا أن رفعوا الحاجز فمرّ الهرّ وهو يشكرهم:
– تانك يو، غراسيا، شكرأ، ميرسي!

وهرع حارس آخر ليرافقه إلى مكتب الحكم الذي كان قد أبلغ بهذه الزيارة المفاجئة.

– أهلاً وسهلاً! كم أنت محظوظ! أولادي مولعون بالهررة وقد بذلت جهداً لأبقي بعضها في القصر، وبالعكس لا أثر لأي كلب هنا! هذا حيوان نسيب الشيطان والخنازير، وديانتنا لا تسمح باقتتال هذه الحيوانات.

أراد ضاوية أن يذكره بأنَّ الله أنان الصحاة السبعة في كهف وأقام على بابه كلباً، وأنه هو نفسه نام ثلاثة وخمسة وخمسين عاماً! لكنَّ الهرّ تمالك نفسه معتبراً أنَّ لا فائدة من معارضة رأي الحكم، وقدم إليه الكيس بالأرانب الثلاثة:

– هذه الطرائد اصطادها معلمٍ، رشيد، وقد حرص على أن يقدم إليك هذه الغنيمة المميزة عربون عرفان وولاء للعرش.

شكره الحكم وطلب منه أن يبلغ سيده تهانيه الحارة.
وحياه الهرّ منحنياً له ما جعل الحكم يتسم، وكان يومها بصحبة ابنته البكر، ياسمين، وهي صبية فائقة الجمال، فانحنىت وداعبت ضاوية الذي ماء بطافة أعادت للأميرة في النهاية مزاجها الجيد، إذ كان خطيبها قد تركها في الليلة السابقة من أجل فتاة أقل جمالاً منها لكن أكثر ثراءً.

و قبل أن ينسحب لم يتمالك ضاوية نفسه عن التذكير بأن الكلب

ليس مرفوضاً في ديانتنا، وليس، على كل حال، مثل الخنزير الذي يتغذى بأي شيء يلتقطه. فوافقه الحاكم الرأي وطلب منه أن يشكر سيده.

بعودته إلى المنزل وجد ضاوية رشيد حزيناً ومحبطاً، فدار حوله ولحس قدميه إلى أن انتزع منه ابتسامة، ولم يحل ضاوية شيئاً عمما جرى في ذلك اليوم وتظاهر بالنوم.

في اليوم التالي قصد الطاحونة لصيد الفئران. واكتشف أن أشغال الأخ البكر مزدهرة. وبعد أن لعب قليلاً مع الفئران عضها من رقابها ووضعها في خرقة قماش وحملها إلى معلمه، وقال له:

- آكلها إن طلبت مني ذلك.

هز رشيد رأسه أن لا، ثم اهتم بإعداد طعام العشاء.

بعد أيام انتعل ضاوية جزمته وحمل الكيس وذهب إلى الجهة الأخرى من الغابة، حيث يوجد الكثير من طيور الحجل والبط. فاتخذ وضعية وانتظر وصول الصيادين الحقيقيين. كان يكفيه أن يلتقط الحجال وهي هاربة، وهو ما قام به لفترة طويلة من ذاك النهار، ولكن الكيس لم يكن كبيراً بما يكفي فاكتفى بأربعة حجال قتلها كيلا تفلت منه.

وكما من قبل قصد قصر الحاكم، فعرفه الحراس وأحسنوا استقباله، وفي الطريق التقى في ممرات الحديقة ياسمين الجميلة وهي تقرأ في كتاب وتمسح بعض الدموع عن وجهها. توقف الهر وحياتها منحنياً وانفجرت ياسمين ضاحكة:

- لكن من أرسلك؟ ما إن أراك حتى أشعر بتحسن. يجب أن

تحضر دائماً أو سأطلب من والدي أن يستخدمك عندنا.

أحنى ضاوية، الوفي لسيده، رأسه. واستأنفت الأميرة الكلام:

– ماذا تحمل اليوم؟

– بعض الحجال الرائعة. صادها معلمٍ في هذا الصباح الباكر وكلفني أن أهديها إلى سمو الأمير والدك.

اختلس الهر نظرةً إلى ياسمين ورأى أنها ستكون مناسبة تماماً لرشيد. لكن لم تبلغ الأمور هذا الحدّ بعد. وكان الحكم منهمكاً بأشغاله فأحاله على مساعدته يعقوب، وهو رجل نحيل جداً ذو عينين ماكرتين، فقال له:

– أيها الهر، قبل أن تغادر تعال وخلصني من بعض الجرذان التي تحرمني النوم ...

لبّي ضاوية طلبه مكرهاً لأنّه بالطبع يكره هذا الحيوان لكن ليس الوقت مناسباً لتعقيد الأمور، فمصير سيده قد يتضرّر، فنفّذ الأمر سريعاً وقضى على أحد اجتماعات الجرذان في القصر. أعجب يعقوب بذلك وطلب منه أن يهتم بالفئران، ولم يلبث ضاوية أن طارد هذه الحيوانات الصغيرة إلى ولّت هاربةً من القصر.

وفيما هو يغادر توقف أمام ياسمين ولحس جزمتها عرفاناً بالجميل. فقالت له:

– لماذا لا تأتي يوم الجمعة لتسبح معنا في بحيرة ”الثلاث مَسَرَّات“؟ هكذا نعمق معرفتنا ببعضنا.

انحنى لها ضاوية بما يعني أنه موافق، وغادر راكضاً. كان شديد التوتر، يروح ويجيء في البيت، يصعد فوق ركبتي

رشيد ليقفر من الجهة الأخرى. ربما أراد أن يقول شيئاً ما لسيده لكنه في ذلك الصباح فقد ملأ الكلام، ولم يفهُ بأي كلمة من أي لغة. عندها راح يموء مثل مجنون. كان يلزمها أكل العسل وشرب حليب الغنم، وهذا أفضل وسيلة لكي يستعيد اللغات التي فقدتها. والحال أن الأخ البكر كان يملك العسل الشهيّ وحليب الغنم الطازج.

قصد ضاوية عندها البيت الكبير، وتسلّل بين أوعية الطعام حتى وجد جرة العسل الصافي. ولحسن حظه كانت هناك قصعة مليئة لم يكدر يلمسها أحد فلعقها ولم يترك فيها شيئاً، كما كان على طاولة الفطور قصعة حليب للولد الصغير الذي لم يلمسها بتاتاً.

أولى الكلمات التي عادت إلى ضاوية كانت شتائم، فخجل الهرّ وصمت وانسحب راكضاً. وعندما بلغ المنزل أبلغ رشيد أنهما سيذهبان للسباحة في البحيرة بعد غد، وهو يوم الجمعة. فأعلمه رشيد أنه لا يجيد السباحة، فأجاب ضاوية بشكلٍ مستغربٍ:

– أحسن!

– أتجد هذا مضحكاً؟

– بشكلٍ ما نعم. رجل بهيتك وأهميتك ولا يتقن السباحة قد يصلح للعرض في سيرك، لو لم تكن من أصل شريف، من سلاله نبيّنا الحبيب. لكن لا أهمية للأمر، عندي خطة، خطّة رائعة للتخلص من حياة الفقر التي نعيشها، وما عليك إلا أن تعمل بتعليماتي.

توجّس رشيد من الأسوأ، لكن هرّه على درجة من الذكاء والدهاء جعلته يقرّر أن يضع ثقته فيه.

صبيحة يوم الجمعة سلك الهرّ وسيده طريق البحيرة. كان الطقس

جميلاً والشمس معتدلة والنسيم عليلاً والمياه صافية ورائقة كالمرأة. وكان ضاوية يعرف أنَّ موكب الحاكم وابنته سيمَر بالمكان في منتصف النهار، فجلسا تحت الشمس يتظاران. وما إن رأى الهرَ السيارة الرسمية من بعيد حتى أمر سيده بأن يخلع ثيابه ودفع به إلى المياه. ولم يجدِ رشيد أَي اعتراض طالما ظلت رجلاته تلامسان الأرض. وعندما دنا الموكب راح الهرَ يمْوِء مواءً شديداً ويبالغ فيما كان سيده يتختبط في المياه ويصرخ طالباً النجدة. توقفت سيارة الحاكم فأسرع الهرَ إليه باكياً، وقد عمل بطريقة ما ليجعل الدمع يظهر على خده، ثمَّ شرح بلغةٍ مجھولة أنه يجب إنقاذ الرجل الذي يكاد يغرق. فأصدر الحاكم، الذي كان برفقة ابنته، الأمر بالإسراع لإخراج صاحب الهرَ من المياه. وفي هذه اللحظة أضاف ضاوية بلغة عربية سليمة:

- صاحب السمو، يا صاحب السمو، لقد سُرقت ثيابه، مرَّ بعض الأشرار من هنا وأخذوا كلَّ شيء!

فأُوزع الحاكم إلى أحد حراسه بأن يسرع إلى القصر ويجلب منه جلباباً من أجمل ما عنده. فانطلق الحراس كالسهم وعاد بعد دقائق حاملاً عدة أثواب مغزولة من الحرير أو الكشمیر. في هذه الأثناء كان الهرَ يتسلَّى بالدوران حول الأميرة لكي يُضحكها.

بعد أن ارتدى رشيد الثياب الفاخرة قدم نفسه منحنياً أمام الحاكم الذي طلب منه أن ينهض وقال له:

- يا صاحبي، دع انحناءتك للملك حفظه الله وأجله. أنا أعرفك، وأشكرك على الطرائد التي تنعمت بإرسالها لي.

أما الأميرة التي فُنت بهذا الرجل فأضافت:

- عندك هرّ ممّيز، يحكى عدّة لغات حتى لنظنّ أنفسنا في
بلاط الملك سليمان أو والده الملك داود اللذين كانوا يفهمان لغة
الحيوانات.

وهنا تدخل الهرّ قائلاً:

- لكن يا صاحبة السمو، هذا جرى منذ زمن بعيد جداً!

- أعرف.

راح قلب رشيد يخفق بقوة وأحسّ بأنه في منتهى الخفة كأنّه يطير فوق الأشجار والبحيرة. كان رأسه يدور ويداه ترتجفان وانعقد لسانه في فمه. ولم تفارق عيناه الأميرة الغارقة في حالة غريبة وممتعة في آنٍ معاً.

وفيما الشابان يتبدلان النظارات من دون أن يتمكنا من التفوّه بكلمة واحدة كان الهرّ يُلهي الحاكم وهو يروي له قصة غريبة عن حرب محتملة بين شامبازية الشمال وشامبازية الجنوب. وقد حدثه عن هجوم مرتفع يُعدّ له الذكور الساعون إلى الإناث الموجودات في جنوب البلاد. بدا الهرّ واثقاً من نفسه فيما الحاكم يتملّكه الذهول أكثر فأكثر.

إنه الحبّ من أول نظرة! أغرم رشيد وياسمين أحدهما بالآخر.
راح ضاوية يختلس النظر إليهما وهو يحدّث الحاكم. وعندما دعا الحاكم الشاب إلى الغداء في القصر تقدّم الهرّ الموكب وراح يعدو. ومن كان ليعرف إذا كان يركض من الفرح أم كان يدبّر مكيدةً جديدةً
لخدمة سيده؟

وَتَوَقَّفَ أَمَامْ مِزَارِعِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ وَقَالَ لَهُمْ:

– عِنْدَ مَرْوُرِ مَوْكِبِ الْحَاكِمِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِيُّوا سَيِّدِي كَمَا لَوْ أَنَّهُ مَالِكُ هَذِهِ الْأَرْضِ. الْمَطْلُوبُ فَقْطَ أَنْ نُوَهِّمَ كُلَّ هُوَلَاءِ النَّاسِ أَنَّ سَيِّدِي يَمْتَلِكُ هَذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الْأَرْضِ.

فَأَجَابَهُمْ أَحَدُهُمْ:

– وَإِنْ لَمْ نَفْعَلْ؟

– إِنْ لَمْ تَفْعِلُوا وَقْعَتُمْ فِي مَشَاكِلٍ، مَشَاكِلٌ كَبِيرَةٌ.
وَرَفَعَ الْمِزَارِعَ عَصَّاً وَهُمْ بِضُرِبِ الْهَرَّ، لَكِنْ هَذَا الْآخِرُ رَمَاهُ بِنَظَرَةٍ
رَهِيبَةٍ أَعَادَتْ يَدَهُ إِلَى مَكَانِهَا كَأَنَّ قُوَّةَ خَفِيفَةٍ قَامَتْ بِذَلِكَ.

– حَسَنًاً سَنَقُولُ إِنْ هَذِهِ الْأَرْضُ مَلْكٌ لَهُ!

عِنْدَ مَرْوُرِ الْمَوْكِبِ انْحَنَى كُلُّ الْمِزَارِعِينَ تَعْبِيرًاً عَنِ الْاحْتِرَامِ
وَالْوَلَاءِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ رَشِيدَ يَشْعُرُ بِالْأَسْتِياءِ. وَفَهِمَ الْحَاكِمُ أَنَّ هَذِهِ
الْأَرْاضِي مَلْكُ الشَّابِ، فَهَنَّأَهُ قَائِلًاً:

– عَنْدَكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَمْلاَكِ!

– لَيْسَ الْفَضْلُ لِي. أُورْثَنِي وَالَّذِي بَضْعَةُ هَكَتَارَاتٍ هُنَا وَهُنَاكَ،
وَأَنَا أَهْتَمُ بِهَا قَدْرِ الْإِمْكَانِ.

وَلَمْ تَحِدِّ الْأَمْيَرَةُ بِعِينِيهَا عَنْهُ، وَأَدْرَكَ الْحَاكِمُ أَنْ شَيْئًا مَا يَحْدُثُ،
هُوَ يَعْرُفُ ابْنَتَهُ جَيْدًا، وَفَهِمَ سَرِيعًا أَنْ حَبَّاً كَبِيرًا قَدْ وُلِّدَ الْآنَ.
سَرَّهُ ذَلِكَ كَثِيرًا، خَصْوَصًا أَنَّ الشَّابَ مِنْ أَسْرَةِ حَيَّةٍ وَثَرِيٍّ وَكَرِيمٍ،
جَمِيلٌ وَكَيْسٌ. وَرَأَى فِي هَذَا اللَّقَاءِ إِشَارَةً مُبَنِّيَّةً بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ لِأَنَّهُ مِنْذَ
مَأْسَاةِ وَفَاهَ زَوْجَهُ لَمْ يَعْرُفْ كَيْفَ يَعِيدَ الْبِسْمَةَ إِلَى وَجْهِ ابْنَتِهِ. ثُمَّ لَيْسَ
فَقْطَ أَنَّ يَاسِمِينَ كَانَتْ فِي سنِ الزَّوْاجِ، بَلْ لَأَنَّ وَالَّدَهَا مُسْتَعْجِلٌ لِيُرِزِّقُ

بأحفاد لأنَّ ابنه البكر عاقد وهذا ما أوقعه في غمٌ شديد.

تابع الهرَّ سيره متقدماً مسافةً بسيطة عن الموكب المتوجَّه إلى القصر، وهو يشعر بالسرور من فعالية حيله ويفتَّش أيضاً عن طرق أخرى لإرضاء معلِّمه. ولم يلبث أنَّ بلغ قصراً جميلاً واستعلم عنه من بعض الجيران، فقال له رجلٌ عجوز جالس يتشمَّس على مقعد حجريَّ:

- هذا القصر، من الأفضل تفاديه.

- لكنه جميل!

- نعم، لكنه ملك أحدهم والأفضل عدم التعرُّف به!

- هل هو شرَّير؟ أم شيطان؟ مجرم؟ لص؟

- صحيح، كلَّ هذا معاً، هو حالياً ملك غول. فيما مضى كان قصر آل بلحاج، وهي من كبريات عائلات البلاد، لكن نزلت بها مصائب كثيرة. عند موت ربِّ العائلة، تقاتل الأولاد بسبب الميراث، وقد تقاتلوا بالسلاح لدرجة أنهم ماتوا عن بكرة أبيهم. وقد فقدت أمهم عقلها وراحَت تتسلَّك في الشوارع امرأةً بائسةً من دون عقل ولا أمل. وكان القصر مسكوناً، وفي إحدى الأماسي وصل غول واستدعي كلَّ الأشباح وحولَهم إلى رماد ورماهم في النهر وسكن هنا. لا أحد يقترب من هذا المبني. ومن وقت إلى آخر يُشاهد أناساً غريباً الأطوار يرتدون أثواباً حمراً ويدورون حوله. لكن لا أحد يدخله، فالغول هو سيد المكان.

- يا لها من قصة!

ما كانت هذه القصة لترعب الهرَّ، فتحمَّس جداً وركض نحو

القصر ودخله من شبّاكٍ صغير. لم يجد أحداً هناك. المكان معتم والرطوبة تنضح من الجدران. وقد ملأته بيوت العناكب، والخفاش وحيوانات أخرى هو نفسه لا يعرفها. التفّ ضاوية على نفسه، وفجأةً سمع وقع خطى. إنه الغول، ضخم الجثة أغمبر اللون يكسوه وبرّ كثيف، وله عينان صغيرتان جداً غارقتان في وجهه. كان نصف إنسان نصف حيوان. وانكمش الهرّ على نفسه أكثر، وعندما انحنى الغول لكي يلمسه دفن رأسه في صدره كأنه نائم وتركه يفعل. وضعه الغول على إيهامه وقال له:

– أنت متھوّر فعلاً! أنت أول هرّ تجرأ على اجتياز عتبة قصري. ثم هي المرة الأولى التي أرى فيها هرّاً يتغلب جزمةً جميلة جداً. عمّ تبحث؟

– كثيراً ما قال لي أبي إن الحشرية عيْبٌ مشين. حسناً، نعم أنا حشرٍ.

– ماذا تريد أن تعرف؟

– هل يمكنني؟ يمكنني أن أطرح عليك أسئلة، وتعدني بألا تسحقني بعقب قدمك؟

– لكنك بحجم برغوث، وليس معقولاً أن تستقوى على برغوث!

– قيل لي إنّ هذا البيت مسكون، فهل هذا صحيح؟

– آه، نعم! فيما مضى كان فيه الكثير من الأشباح لدرجة أن القصر كان يتحول ليلاً إلى سوقٍ أو إلى ملعب العجائب. كانوا يروحون ويجهّرون، يشربون الخمرة ويعنّون ويرقصون. باختصار كانوا يحرموني النوم. عندها جمعتهم كلهم في إحدى الأمسيات

وقطّعتهم إرباً ورميت الكل في النار. بعد ذلك نعمت بالراحة. لكنني أحسّ أحياناً بالندم لأنهم كانوا يخلقون جواً جميلاً في هذا القصر الضخم الفارغ والحزين جداً. ولذا علىي أن أجد اهتمامات أخرى لكي أملاً وقت فراغي.

- قيل لي أيضاً إن بإمكانك التحول إلى أي حيوان، إلىأسد أو وحيد القرن أو فيل ...

- نعم، وبكل سهولة. يكفي أن أبتلع ثلاث رؤوس بطيخ وحوالى مائة قطعة من تين الصبار. فلسوء الهضم تأثيرٌ غريبٌ علىي وهو يمنعني القدرة على التحول.

واستدار الغول وغرف من مستودع يحوي كل شيء، من الشمار التي يحتاجها للتحول إلى المناشير والمطارق والسهام المسمومة والدمى المقطعة قطعاً ورؤوس سعادين وأفاعٍ في آنية زجاجية وأذناب جواميس ...

بعد دقائق قليلة وجد الهر نفسه أمامأسد بدا له ضخماً. تسلق ضاوية رفوفاً وضعت عليها جمامجم بشرية، واحتمى هناك إلى أن يعود الغول غولاً.

- أنا خائف، أعرف أن الأسود والهررة لا تتفاهم بتاتاً، والأسود لا تفاوض بل تلتهمنا من دون بحث. أوف! أفضل أن تتحول حيواناً وديعاً أكثر، صغيراً أكثر، حماراً مثلاً أو أرنبًا ...

- هل تسخر مني؟ حمار؟ لكن هل تعرف أن الحمار هو أكثر الحيوانات غباءً على وجه الأرض؟

- لا أوقفك الرأي. فنسيبي، أو بالأحرى شقيق سيدي، ورث

حماراً يعيش منه على أحسن ما يكون.

- بالضبط، يتصرف به الناس كما يشاؤون. هو أحمق، أحمق يُرثى له. كلا! أما الأرنب فهناك عدد كبير من الأرانب، فهذا لا يستحق العناء. كلا، اطلب مني شيئاً مفاجئاً أكثر.

- جرذ!

- ماذا؟ أقلت "جرذ"؟ جرذ، خلد، هذا أمر مرير، إنها تعيش في المجارير، هذا بشع ومرف ...

- جرذ أو فأرة... أظن أنك غير قادر على ذلك، هذا ما قبل لي...

- غير قادر! أنا، الغول الأكثر مهابةً في المملكة، الذي هرب منه قطاع الطرق والسحراء والدجالون والماكرتون والدينيون... هل تعرف أنهم يسمونني "تارمينياتور" و"إكسترمينياتور"... على كل لقبي هو "تور"، فأنا كلّ ما ينتهي بلفظ "تور".

أبدى الهرّ تأثره، لكنه ألح عليه أن يتحوّل جرذاً أو فأراً.

- أفضل الفار، فأنا أظن أنّ هذا أصعب عليك!

أحسّ الغول أنّ الهرّ يتحداه فقال:

- هذا يتطلّب مني شرب دم ضبع، لأن دمه هو وحده يساعدني على أن أصير شيئاً صغيراً جداً. ولحسن الحظ بقي عندي قليلٌ منه، بضعه ليترات حفظتها لوقت الحاجة. سترى أنه لا يصعب عليّ كثيراً أن أتحول من أسد إلى فأر. لكن حذار، يحب أن تكون لطفاء مع الفأرة الصغيرة!

- لا تقلق يا عزيزي تور!

شرب تور ليترتين من هذا السائل النفيس فتحول فأرةً صغيرةً

رمادية اللون مرقطة بيقع بيضاء، وراحت ترکض في صالون البيت مثل المجنونة وبالكاد تصدر صرخات بسيطة حادة. فانقض الهر عليها وراح يدحرجها في كل الاتجاهات، يحملها بين قوائمه ويرميها من زاوية إلى أخرى ليلتقطها بكل خفة ومهارة. وقد أمتعه الأمر. وعندما سمع صوت العرباتقادمة أغمض عينيه وابتلع الفارة. وجد صعوبة في هضمها وانتابته أو جاع في كل جسمه لكنه كان مسروراً إذ صار بإمكانه أن يقدم هذا المكان الرائع لسيده. ذاك أن تور لم يعد قادرًا على الأذى لبعض الوقت وبالتالي يمكن أن يصبح القصر ملك رشيد حالياً.

عندما اقترب الحاكم من القصر دُهش لجمال هندسته. كان قد سمع عنه، وبحسب بعض الأساطير فإن هذا القصر مسكون ويحتله غول أتى من الأصقاع الروسية. وتزعم أسطoir أخرى أن الغول هو امرأة في الأساس وقد تحولت رجلاً وأنها وجدت ملاداً لها هنا بعد أن همست خفاشة في أذنها مقتربةً عليها أن تلحق بها إلى "قصر كل الملذات وكل الأهوال".

وقال الهر للحاكم:

- يا صاحب السمو، شرف سيدي بزيارة قصره. ادخل وانظر بعينيك هذا العالم الغرائب الساحر الجنوني والرائع الجمال في الوقت نفسه. هذا أيضاً من الممتلكات التي أورثه إياها والده، ولم يعرف كيف يتصرف به. أما الآن وقد أصبح رشيد من محظيتك وواحداً من أصحابك، فهل توافق على تزويجه الحسناء، ابنته الوحيدة ياسمين الرائعة الجمال؟

كان رشيد يسمع ضاوية وانزعج بشكل رهيب. والتفت إلى
ياسمين فرآها تضحك من الفرح والسعادة.

أمسك الحاكم بيد ابنته ودخل معها لزيارة القصر. وقد بُهر فيما
رشيد يتبعه خافض العينين ولا ينبع بكلمة.

– يا للروعة! أهذا كله لك؟

أفجاح الهر:

– نعم يا صاحب السمو!

كانت هناك موائد مُدّت عليها أطباق أشهى المأكولات وألذها،
من كل مناطق العالم، وعصير من كل أنواع الفاكهة. ولا خمر، فالدين
يحرّمه. كانت الصالونات مفروشة بالأقمشة الحريرية المستوردة
من الهند والصين، والثريات من البن دقية، والسجاد من بلاد العجم،
ويتضوّع عطرٌ رقيق مثير في كل الغرف، وكانت تُعزف موسيقى لا
يُعرف مصدرها.

دعا رشيد الحاكم وياسمين للجلوس إلى المائدة الرئيسية، ما كان
عليهم إلا أن يمدّوا أيديهم، فأكلوا وشربوا وأحسّوا بالبهجة.

راح الهر يدور ويدور وهو لا يعرف ماذا يتدع أيضاً لكي
يسّر سيده. وفجأة خطرت له فكرة: ”ماذا لو نزعت جزمتي التي
جعلتني أحقق كل هذه الروائع لأعود مجرّد هرّ بسيط، هرّ كغيري
من دون قدرات سحرية؟“ نعم، قد يريحني هذا. لكن ماذا سيحلّ
بسيدِي؟“.

وفيما هو يفكّر في ذلك سمع الحاكم ينطق بنبرة احتفالية بهذه
الكلمات:

- يا صديقي، يتوقف الأمر عليك لكي ترتبط عائلتنا بإحدى أجمل الزيجات، زواج الثروة والجمال، الطيبة والتألق، السخاء والسمو... هل تريد أن تصايرني؟

تقلب الهر على الأرض عدة مرات ثم راح يموء كأحد مغتني “البلوز”.

تأثير رشيد وانحنى عدة مرات ثم تناول يد ياسمين الممدودة وقبلها، ثم عانقه الحاكم وعلى الفور حدد موعد العرس. عندما حل الليل غادر الحاكم وابنته تاركين رشيداً والهر في هذا القصر حيث يتألق كل شيء. لكن ما إن أغلق الباب حتى انطفأت الأنوار كلها وعاد القصر إلى حالته الأولى ببيوت العنكبوت والخفافيش. وهب هواء مفاجئ كسر بعض زجاج الشبابيك وسمع أصوات غير معروفة وسيطر الخوف. حمل رشيد الهر بين ذراعيه وهم بمعادرة هذا المكان عندما سررته قوة خفية في مكانه.

وسمع صوتاً جهوريًا يقول له:

- الخروج من الحمام أصعب من دخوله!

فذكر هذا القول المؤثر الذي غالباً ما كان والده يستعمله عندما يريد أن يشدد على أهمية الجهد ونبذ السهولة. وأدرك رشيد في الوقت نفسه أن كل ما ظنه ملكاً له، وكل الأمور الحسنة التي جرت له في الأيام الأخيرة لم تكن ثمرة عمله وإرادته، بل بفعل براعة هر موهوب بالكلام وذي قدرات سحرية.

أفلت الهر من بين يديه وشمر عن زنديه عازماً على الخروج من المكان حتى لو اضطر إلى مقاتلة الغول. أما الهر، الذي فهم كل

ما يجري أيضاً، فراح يموء وهو يلحس جزمه الجميلة. فاندفع رشيد نحوه ونزع حذاءه السحري هذا الذي كان وراء كل هذه الخضّات.

وقف رشيد والهرّ هناك وجهًا لوجه. الأول مفكراً والآخر مراقباً لا يفعل شيئاً. فقد عاد ضاوية هرّاً من دون قدرات مميزة، يكاد يكون غريباً وهرّ أزقة. وحاولا الاستفادة من العتمة للخروج من القصر. إلا أن الغول تور ظهر مجدداً في تلك اللحظة ليمنعهما من ذلك واقفاً بالباب ساداً طريقهما.

- تنویان الفرار؟ مستحيل، فأنا من يقرر.

لكن رشيد تقدم، ووراءه الهرّ، ودفع الغول الذي انفجر بضحكه فطة عصبية. انشقّ الباب قليلاً فتمكن الهرّ من التسلل خارجاً. وعندها تذكر رشيد أنّ نقطة ضعف الغيلان هي أصابع أرجلهم فوجّه ضربة قوية إلى إصبع رجله الصغيرة أسقطت ذلك المخلوق الجبار أرضاً وتمكننا من الهرب.

وعندما باتا في الخارج وهما بالاندفاع راكضين وصل إليهما فارس وقال لهما:

- إن صاحب السمو الحاكم يدعوكما إلى العشاء الليلة. إنه في انتظاركما.

شكره رشيد وحمل ضاوية بين يديه لكن الهرّ لم يعد يفهم شيئاً مما يجري. وعندها ترکه وقرر أن يقصد قصر الحاكم، وفکر أنه حان الوقت لكشف الحقيقة وأنه إذا كان حبّ الأميرة صادقاً فسيتجاوز هذه المحنّة.

كان رشيد لا يزال يرتدي الشياطين أطيافها الحاكم بعد خروجه من البحيرة حيث كاد يغرق. واعتقد أنه ما زال قادرًا بعد على الإيهام. وكان الاستقبال بسيطًا ووديًّا. ذهب الهرّ ناحية المطابخ، ثم لم يلبث رشيد أن سأله مضيفه أن يسمح له بمكالمته على حدة، فاختللا في أحد المكاتب حيث اعترف رشيد بكل مختلطات الهرّ، ثم ختم مداخلته بهذه الكلمات:

– يا صاحب السمو، ها أنت تعرف كل شيء الآن، ولم أعد أريد أن أكذب عليك ولا أن أتظاهر بما لست عليه. لقد أغرتني بابتئنك من النظرة الأولى، وحتى لها صادق لكنني أتفهم تماماً إن أنت رفضت طلبي يدها. وأنا عاهدت النفس على العمل وعلى كسب عيشي بشرف بغية تأسيس عائلة على أساس سليمة وصالحة.

عندما أقرّ له الحاكم أنه اكتشف منذ البداية تصرفات الهرّ. وأضاف أنّ عنده عملاً يقتربه عليه، وصحيح أنه مُرهق قليلاً لكنه على الأقل سيسمح له بكسب عيشه بعرق جبينه.

و عمل رشيد على مدى أكثر من سنة في حقول ملاك قاس، وفظّ حتى. لكن مجرى حياة رشيد تغير بفعل الجهد الذي بذله يومياً لكسب عيشه. ومع أنه ظلّ مغرماً بياسمين إلا أنه لم يعد يقترب من قصر الحاكم على أمل أن يلتقيها يوماً عندما تتحسن ظروفه. لكن كتب لها رسائل جميلة من دون أن يتلقى أي رد. إلا أن هذا لم يحيطه وصمد في شخصيته الجديدة وفي رجائه.

ثم إن الملاك تعامل معه بعطف في النهاية وساعدته على الترقى إلى أن عينه رئيساً على العمال ومحاسباً للمزرعة.

أما ضاوية فراح يتسلّك في الشوارع ويتعرّض لهجمات الهررة
الأكثر شباباً والأكثر عدائياً منه. وأنهى حياته في مأوى القرية حيث
كانت سيدة إنكليزية اعتنقت الإسلام تهتمّ بالحيوانات المتشرّدة أو
التي تُساء معاملتها.

وفي أحد الأيام استدعى الحكم رشيداً وأبلغه أن ابنته ما زالت
تنتظره، فتزوجاً واقتنياً عدّة هررة.

الجنيات

لم يُعرف قط سبب وفاة حميد الحرفي، زوج خنسة الرهيبة والد جميلة وكنزة. لا مرض ولا حادث، رحل ذات صبيحة جميلة أثناء نومه. لم يُفْقِدْ، هو الذي لم يفوّت قط صلاة الفجر. ولولت زوجته عند اكتشافه حتى هرع إليها كل الجيران. جرى ذلك في قرية شاهقة معلقة في الجبل يصعب بلوغها ومشهورة بالقصص الغريبة التي تجري فيها.

كانت جميلة تشبه أمها لدرجة أن البعض لم يكن يميز بينهما. بديتها بوجه بارز للسمات ونظره قاسية، ويصدر عن كلتيهما شيء سيء لا أحد أمكنه تحديده، وبذلك لم تعود لا جيدتين ولا جميلتين. كانتا تربان الأولاد والغرباء الذين يتلقونهما. ولا هذه ولاتلك كانت على علم بمظاهرها هذا، بل بالعكس تعتقد كليتاها أنها ذات سحر لا يقاوم، وهما متيقنان دوماً من قناعاتهما.

وذلك كله يعكس ما هي عليه كنزة الصبية الحسنة اللطيفة

المحتشمة. فكنزة كانت تشبه والدها، وهي مثله ذات حسٌ فنيٌّ ومزاج حالم. تحب الناس ولا تقصر في مساعدتهم عند الحاجة. إلا أن الحياة في الجبل لم تكن سهلة، فلا وسائل راحة والطقس لا يرحم أبداً. لا شيء، شتاءً يحبس البرد والثلوج السكان في منازلهم، وصيفاً يتکفل بذلك القيظ وشح المياه.

وليس فقط أن كنزة كانت تشبه والدها جسدياً بل هي أخذت عنه طبعه الممتاز وطبيته الطبيعية وموهبيه الفنية. ولم تكن الشقيقان متباھمتين، والحقيقة أن الأم كانت تسهم في ذلك إلى أقصى حدّ، فبقدر ما كانت تحبّذ شبیهتها جميلة، كانت تسيء معاملة كنزة التي تذکرها في الكثير من النواحي بزوجها الذي لم تحبه قطّ وربما هي من سُمّنته.

وصار يقال: "المسكين توفاه الله أثناء نومه!" ولم يجرؤ أحد على الإشارة إلى أنه لم يمت ميتة طبيعية. إلا أن الشك تسرّب إلى نفس كنزة وعمّها "سي طيب" الذي لم يستطع تحمل فقدان هذا الأخ الذي أحبه كثيراً.

وعاملت الأرملة ابنتها الصغرى كأنها خادمة عندها، فكانت تفرض عليها أعمالاً مرهقة وتنظيف الأرض أو غسل الثياب أو الذهاب لملء الماء من النبع وهو على مسيرة نصف ساعة. ومن جهة أخرى تدعها تأكل وحدها في زاوية من المطبخ تاركة لها بقايا وجباتها هي وجميلة. وعانت كنزة من هذا الظلم ولم تعرف ما العمل للخلص منه.

وأين الذهاب؟ فالجبل مثل السجن، والجيران يخشون خنسة

القادرة على إفساد حياتهم القاسية أساساً، فلا يجرؤون على قول أي شيء. شاهدوا بأم أعينهم سوء المعاملة التي تتلقاها كنزة، لكن حتى عندما يشفقون عليها كانوا يفعلون ذلك سراً.

كانت خنسة قد ورثت ثروةً من والدها الذي كانشيخ القرية، وهابي حصلت مؤخراً على ثروة المرحوم زوجها. وبذلك امتلكت إمكانات ساعدتها على دعوة مجوّدي القرآن الكريم وإطعامهم جيداً لطلب منهم أن يصلوا إليها ولابنتها الحبيبة. وعندما يلتفت لها أحدthem إلى أنّ عندها ابنة أخرى تجيب: «آه، الأخرى هي ابنة أبيها!».

وفي يوم برد شديد أرسلت الأم كنزة لماء النبع، وكان الطريق موحلاً جداً، فمضت حاملة جرتين، حانية الرأس والدموع منهمرة على خديها. وفكّرت أن الله قد نسيها ولن ينتقم لها، وبدأ إيمانها بالله يتضعضع، وقد أمضّها كثيراً هذا القدر من الظلم والتعنيف.

وصلت إلى النبع ووجدت المياه مجلدة. سارت كل هذه المسافة سدىً، وهي تخشى الآن ما ستقوله أمها أو تفعله. فهي لن تصدقها ظانة أنها كذبت ولم تصل إلى النبع. وراحـت كنزة تبكي حظها.

فجأةً، وكأن هناك من ألقى معطفاً من الصوف على كتفيها، شعرت بتحسن وتلاشت أفكارها السوداوية. ولم تعد المياه مجلدة، وظهرت لها امرأة عجوز متدرّبة برداء سميك وقالـت لها:

– آه يا ابنتي البائسة، أنا هنا لكي أخلصك من عذاباتك!

– ومن أنت؟

– أولاً ناوليني لأشرب من هذا الماء النقى والطيب.

غسلـت كنزة إحدى الجرتين وملأتـها ماءً. وعندما شربـت العجوز

وضعت صرّةً معها على الأرض وقالت لكنزة:

ـ هاتي يديك لأدفههما. كنت طيبة معي! وليس فقط أنك طيبة القلب بل أنت جميلة أيضاً. سأعطيك شيئاً يغير مجرى حياتك.

ـ لكن لم تخبريني من أنت؟

ـ أنا جنّية، ليس إلا مجرّد جنية عجوز تتنقل من قرية إلى أخرى، تُصعد في الجبال وتعبر الأنهر سعياً وراء نفس صالحة لإنقاذها. تأثّرت كنزة بكلامها، كانت قد سمعت بالطبع عن الجنّيات، لكنها المرة الأولى التي تلتقي فيها إحداهنّ، ثم طرحت عليها السؤال التالي:

ـ بما أنك جنّية فلماذا لا تحسنين إلى نفسك أوّلاً؟ ثيابك بالية وحتى رداءك ليس من الصوف. أخدمي نفسك وأمني لها ما يفيدها!

ـ عزيزتي الغريبة! أنا كما أنا ولا يمكنني أن أغير وإلا خسرت قدراتي. لقد اختارني القدر لكي أكون جنية لكن من دون أن أستفيد أنا نفسي بذلك. هذا هو الوضع وأنا أكتفي بالقليل، ثم كما تعلمين لا أهمية كبيرة للأمور المادّية. وهذا لن يعني من أن أتمّ واجبي وأخلع عليك هبةً، فابتداءً من هذه اللحظة كلّ كلام تتفوهين به سيكون إما زهرة وإما حجراً كريماً. وهذا سيغوضك عن سنين الشقاء التي عشتها بسبب المعاملة الشريرة التي تلقّيتها. شريرة وظالمة. وسترين كيف أنّ أمك وأختك ستغيّران تصرّفهما معك. لن تعرفيهما وستجثوان عند قدميك.

اغرورقت عيناً كنزة بالدموع وقالت:

ـ لكنني لا أطلب هذا القدر! لا أحبّ أن أرى الناس أذلاءً محقررين

حتى وإن لم يكونوا أناساً صالحين. عندي قلب في منتهى البراءة وأرفض أن أدع الحقد أو الثأر يملأني.

واختفت الجنية كما ظهرت. ملأت كنزة جرتبيها، أحستهما خفيفتين، ومشت متقارفةً كأنها طفلة تلقت هديةً كانت تمناها، ولم تعد شاعرة لا بالبرد ولا بالتعب. كانت سعيدة وحسب. وعندما وصلت البيت استقبلتها أمها كالعادة بالصياح والشتائم:

- يا شقية، تأخرتِ، ماذا فعلت كلَّ هذا الوقت؟ أجيبي وإلا ضربتك.

وأخبرتها كنزة الطيبة القلب بما جرى عند النبع، وفيما هي تتكلّم انطلقت من فمها ورود جميلة ثم لؤلؤتان رائعتان تلتهمما حبتا الماس. وانقضت الأم على الجواهر غير عابنة بالأزهار، ونادت ابنتها الأثيرة:

- تعالى، أسرعي، أصبحت أختك مهمّة جداً! عندها الكثير من الآلئ والماس...

وفي ردّة فعل أولى سألتها جميلة:

- من أين سرقتها؟ أنت عارٌ علينا، ليس أنك حمقاء وحسب، بل أنت فوق ذلك سارقة.

وردّت كنزة بابتسامة عريضة:

- أنت سيئة، لكن أعلمي أنني لا أكن لك أي شعور سيئ. أنا أرفض بكل قواي الأذى والخبث. ولو تركت لهما مكاناً في قلبي لأنّل فاني. وعليك القيام بالمثل.

وفيما هي تتكلّم كانت الجواهر تساقط من فمها بشكل طبيعي. وسرعان ما تغيّرت نبرة الأم وصارت تتكلّم البنت التي لا تحبها

كلاماً لطيفاً عذباً، كان فيها من المكر ما يجعلها تحاول استغلال الوضع لصالحها. واستعلمت عن الجنية وعن قدراتها الشهيرة. وفي اليوم التالي أرسلت جميلة لتأتي بالماء، وقبل انطلاقها قدّمت إليها بعض النصائح:

- ظاهري بالبساطة. وإذا طلبت منك الجنية أي شيء قولي لها إنك مجرد فتاة بائسة يتيمة وأنك بحاجة إلى المساعدة. العبي دور الفتاة المهملة التي تستدر دموع المارة.

- لكن ليس لدى أي رغبة في الذهاب لنقل الماء. لماذا أجبر على ذلك؟ عندنا الحمقاء من أجل هذا!

- ظاهري فقط وهذا كل شيء، أريد أن يتسرّع الماس واللوؤ من فمك لا من فم أختك.

استاءت جميلة وراحت ترغي وتزيد صابات جام غضبها على كنزة، فبسببها وقعت عليها الآن كارثة نقل الماء. في الخارج، كان الثلج يتسرّع، ولم تعد تحس بيديها ووجهها بسبب الزمهرير القارس. وركضت على أمل أن تتدفأ. ووصلت إلى النبع مقطوعة النفس، وخاب أملها لأنها لم تجد أحداً هناك. فقالت في نفسها: "هذا مقلب آخر من تلك البلهاء". وراحت تصيح: "كنزة حمقاء! كنزة شنيعة!" وإذا بعجز ذات عينين غائرتين لامعتين تظهر لها:

- هل ناديتني؟

- كلا! ومن أنت؟

- أنا صديقة الحمقاء والشنيعة... هل عندك المزيد من الشتائم تطلقينها؟

وأدركت جميلة أنها في حضرة الجنية الشهيرة، فسارعت إلى سؤالها:

– أنت هنا لكي أسيقك، أليس كذلك؟

– أنت قلتها!

– أمي هي التي أرغمنتني على المجيء في هذا البرد القارس لنقل الماء، علمًاً أن اختي الحمقاء هي التي تُكلّف بذلك عادةً.

– يبدو أنك سيئة الطباع فعلاً أيتها الفتاة المسكينة!

– هيا! عجلني في منحي هبتك، هكذا تُسرّ أمي وتعود اختي إلى وضعها كخادمة في البيت.

– هل صحيح أنكم تطعمانها من بقايا ما تأكلان؟

– هذا كلّ ما تستحقه. إنها بلهاء ومحورة.

– وما أدركك بالجنّيات والحياة؟ ها أنت هنا تصدررين الأوامر علمًاً أنك ذات نفس شريرة. لا يمكنني أن أخدمك. وها أنت كلما تكلمتِ بصقين فأعاغي وضفادع. هذا قصاصك.

ارتعبت جميلة وقد أدركت أنها أساءت التصرف مع الجنية، وسدّت فمها بكفها كي لا تتكلم. لكن فات الأوان وما أنزل عليها بات في داخلها. وأسرعت هاربةً حتى من دون أن تملأ الجرّتين. وعندما وصلت إلى البيت راحت تلطم رأسها بالجدران، وأمهما تصرخ:

– ماذا جرى لابتي؟ هي ممتفعة، تغيرت ساحتها وصارت باهتة وعينها جاحظتان. زال جمالها، راحت به هذه الجنية الشريرة! آه يا ابتي، ماذا جرى؟ أخبرني أمك المسكينة...

- كلَّ هذا بسبب كنزة. لقد حكت كلَّ شيء للجنية، فانتقمت منا.
وفيما هي تتكلَّم سقط من فمها أفعيان وضفادع كريه إلى أقصى
حدَّ، يسيل لعابه وهو ينقي. أما الأفعيان فراحتا ترحفان في أرجاء البيت
مفتشتين عن طعام.

راحَت جميلة وأمها تصرخان مرتعبين، وأسرعوا إلى المطبخ
حيث نامَ كنزة عادةً، تریدان شتمها وتهديدها بانتقام رهيب.
لكن كانت كنزة قد ابتعدت. فما إن عادت أختها إلى المنزل
حتى انتابها حسدٌ قويٌ فقصدت الغابة وكأنَّ صوتًا ما وجه خطاهَا.
واستقبلتها هناك مجموعة من قرود الشمبانزي وهي تقوم بالألعاب
البهلوانية الشهيرة لأولاد حمادو موسى. حملوها من تحت إبطيها
وصعدوا بها إلى رأس شجرة أرز جميلة وأجلسوها على عرش أمسك
به بعض القرود بثبات. أحسَّت بالسعادة كما لو أنها في حلم أو في
رحلة في بلاد العجائب. وكانت تخرج من فمها الزهور من كلِّ
الألوان فراح أصدقاؤها الجدد يتناشونها لأنها كانت تحول فاكهةً
غريبة.

من مكانها أمكنها أن ترى منزلها وحتى أن تسمع ما يقال فيه.
وهكذا علمت أنَّ المصيبة قد حلَّت بأختها وأمها اللتين، بسبب
الحقد الذي يتأكلهما، تحولتا إلى اللون الأخضر ثم الأصفر. كانتا
تقينان كلَّ ما تأكلانه، وتلحق بهما الأفاعي أينما ذهبتا. وقد خللت
الأم بعض قطع اللحم باسم الجرذان على أمل أن تتبعها الحيات. إلا
أن السمَّ انزاح وسقط في جرة الماء، وعندما شربت منها الأم جرعةً
سقطت متيسسةً ميتة. أما جميلة فقد جُنَّت وخرجت من المنزل طالبةً

النجدَة، لكن لم يُنجدَها أحد، فهامت على وجهها في القرية ولم تعد تعرف طريق بيتهما. وهي الآن شحاذة في الشوارع ومظهرها يزداد بشاعة. وقد صعدت روحها الشريرة من جسدها واستقرت على وجهها الذي يزداد إثارةً للاشمئزاز.

ثم أن الجنية توجهت إلى كنزة بهذه الكلمات:

- انسِي هذه العائلة، وتطلّعي إلى المستقبل. سيأتي أحدهم، لا أعرف متى، سيكون رجلاً بلا ثروة كبيرة، لكنه أمير اللياقة والعدل. وإن عرض عليك الزواج فلا تتردد، سيعمرك بالسعادة.

في العشية ساعدتها قرود الشمبانزي على النزول من قمة الشجرة وأجلسوها على طبقٍ من الفضة وساروا بها إلى مخرج الغابة حيث كانت تنتظركم عربة مذهبة. ساعدتها خادم على الصعود إليها وزرع بعض الموز على القردة وسار بها في اتجاه قصرٍ صغير يقع على المقلب الآخر من الجبل، وهو في الحقيقة مزرعة في جوار بستان فاكهة. كان هذا منزل أمير شاعر غنائي جوال، شابٌ وجميل، يعيش حياةً بسيطة ويخدمه بعض المعجبين الأوفياء له. فاستقبل كنزة منشداً لها:

- أنتِ التي انتظرتها
أنتِ المولودة من نور
أو من سفر.

جمال روحك أنقذك.
وإلى هذه الروح أنا أتطلع،
أجعلها إيماني وأنتِ حارستها والنعمـة.

وجسمك الذي عانى الكثير
قد اغتسل، وها روحك تعانق روحي
لكي يسود العالم العدل المنشود.

ما نفع الماس والآلائ؟
طالما لنا نبع الماء العذب
والقلب النقي
لنعيش بلا كراهية
بلا إحراج الفقر
بلا احتقار ولا إذلال.

أمامنا عالمٌ بأكمله نعيده صنعه!
أهلًا بكِ، حبيبي كنزة
يا كنزِي الشمرين“.

تأثرت كنزة بتواضع هذا الشاب ولطافته وهو يتكلّم مثل شيخ
حكيم، فلم تعرف بما تجib. فتّشت عن كلمات، وتلقّت حولها
مكشفةً عالماً بدا أن لا عنف فيه.

أمسك بيدها وقبّلها برفق وسألها:
- إلى من يجب أن أتوجه لأطلب يدك للزواج؟
لاذت بالصمت وحدّقت فيه ثم خفضت عينيها:
- أنا يتيمة، لكن عندي عم، سي طيب، وقد حظرت أمنا علينا
رؤيتها. هو إنسان صالح، وما علينا سوى أن نفتّش عنه لنجدّه. هو
شقيق والدي وهو متأكد من أن أمي هي التي سّمّمت والدي، وأعتقد
أنّ عنده الأدلة على ذلك.

وقرر الأمير أن يُرسل أحد أتباعه للتفتيش عن سي طيب الذي كان ندّاف قطن، وهي مهنة نادرة اشتهر بها أوائل الصوفيين المسلمين الذين كانوا يغزلون القطن الذي يستعملونه في نسج الثياب البسيطة التي يرتدونها.

بعد أيام وصل سي طيب إلى القصر سعيداً بروبة ابنة أخيه مجدداً! وروي له ما جرى في العائلة، فأطلق تنهيدة عزاء وقال:

- كل من يسبّيون الأذى، رجالاً كانوا أم نساءً، لا بدّ أن تصيبهم شظاياه دوماً.

وقال الأمير ملاحظاً:

- ليس دوماً، فالعالم مليء بالأشرار الذين يخدمون الشيطان بأعمالهم وأهوائهم. وهم يتمتعون بكل الفرص التي توفرها لهم الحياة. فلا مشاعر ولا قيم، ليس إلا الجشع إلى المال واللامبالاة بمصير الفقراء.

وردّ سي طيب على ذلك:

- نعرف أن هناك أناساً يقتلون ويموتون بسبب توافق الحياة، توافق المال المُفسد.

وجرى حفل الخطوبة في يوم الجمعة بعد صلاة الظهر، من دون مهر ولا هدايا. فقط بعض الصلوات والأشعار. كانت للأمير بعض الموارد البسيطة ويعتاش بشكل خاص من خيرات المزرعة. وعند كتب الكتاب ظهرت الجنية، بحلة جميلة هذه المرأة، وأحرقت البخور مخلوطاً بالصندل والعنبر، فتضوّعت الروائح الطيبة. ثم جلست في زاوية صالة الأعياد ريشما تتمكن من مكالمة

كنزة. وعند انتهاء الاحتفال اختلت بها وقالت لها:

- يجب أن أقر لك بأمورٍ خطيرة. عليّ أن أريح ضميري.
- ما الأمر؟

- أنا المذنبة في كل ما حصل. فأنا من دفع أمك إلى أحضان الموت، وأنا رمت أختك في الشوارع وجعلتها مجنونة بائسة. لكن مذاك فقدت قوتي الخارقة وعدت امرأة عادية كسائر النساء. وأنا أتنقل من منزل إلى آخر عارضة خدماتي في الطهي أو تدبير المنزل. وأتمنى عليك أن تتوسطي لدى زوجك لكي يوظفني في خدمتك. ولا تحكمي عليّ من مظهري، لست عجوزاً بقدر ما تظنين، فأنا أتمتع بصحة جيدة ويمكن أن أكون نافعة حتى وإن فقدت قوتي. ذهلت كنزة، فكيف لجنية أن تفقد قوتها الخارقة؟ كيف ست COMMAND في الحياة؟ وكلمت الأمير في الأمر فصارحها بأنه لا يثق بالجينيات لكنه يعترف بأن تلاقيهما كان بفضل هذه الجنية.

- سبقيها في كفنا.

وأطلقت على نفسها اسم "وردة" وكانت لها معرفة بعلم النبات وتتقن تحضير خليط من النباتات يشفي من القلق والخوف. ولأن كنزة لم تُشفِّ كلياً من ماضيها فقد كان وجهها يتوجه عندما تعاودها الذكريات السيئة وتسبّب لها الكوايس. كلّم الجنية السابقة في الموضوع فتصحته بأخذ زوجته إلى مكانٍ ما لتنقية ذاكرتها. فوجئ الأمير واستوضحها الأمر، عندها قالت له وردة وقد غمرتها السعادة:
- نحن نمضي حياتنا في تكديس الذكريات، الجيدة منها والسيئة.
ونحن لا نتحكم بها، هي تسكننا وتبهر من حيث لا ندري وليس

في وسعنا أن نفعل شيئاً. تكفي رائحة ما، عطر ما، صورة تمر سريعاً في خاطرنا لكي تتراقص بعض الذكريات أمامنا. أعرف مكاناً، هو كنایة عن مزار، ضريح ولّي صوفي، حيث بالإمكان، ب فعل التركيز الشديد وقوّة الإرادة، التخلص من الذكريات السيئة، علمًا أنها في الحقيقة لا تزول كلياً بل تتغلغل في ذاكرة أشخاص آخرين. ويزعم البعض أنها تُباع، وآخرون أنها تخزن في عَنبر حيث ينتهي بها الأمر إلى الانطفاء والتحول غباراً هباء.

تأثر الأمير بحديثها وأذن لوردة أن تقوم بالتجربة مع زوجته الشابة.

وفي صبيحة أحد الأيام غادرتا في عربة إلى وجهة مجهولة. وبعد سفر يوم وصلت وردة وكنزة إلى قرية تدعى "دار النسيان"، ووجدتا حول المزار نساءً من كل الأعمار ينتظرن. وكان هناك رجل أسود يدعى بلال منهمل بالعمل، متنقلًا بالكلام من واحد إلى آخر. وهو الذي يتولى إدخال النساء إلى قلب الضريح.

دست وردة ورقة نقدية في جيده وهمست بشيءٍ ما في أذنه. أjfل بلال وترابع قليلاً إلى الوراء ليحنّي كأنه في حضرة شخصية مرموقة جداً، ثم قال لهما:

- اتبعاني!

اقربت المرأةان من القبر والتمسـتا الأقمشـة السودـاء المطـرزة بكـتابـات بـخيـوط الـذهبـ، ثـم انـعزـلتـا فـي غـرـفـة مـعـتمـة حيث تـجـري عمـلـية تـطـهـير الـذاـكـرـةـ. ولـهـذـهـ الغـاـيـةـ أـحـرـقـتـ وـرـدـةـ بـخـورـاـ خـاصـاـ تـصـدـرـ مـنـهـ رـائـحـةـ خـانـقـةـ، فـرـاحـتـ كـنـزـةـ تـسـعـلـ بـكـلـ قـوـةـ وـتـفـّـ منـ فـمـهـا

بلغماً أخضر وأصفر وبيضاوياً. وكلما تفت كلما أحست بتحسن. وكانت وردة تساعدها بضربات خفيفة على ظهرها حاضنة إياها على الاستمرار:

- تابعي، اسعلي، استخرجي ما هو سئ فيك وتخلصي من كل ما يضغط عليك، هيّا، لا تخافي شيئاً، انتهينا، شدّي أكثر بعد... بعد حوالي ساعة كان السعال قد أنهك كنزة فألقت رأسها على كتف وردة وتناءبت. وجاء بلال ونظف الأرض بمساحيق فعالة جداً لكنه استغرب صعوبة التخلص من المواد التي تفتتها، فقال:

- الشابة المسكينة كانت ممتهنة بالكثير من الذكريات السيئة، وقد قامت بعملية التطهير الكبيرة هذه في الوقت المناسب. نامتا في المزار. أحضر لهما بلال فطائر بالعسل للعشاء ثم اختفى. في اليوم التالي عادتا إلى القصر، وفي الطريق لم تتكلّم كنزة أبداً. كانت مرهقة بما واجهته. وتطلب الأمر بضعة أيام لمعرفة ما إذا كانت ذاكرتها قد تطهّرت فعلاً.

وبالفعل تبيّن أن ذكرياتها السيئة تلاشت كلها تقرّياً وأنها نسيت كل شيء عن طفولتها وفاعتها، وباتت الآن حياتها تبدأ من عند النبع، مساء التقائهما بالجنيّة التي أعطتها لشرب.

لا هي ولا وردة ذكرتا شيئاً عن زيارة الضريح. وباتت الحياة بسيطة وجميلة، وعمر الحبّ العريسين الشابين. وإذا ما فكرت كنزة بأمها وشقيقتها، كانتا تراءيان لها في جنينة وهمما تحضران لها باقة زهر. تبدوان لها باسمتين جميلتين ولطيفتين، ولا يحوم حولهما أي ظلّ. غمرت السعادة كنزة وقد اتّخذت حياتها منحىً جديداً، فهي

الآن حبلى، وقد نظم الأمير عدّة قصائد بالمناسبة، ثم ولدت توأمين، فتاتين رائعتي الجمال.

وأحبّ الزوجان كلتا الفتاتين بالقوة نفسها، بالقدر نفسه، وجعلهما شخصيتين رائعتين طبعنا عصرهما بإنسانيتهما وحكمتهمـا. وما إن بلغنا سنّ الرشد حتى اعتبرت وردة أنّ مهمتها قد تمتـ، فاختفت صبيحة أحد الأيام ولم يرها من بعدها أحدـ.

وقد تبيّن أنها كذبتـ، وأنّها ظلّت تتمتّع بقدراتهاـ، لكنـها وظفتها لبلسمة جراحـات كنزة نهائـاً بغية جعلـها تعيش السعادة والهناء طوال أيام حياتـهاـ.

سندريلا

كان ما كان في قديم الزمان رجل فاضل وثري ومرح، غادرت زوجته منزله في إحدى الليالي ولم تعد قط. كانت قد خرجت لزيارة والدتها المريضة واختفى أثراها. وبعد أشهر من البحث بَّت السلطات في موت المرأة الشابة وسلمت الزوج وثيقة بوفاتها وذلك بعد أن اكتشف أحد عمالها جثة متحللة في الغابة المجاورة للمدينة.

كانت ابنتهما سكينة قد بلغت الخامسة من عمرها، فغرقت في حالة من الحزن وقلَّ كلامها، وإذا ما سُألت عن والدتها يُقال لها إنها صعدت إلى السماء، فتروح تسليق سلماً قائلة إنها ستلحق بها، وتستسلم للبكاء فلا يعرف والدها كيف يواسيها.

أثار اختفاء تلك المرأة ببللة كبيرة في تلك النواحي، فبدا بعضهم متأكداً من لحقها بعشيق غريب، فيما زعم آخرون أن ساحرة ابتزَّتها إذ وعدتها بجعلها تنجُّب ولداً ذكرًا. تخيل الناس شتى أنواع القصص لكنَّ الحقيقة لم يعرفها أحد. وأصيب الرجل بالإحباط فأهمل أشغاله

وغمّرته كآبة أثبّطت عزيمته، إلى أنْ اقتربت عليه يوماً سكينة، الحادة الذكاء، أن يتزوج مرّة ثانية.

ـ ماذ؟ وهل أنسى والدتك، أكثر النساء لطافةً ونبلًا؟ كلا يا ابنتي فأنّا أفكّر فيها كلَّ الوقت.

فأجابته سكينة كشخّص راشد:

ـ يا أبي، الحياة تستمرُّ، وأنا واثقة من أنك ستوفّق بزوجة تتممّع بهذه الصفات. ما رأيك في جارتنا؟ هي أرملة ولا من يسلّها. ولها ابتنان فاتنتان. معاً ستغلّبان حتماً على الحزن، وأنا أحظى بعائلة جديدة ويصبح لي شقيقات، ومن يدرّي ربما هي أنجحُ لك صبياً. ذهل الرجل لحكمة ابنته وبعد نظرها، ووافق على إرسال من يطلب يد الأرملة الجميلة والشابة. رفضت في البداية على أساس أنها تستحقّ عريساً أفضل، لكن بالتأكيد هي لم تصرّح بذلك وقد تقبّلت باقة الزهر التي أرسلها لها، لكنّها طلبت مهلاً لتفكير ولبحث الأمر مع ابنتيها على حد قولها. ثمّ وافقت في الشهر التالي، وتم الاحتفال بالزواج سراً.

ما إن انتقلت ابنتا خالتها زوجة أبيها، كنزة ووردة، للعيش معهم في المنزل حتى أحست سكينة أن الأمور ستتعقد بالنسبة إليها. ذلك أن والدتهما فاطمة، أقنعتهما بأن سكينة الصغيرة هي هنا في خدمتهما. وممّا قالت:

ـ أنتما بجمالكم ونسبكم تتفوقان كثيراً على هذه الفتاة الصغيرة التي اختفت والدتها في ظروفٍ مشبوهة، ولكلِّ مقامه وموقعه. وما كانت بحاجة لتلقينهما الدرس، فهما من الخامنة نفسها. وفي

نظراتهما إلى الناس ما ينمّ تماماً عن تشوّفهم، كأنّهما ولدتا لخداماً
وفي الوقت نفسه لإذلال الآخرين.

ولم تلبث فاطمة أن فرضت نظامها، فمنعت سكينة من تناول
الطعام إلى المائدة نفسها مع ابنتيها ومن ارتداء ملابس أجمل من
ملابسهما. أرادتها خادمةً تُعامل بدونيَّة.

رضخت سكينة ولم تنبس بكلمة. وجدت والدها خاضعاً لسيطرة
زوجته الجديدة، وعند التقاء ناظريهما كان يخفض عينيه كمن يرید
الاعتذار والقول: "ليس بيدي حيلة، إنها أقوى منا نحن الاثنين
معًا". آلم سكينة ضعف والدها لكنها تحملت بالصبر واثقةً من أن
العدالة ستتحقق يوماً ما. لذا كانت تنصاع لأوامر النساء الثلاث،
وعندما تنتهي من الأعمال المنزلية تنسحب منعزلةً في غرفتها حيث
كانت تحب الجلوس بالقرب من المدفأة ووضع رجلها في الرماد
المنظف. وفي أحد الأيام مررت كنزة بالمكان، وهي أشدّ البتين شرّاً،
فقالت لها:

– من الآن وصاعداً سندعوك سندريلا.

وانفجرت صاحكةً وغادرت بعد أن وجهت ركلةً إلى سكينة.

ولم تلبث وردة أن زايدت عليها:

– سندعوها ساندري، إنه اسم أكثر ابتدالاً من سندريلا.

لم تعلق الأم على الأمر، وحاول الوالد الاعتراض لكن بلا كبير

حماس:

– والدتها هي التي أصرّت على منحها اسم خالتها الحبيبة، بالنسبة
إليّ هي سكينة وستبقى دوماً سكينة.

وردّت فاطمة:

– ونحن نزدرى هذا الاسم. والآن عليك أنت أن تعطيني المال لأنّمك من استلام الفساتين التي أوصيت الخياط عليها لارتدائها في حفلة الأمير الراقصة.

فتح الأب صندوقه ماله وعرض عليها أن تأخذ ما تشاء. وبيدو من الواضح أن المرأة عموماً، في هذا البلد الشرقي، وبعكس ما تقول الخرافات، هي التي كانت ذات شخصية قوية وتساير على الرجل. طبعاً لم تتمتع بحقوق متساوية مع الرجل، لكن في المنزل كانت هي السيدة وكانت تستغل سلطتها المنزلية. أخذت فاطمة كلّ ما في العلبة من نقود، علمًا أنها لم تكن بحاجة للكلّ هذا المال، لكنها من باب الاحتياط خبات قسمًا منه في خزانتها. ولم يستغرب الزوج تصرفها، كان يعرف أنه يتعامل مع امرأة لا ت肯 له الكثير من المودة وأنها عقدت معه "زواج مصلحة" على حد قولها هي نفسها.

تقام حفلة الأمير الراقصة في أول أيام الربيع وهو احتفال منتظره المدينة أكثر من غيره. وفيها يتلاقى الشباب وتنشأ أحياناً علاقات تقضي إلى الزواج. وقد أطلق على هذا الحفل اسم "موسم الخطبة". لكن لا كنزه ولا وردة وفقت إلى عريس ما جعل أمهمما تشعر بأسى كبير، فأوعزت إليهما بحزم:

– تقرّبا من أكبر عدد ممكن من الشباب، إنها فرصتكم الأخيرة لايجاد عريس. لكن إياكم والإتيان بشاعر أو منشد جوال أو حرفّي ! فليكن غنياً!

amp; ماضتا النهار تحضران. قصدتا أولاً الحمام حيث نتفّتا الشعر

عن جسمهما على يد مدلّكة سوداء. فلطالما نبهتهما والدتهما:
”تخلّصا من الوبر على الأخصّ، فقط الفتيات الفقيرات يتربّن الوبر
عليهنّ، وهذه قلة نظافة!”. ثمّ حضر المزین إلى المنزل واستغرق وقتاً
طويلاً كي ينجز لكتلتهما تصفيفة شعر مميّزة استثنائية، ولتجميلهما
بمساحيق مستوردة من فرنسا. وفيما هما تستعدان طلبتا من سكينة
إعداد الشاي والبسكويت، ثمّ قالتا لها من باب التنكيد:

– سندري، ألا تريدين أنت أيضاً الذهاب إلى الحفل. من يدرّي؟
قد يقع الأمير في غرامك فتصبحين أميرة، ولا حفّاً ملكة!
– سندري، لا تنسي تمرير رجليك بالرماد، يبدو أن ذلك يجعل
الحظّ!

– أنتما تسخران منّي. ليس هذا لطيفاً منكم!
– إذن اجلبي لنا عصير الفاكهة، فنحن بحاجة إلى مزيد من
الطاقة لكي نرقص ونفتّن أجمل شباب المدينة. وإن أردتِ، يمكنكنا
اختيار عريس لك من بين الخدم. لا بأس بهم متى اغتسلوا وانصاعوا
مطأطي الرؤوس.

أسرعت سكينة لتحضير العصير، وبكت بصمت فسقطت بضع
دمعات منها في كوب عصير ليمون. ضحكت لذلك وتوقفت
عن التذمّر من سوء حظّها، ووصلت عندهما مبتهجةً وعلى يديها
صينية مزينة جيّداً. لا شكرأ ولا كلمة لطيفة منهمما، فتاتان عديمتا
التهذيب، فظتان وسوقيتان. تأمّلتهما وفكّرت في أنها لا تودّ أن تكون
في وضعهما.

بعد مغادرتهما إلى قصر الملك باتت سكينة وحدها ولبست جالسةً

قرب المدفأة. كانت حزينة وراحت تفكّر بأمها. وفجأةً خُيّل إليها أنها تراها أمامها. فركت عينيها وتأكّدت فعلاً من وجود امرأة أمامها، لكنها لم تكن أمها، فسألتها سكينة:

– من أنتِ؟ لستِ أمي؟ لا يُعقل، أنتِ عجوز جداً، وأنا لا أعرفك...

– بلى تعرفيتني، لكنك نسيتني. أنا لالا عايشه، عرّابتكم. ما إن عرفت أنك حزينة حتى هرعت إليكوها أنا. ماذا، أتريدن الذهاب إلى الحفل؟ حسناً، ستدھبین وترين، سيكون الأمر رائعاً.

– كيف ذلك؟ ليس عندي فستان، وأنا بشعة فلا يمكنني الذهاب بهذه الهيئة.

– كفّي عن التذمّر وثقبي وأسرعي واجلبي لي يقطينة. أطاعت سكينة وهي تسأله ما الحاجة إلى يقطينة. ولم يكن العثور على واحدة بالأمر السهل. لكن البستانى العجوز حلّ في النهاية مشكلتها إذ كان يحفظ بواحدة في المخزن:

– إنها ثقيلة جداً عليك، دعيني أساعدك. من يريدها؟ أهي خالتك صاحبة الأفكار الغريبة؟ هي شريرة مع الجميع. تعاملني كما لو كنت عباداً لها. فمنذ أيام مثلاً استدعتني وأمرتني بأن أحضر فوراً بعض الباذنجان من البستان، ولم يكن الباذنجان قد نضج بعد. وعندما رأته صغيراً جداً وأحضر راحت تصرخ وطردتني بعد أن أشبعته شتماً. لا ريب أن والدك المسكين يعاني كثيراً من تلك الفاجرة.

وضع البستانى اليقطينة الكبيرة في عربة صغيرة ونقلها إلى منزل سكينة. وعندما رأى لالا عايشه عرفها فوراً فحياتها قائلًا:

– لقد عدت! إن كنت لا تزالين تحتفظين بقدر اتك ساعدينا على
التخلص من هذه المرأة الشريرة...
– انتظر تَرَ!

راحت سكينة ترافق لالا عايشه محاولةً اكتشاف ما تنوي فعله،
وعندما رأت طرف عصاً فضية خارجاً من جيبها. قالت في نفسها:
”هذه جنية! كيف ذلك، لكن في هذه الأيام لم يعد هناك جنّيات؟“.
نقلت لالا اليقطينة إلى الباحة وبصرية من عصاها السحرية حولتها
عربةً في غضون ثوانٍ. فركت سكينة عينيها عدة مرات وانفجرت
صاحكةً ثم هتفت:

– ياي! هذا مذهل! كيف فعلت ذلك؟

– لا تطرحي أسئلة واجلبني لي... أو بالأحرى قوللي لي أين يمكنني
إيجاد مصيدة فieran؟ عندكم حتماً فieran في العلية أو في المخزن...
رافقتها سكينة إلى قلب الجُنينة حيث نصب بعض المصليات.
فككتها الجنية ووضعتها في كيس خيش مبلل بالزيت، ثم وضعت
الكيس أمام فتحة يفترض أن تؤدي إلى الجحر حيث تعيش الفieran.
التقطت ستّ منها وأحکمت ربط الكيس عليهنّ. ظلت بحاجة إلى
جرذ، فدلّها البستانى على فتحة ضخمة في الحائط، فكررت العملية
وبات معها جرذ في كيس آخر. عندما عادتا قرب العربة. وجهت لالا
عايشه ثلاثة ضربات بعصاها إلى كلا الكيسين، فلم يحدث شيء،
فطلبت منها سكينة الابتعاد:

– أنت لا تؤمنين بالسحر، أليس كذلك?
– بلـى، قليلاً...

- إذن عودي إلى المنزل واستحمي. تبرّجي وانتظريني.

تناولت العصا السحرية من جيبها ووجهت ضربةً خاطفةً إلى كلا الكيسين، وفي لحظة ظهر ستة أحسنـة وحوذٌ بدين ذو شاربين كثيفـين، ثم نادـت الذي كان يتـابـع ما يـجـري مـذـهـولاً:

- أحـتـاج سـتـ عـظـاـيـاتـ.

- ليس الطقس حاراً للتـخـرـجـ العـظـاـيـاتـ لكنـيـ أـعـرـفـ أـيـنـ تـخـبـئـ.ـ
ـعـظـاـيـاتـ الصـيفـ المـنـصـرـ كـانـتـ عـاشـقـةـ،ـ وـتـعـرـفـ أـسـرـارـ كـلـ النـاسـ.
ـكـانـتـ غـرـيـةـ وـكـسـوـلـةـ وـغـيرـ قـابـلـةـ لـلـتـدـجـيـنـ.ـ وـقـدـ أـوـقـعـتـ أـضـرـارـاـ لـاـ
ـبـأـسـ بـهـاـ.

ـوـمـعـ تـحـوـيلـ العـظـاـيـاتـ غـلـمـانـاـ خـدـمـاـ بـاتـ كـلـ شـيـءـ جـاهـزـاـ الـمـواـكـبـةـ
ـسـكـيـنـةـ إـلـىـ القـصـرـ الـمـلـكـيـ.ـ اـرـتـدـتـ ثـوـبـاـ يـلـائـمـهـاـ جـيدـاـ مـنـ أـثـوـابـ أـمـهـاـ
ـوـتـكـفـلـتـ لـالـأـعـاـيـشـ بـتـصـفـيـفـ شـعـرـهـاـ وـتـبـرـيـجـهـاـ،ـ فـبـدـتـ فـيـ مـنـتـهـىـ
ـالـجـمـالـ وـالـبـهـاءـ.

- سـتـذـهـيـنـ إـلـىـ حـفـلـ الـأـمـيرـ،ـ وـتـدـخـلـيـنـ دـخـوـلـاـ لـافـتاـ.ـ لـاـ
ـتـخـجـلـيـ لـكـنـ أـظـهـرـيـ بـعـضـ التـحـفـظـ.ـ لـاـ تـكـلـمـيـ كـثـيرـاـ،ـ وـالـأـهـمـ لـاـ
ـتـقـولـيـ شـيـئـاـ عـمـاـ رـأـيـتـ.ـ سـتـمضـيـ وـقـتاـ مـمـتـعـاـ وـسـيـجـثـوـ الشـبـابـ عـنـدـ
ـقـدـمـيـكـ.ـ اـرـهـيـ بـنـفـسـكـ وـلـاـ تـطـأـطـيـ رـأـسـكـ.ـ أـنـتـ أـمـيـرـةـ حـقـيقـيـةـ بـكـامـلـ
ـحـسـنـهـاـ.ـ لـكـنـ اـحـفـظـيـ جـيدـاـ مـاـ أـقـولـهـ لـكـ:ـ يـجـبـ أـنـ تـعـودـيـ حـكـمـاـ قـبـلـ
ـمـنـصـفـ الـلـيـلـ.ـ أـكـرـرـ:ـ قـبـلـ مـنـصـفـ الـلـيـلـ.ـ لـاـ تـسـأـلـيـ لـمـاـذـاـ،ـ فـيـ مـطـلـقـ
ـالـأـحـوـالـ يـجـبـ مـغـادـرـةـ الـقـصـرـ قـبـلـ مـنـصـفـ الـلـيـلـ.

ـقـبـلـ سـكـيـنـةـ يـدـ الـجـنـيـةـ وـاعـدـاـ بـطـاعـتـهـاـ،ـ ثـمـ جـلـسـتـ مـكـانـهـاـ فـيـ
ـالـعـرـبـةـ الـمـتـلـائـةـ بـزـيـنـتـهـاـ.

عند وصولها إلى القصر يُبلغُ الأمير :

- صاحب السمو، وصلت للتو إحدى الولايات.
رَحِبَ بها الأمير لاثماً يدها. وعندما نظر إليها صُعقَ بكلّ هذا
البهاء والجمال! وقالت له سكينة:

- مولاي، أنا سكينة، جارتك. رافقني للرقص!
أخذها الأمير من ذراعها ودخل دخولاً مؤثراً. توقف الموسيقيون
عن العزف وسارعت النساء لرؤية فتاة الأحلام هذه عن كثب.
واقربت كنزة ووردة بدورهما وانحنت أمامها. طبعاً لم تعرّفها على أنها
وسألتها من أي مملكة أَنْتِ، ولم تجبهما سكينة.
لم تفارق ذراعي الأمير الذي راقصها طول السهرة، فيما شقيقاتها
تبكيان في إحدى الزوايا. وأثناء الرقص كانت تسأل دوماً عن الوقت.

- انسى الوقت. ارقصي واضحكى وامرحى!
- أنا سعيدة، لكنني وعدت والدي بالعوده في ساعة محددة، وأنا
أحب أن أفي بوعودي.

وقبل ربع ساعة من حلول منتصف الليل استأذنت الأمير وركبت
العربة عائدة إلى المنزل حيث كانت تنتظرها لا لا عايشة. وقد سرّ
رحيلاها النساء خصوصاً إذ تخلّصن أخيراً من تلك المنافسة الصعبة.
صبيحة اليوم التالي، عادت كنزة ووردة إلى التهكم بها:

- آه يا سندي! لو حضرت الحفلة لأعياك الضجر! لم يكن هنالك
سوى صبايا جميلات وثريات، خلقن ليصبحن أميرات. لكن الأمير
لم يُعِرِّ اهتماماً إلا لتلك الغريبة، هي أميرة قادمة من بلاد يصعب لفظ
اسمها. الحقيقة أنها جميلة وقد غطّت علينا جميعاً، فكيف لو كنتِ

هناك، لسحقتك! يجب منع الغرباء من دخول بلدنا. فلو راحت كلّ
الأميرات الغربيات يحضرن حفل أميرنا، لن تبقى لنا أيّ فرصة لإغراء
هذا الرجل الفائق الحسن والجاذبية!

لم تعلق سكينة على الأمر، وراحت تضحك في عبّها شاكرةً
الجنية. ثم استدعاها والدها ليطلعها على مشروع حضره لها ليبعدها
عن هذا المنزل حيث تُسأله معمالتها:

- تعرفين نسييك الذي فقد زوجته في حادث، حسناً، هو طلب
يده مني. لديه ثروة لا بأس بها وأنا متأكّد من أنه سيحسن معاملتك.
عنه ثلاثة أولاد، وهو لا يزال شاباً مُعافي. فما رأيك؟

فأجابته سكينة بصوت خافت:

- أبي، أنا سأتزوج بأمير!

قهقهة الوالد وقال بدوره:

- نعم، بالطبع يا ابنتي، زوجك سيكون أميراً...

- أبي، أنا جادة في ما أقول. أتنبي رسالة واضحة من الشمس
والقمر: قريباً أصير أميرة. ويجب ألاّ أعارض حكم السماء وإلاّ
استجلبت المشاكل لمنفسي.

وانسحبت فوراً بعد أن شكرت والدها طبعاً على عرضه النبيل.
بعد خمسة عشر يوماً نظم الأمير حفلة ثانية. ظهرت لالا عايشة
مجددًا وأمرت سكينة بالاستعداد.

- هذه المرة، يا ابنتي، ستكونين أكثر تألقاً، ويفقى الشرط نفسه
حكماً: عليك العودة قبل منتصف الليل.

واستوضحتها سكينة عن السبب، فأجابتها:

- بعد متصف الليل أفقد قوای السحرية وأعود امرأة عادية، امرأة هرمة كغيري متهالكة وبلا أسنان. لا أريد أن تقعني ضحية ذلك، لذا لا تنسى. وليس أنني أفقد قوای بل أصبح شريرة لأنني لا أحب وضعی هذا.

انتظر الأمير سکينة، هو الذي لم يكف عن التفكير فيها، ممنيًّا النفس بأن ييدي لها، أكثر من المرّة الماضية، المزيد من الاهتمام واللباقة والود. أمّا سائر الصبايا فانتابهن القلق ورحن يتهمسن فيما بينهنّ:

- هل ستأتي مرّة ثانية؟

- كان يفترض بنا أن ننصب لها فخًا لمنعها من الحضور وإفساد احتفالنا مرّة أخرى.

- نعم، لكن كيف؟ نحن لا نعرف حتى من أين تأتي. أميرة من بلاد غريبة! ما هي تلك البلاد؟ قد لا يكون الأمر حقيقةً إلى الدرجة التي يبدو عليها...

ومرّة أخرى دخلت سکينة القصر. وفي متصف السهرة تماماً باح لها الأمير بحبه، فتأثرت جدًا وارتمت بين ذراعيه ناسيًّا العالم والوقت. وفجأةً سمعت الدقة الأولى من ساعة الجدار معلنةً متصف الليل! فاندفعت على عجل نحو المخرج من دون أن يتتسنّى لها الوقت للاستئذان، وفي طريقها وقعت من قدمها فردة حذائها اليمني، كان حداءً بلوبياً. وانتبهت سکينة لذلك بعد أن جلست في العربية، لكنها لم تفكّر حتى في العودة لاستعادتها، لقد فات الأوان.

لمَّا الأمير الحداء الثمين ودسه في جيبيه. ها هو مُغرِّم، وهذا ما

لاحظته كل الصبايا الموجودات. ومن تلك اللحظة غرق الأمير في حالة حنين محببة، يداعب الحذاء في انتظار أن يأتي من يطالب به. وعبّاً أو عز إلى مستشاريه العثور على عنوان تلك الصبية، إذ تبيّن أن لا أحد يعرفها. عندها استدعي إلى القصر الساحرة العجوز، العرافة البارعة إذا ما كانت في مزاج جيد. لكنها في ذلك اليوم كانت في مزاج سيء جداً، فجعلت ترغّي وتزبد، وتبصق أرضاً وتشتم الخدم.

وعندما رأت الأمير أمامها قالت له وهي تضحك ساخرةً:

- يبدو أنك بحاجة إلى خدماتي؟ أتريد سماً أم مسحوق نخاع

الطبع؟ قل لي، ممن تريد التخلص؟

وسدّ الأمير أنفه إذ كانت تبعث منها رائحة كريهة، وقال:

- كلا، لا أريد التخلص من أحد. أو تحسيني قاتلاً؟

تدّرك أنها تستطيب أكل رأس الخروف المطبوخ على البخار، فطلب أن يقدموا لها رأسين دسمين، وعاد لرؤيتها في موعد احتساء الشاي. كانت قد هدأت حتى ليقال إنها لطيفة وخدوم. وأراها الأمير الحذاء وسألها:

- أيمكنك أن تقولي لي من صاحبة هذا الحذاء؟

وضعت نظارتها، تفحّصته ثم قالت:

- لا أحذر لمن. إنه لقدم صغيرة جداً، صبية من طبقة رفيعة. لكن أقترح عليك أن تستدعي جميع صبايا المدينة الشابات والجميلات وأن تطلب منها تجربة الحذاء. إنها الوسيلة الوحيدة للعثور على الحسناء التي كانت تلبسه.

وانتشر البلاغ في كل أرجاء المدينة. ومع فجر اليوم التالي امتدّ

أمام القصر صُفٌّ من حوالى مائة فتاة. لكن الحراس الذين لم يُلْغوا بالأمر حاولوا طردهن. لكنهن أصرّين على البقاء ورحن يهتفن: ”عاش الأمير!“. قربة الظهر فتحت أمامهن الأبواب، فرحن يتدافعن، ثم أعاد أحد مستشاري الأمير النظام بعد هذه الفوضى الكبيرة وأدخلهن بصمت وهدوء الواحدة تلو الأخرى.

أمسك المستشار بالحذاء البَلْوَري للقدم اليمنى، وراح يحاول إلابسه للقدم التي تُمَدَّ له، وفي كلّ مرّة يهزّ رأسه نافياً، ولم تؤخذ أي صبيّة. وبالطبع تقدّمت كنزة ووردة للتجريب لكن من دون جدوى وعادتاً أدرجاً جهماً في حالة من الاستياء الشديد. وفي طريق العودة التقتا سكينة، فسألتها:

– أين تذهبين؟

– لأجَرَّبِ حَظّيَّ، ييدُو أنَّ أميرًا يبحث عن صبيّة ذات قدمين نحيفتين، وأنا قدماي نحيفتان جدًا...

– يا للواقحة! أنت عارٌ علينا! عودي فوراً إلى المنزل!
ابتسمت سكينة وحدّقت فيهما، ثم قالت لهما بنبرة هادئة:
– أنا لست خادمتكم، وأ فعل ما أشاء، وفي حال اختيارني الأمير ساعيّنكم في منصب مهمّ في حاشيتي.

انفجرت الشقيقات بالضحك عند سماعهما ذلك، وأرادت كنزة ضرب سكينة، لكن وردة منعها من ذلك.
– تعالى، دعيها، إنها فتاة بائسة، ليست لديها أية فرصة، هي تتوكّه. لا يُعقل كم أنّ الفقراء مغوروون!
ثم التفتت إلى سكينة قائلةً لها:

- هيا اذهب بي، اذهب بي واجعلي نفسك أضحوكة! نلتقي لاحقاً في المنزل، وسترين أية مفاجأة نحضر لك!

كانت روح لا لا عايشه ترافق سكينة في سيرها، فأحسست في نفسها قوّةً وعزماً على تجربة حظها هي أيضاً، لكن ليس من دون أن يراودها شيءٌ من الريبة، إذ إن ذكرى الليلتين زارت فيهما القصر لم تكن واضحة في ذهنها. أيعقل أن تكون قد حلمت بذلك؟ وصلت أمام القصر، كانت الأبواب مغلقة، وما زالت هناك بعض الفتيات ي يكن في إحدى الروايات. فتوجهت إلى أحد الحرّاس بالقول:

- أنا هنا لأجري تجربة الحذاء.

- تأخرت يا صغيرتي. عودي إلى بيتك.

وصادف أن خرج المستشار من القصر في تلك اللحظة، وعندما شاهد سكينة تهياً له أنه رآها من قبل، فأمسك بيدها واقتادها إلى الأمير المغتَم لعدم عنوره على تلك اللوؤة النادرة. وبمحرّد أن رآها لم يساوره أدنى شكّ:

- هاتي قدمك اليمنى.

ولبسَت القدم الحذاء بأتم وجه. فسألتها:

- ما اسمك؟

- سكينة يا صاحب السمو.

- هل كنت في الحفلة تلك الليلة؟

- نعم، لكن ليس في الواقع على الأرجح بل في الحلم. يبدو أنني حلمت طوال الليل بهذا القصر وبالحفلة الراقصة، حتى أنني حلمت أنني أضعت فردة حذائي. لكن في الحقيقة يبدو أنني كنت نائمة في

كوحى مرتعدةً من البرد لأن الحطب نفد من المدفأة.
وما إن همت بالنهوض والانسحاب حتى أحسست ضربة عصا
خفيفة على رأسها وسمعت الجنية تقول لها:
- دورك الآن في المبادرة. ابقي على طبيعتك وسترين كيف
يتحلى جمالك.
إذاً عرفها الأمير وقال لها:

- لا أنسى أبداً ابتسامتك. ها أنت أخيراً! فجأةً بداعي هذا الجمال
وهذه العذوبة مألهوفين عندي. أود أن أرى أهلك في أقرب وقت
ممكن.

واغرورقت عينا سكينة بالدموع:
- والدتي متوفاة، والدلي سيأتي لمقابلتكم متى شئتم. هو رجل
طيب وفي غاية اللطف، لكن...
وتحتها الأمير على متابعة الكلام قائلاً:
- لا داعي لأن تخافي. قولي لي ما الذي يجعلك حزينة إلى هذا
الحد.

كفكفت سكينة دموعها وقررت الاكتفاء بهذا القدر. حملت بيدها
حذاءها وهمت باستئذان الأمير عندما تلقت ضربة عصا أخرى على
رأسها، فإذا هي متذكرة بثوبٍ من نور، فدارت على نفسها وانحنت
محيةً ذاك الذي حمل بيده مجدداً الحذاء البلوري، ولاحظ أنها
تنتعل الحذاء نفسه في قدمها اليسرى، فمدّت له اليمنى، فإذا الكلّ
في تناصٍ تام. وأوزع الأمير إلى مستشاره بإحضار والد سكينة.
فيغضون ذلك، أحسست سكينة أنها دُعيت إلى التنزه في م tahات

الحديقة، وحدست بأنّ لالا عايشه تنتظرها هناك. كان عليها العبور من رواق الى آخر، ومعرفة طريقها، وقد نجحت في ذلك بتتبعها رائحة عطر خاص نشرتها الجنية من مبخرة. وفي لحظة ما اضطرت إلى التوقف إذ شعرت أن كلّ شيء حولها يدور. أصابها دوار وخُيل إليها أنها انتقلت إلى عالم آخر يشبه ذاك الذي رأته في الحلم. وكانت تتساءل عن كيفية الخروج من هذه الحديقة ذات الممرات المتسلبة عندما اقترب منها رجلٌ عجوز، أعمى وأنيق، ومدّ لها يده قائلاً:

- اتبعيني يا آنسة.

لم تجرؤ على مخالفته ولا على سؤاله كيف سيتمكن من ذلك وهو كفيف. لكنه قال لها:

- أنا أعمى لكنني قرأت جميع الكتب. في الحقيقة وقعت في تلك المتابهة وأنا أقرأ كتاب ألف ليلة وليلة. وربما هذا ما ذهب ببصري شيئاً فشيئاً. منذ ذلك الحين وأنا أدور على نفسي في انتظارك، لأن أحدhem أبلغني أن صبيةً عذراء وبالغة ستأتي يوماً ما لإخراجي من هنا. تغادر صفحات الكتاب العظيم في فجر أحد الأيام، وتدعى شهرزاد، تمدّ لي يدها لتأخذني خارج تلك الممرات التي خطّتها جنيناتي عمل لملك أولى الأشجار اهتماماً غير معهود.

مشياً متبعين عطر الجنة والعجوز يحكى لسكينة قصة أمير فقد شقيقه التوأم واعتبر نفسه مذاك نصف رجل، وأن صبيةً صغيرةً القدمين ذات روح مفعمة بالعاطفة هي وحدها ستكون قادرةً على ملء هذا الفراغ الذي يعاني منه ليل نهار.

- ويدولى يا آنسة أنك أنت هي تلك الروح وذاك الجسد الذي

يحتاجه أميرنا. أستشعر ذلك لأنني منذ فقداني بصرى اكتسبت حاسةً جديدة هي الحَدْسُ، وحدسي يصدق دوماً.

عندما خرجا من المتأهة كانت سكينة واثقةً من أن حلمها يتحقق، فقد رأى نجوماً في وضح النهار ترافق فوق رأسها، لا بد أن لا عايشه كانت تحوم في الجوار. وسألت العجوز عن اسمه:

- ناديني "يا عمّي"، أنا هنا لأقص لك الحكايات وألقي عليك القصائد وأختلق الشخصيات وأسليك وربما لأعلمك. أنا المسؤول عن مكتبة القصر الضخمة ومتخصص في مخطوطات القرن الثاني عشر، تلك الحقبة يوم كان العالم يتحدث اللغة العربية وكان الإسلام دين الأنوار.

انطلقت أصوات الطبول والأبواق معلنةً بدء الاحتفال. خرج الأمير لاستقبال والد سكينة الذي أقيمت له مراسم التشريف وبدأ عليه التأثر. في هذه الأثناء اختفى الرجل العجوز تاركاً لسكينة أن تعانق والدها.

وتقديم الأمير بطلب يدها، فتلعثم الوالد الذي تهيب الموقف وتتمم بعض كلمات الشكر، ثم التفت إلى ابنته قائلاً:

- يا ابتي، هل سمعت ما قال الأمير؟ الكلمة لكِ، وأنا ليس لي إلا أن أمنحكما بركتي، ولن أقرّ عنك.

اغرورقت عينا سكينة بالدموع، إذ فكرت بوالدتها وبوضعها هي كخادمة.

- نعم، يا صاحب السمو. إنه لشرفٌ كبيرٌ لي أن أعيش في كنفك.

ومع ذلك أراد الأمير أن يسمع رأي الأب:

- وأنت سيدى، ما رأيك؟
- أقول نعم، مثل ابنتي، وأشكرك على الشرف العظيم الذى
حيوتنا إياه.

وصل رجال بجلابيب بيضاء، حاملين سجلاً ضخماً وقديماً من
حوالى مائتى عام، ووضعوه على طاولة واطئة وبashروا بالكتابة.
وهكذا وضع كتاب الزواج بين الأمير وسكينة. وطلب الأمير من
الكتبة إضافة التفاصيل التالية على العقد: "يعهد الزوج بإلغاء الحقّ
الشرعى في تعدد الزوجات والطلاق. ويتمتع الزوج والزوجة
بالحقوق نفسها وهما ملزمان بالاحترام المتبادل بينهما إلى أن يفرق
بينهما الموت. أما في ما يتعلق بالميراث، فيتعهد الزوجان معاملة
أولادهما الذكور والإإناث بالتساوي".

فوجيء الرجال بذلك واغتاظوا، فنهضوا مغادرين وهم يقولون:
- نحن مسلمون، ولن نكتب أبداً كتاب زواج ينتهك النصوص
القرآنية.

فطردهم الأمير بحركةٍ من يده واستدعى كتبة آخرين نفذوا تعليماته
من دون أن يرفعوا رؤوسهم.

وقع الزوجان في أسفل الصفحة الأخيرة من كتاب الزواج. وبدأ
أحد الشباب بعزف لحنٍ على البوق فيما شرعت حسناء سوداء في
غناء نشيد الفرح والسعادة.

في المساء عادت سكينة إلى منزلها لتجمع أغراضها. لم تخبر
كنزة ووردة بشيء. لكن والدتها استدعتها إلى غرفتها وضربتها
بالسوط لأنها نادتها عدة مرات ولم تحضر. انتزعـت سكينة السوط

من يدها ورمته من النافذة وقالت لها:

ـ إنّي أسامحك، أنت وابتيك. قلبك العديم الإحساس بحاجة إلى أن تسرى فيه دماء الطيبة. روحك تبكي بصمت ولا تسمعينها. سأحرص من الآن فصاعداً على أن يتحلى قلبك وروحك بالإنسانية. في تلك اللحظة دخل الوالد الغرفة فعائق ابنته ومنحها بركته مجدداً. ولم تفهم زوجته ما يجري.

ـ تزوجت ابتي بالامير!

أغمي على الأمّ بعد أن أطلقت صرخةً سمعتها ابنتها. وعندما استعادت وعيها راحت تتكلّم هاذيةً:

ـ يا للكارثة! انقلب العالم رأساً على عقب! فتاة بهذا القبح تحظى بقلب الأمير! هذه الفتاة ساحرة، نعم، يسكنها الشيطان... حيّتها سكينة موعدةً كالعادة وانسجت على رؤوس أصحابها. وفي الرواق التقت أباها وهو في مزاج سيء جداً. قبلت سكينة يده وهمست له:

ـ دعها تقول ما تريده.

ومن بعيد كان يسمع صراخ الزوجة التي انهارت لما عرفته للتو، وانضمّت ابنتها إليها وغرقن وقتاً طويلاً في البكاء والعويل والتحبيب. كانت في انتظار سكينة عربة لإعادتها إلى القصر، وقد ارتدت أجمل أثوابها وانتعلت حذائتها البلوري واستدعت والدتها ليرافقها. وصل هو أيضاً بكمال أناقهه وبدا مرتاحاً إذ عرف كيف يسوّي الأمر مع زوجته الفاجرة بعد أن خدشت خده.

أجريت مراسم الزفاف في الأسبوع التالي. وقد أصرّت سكينة

على أن يكون الاحتفال متواضعاً. وأعجب الأمير بطلبها هذا ولم يدع إلى الحفل سوى الأشخاص المقربين جداً. ووصلت خالتها متأخرةً تبعها ابنتها المتظاهرة تان بالسرور. استقبلتهن سكينة بفرح وضمتنهن إلى صدرها، ثم أجلستهن في أفضل مكان وقدّمت لهن الهدايا. ولشدّة دهشتنهن أسقط في أيديهن، فراحـت كنزة تعبـر عن أسفها لتصـرفها وطلـبت منها ورـدة أن تسامـحـها. أما والدـتهـما فـلـاذـتـ بالـصـمـتـ وهي تـرـاقـبـ بنـظـرـةـ عـابـسـةـ ما يـجـريـ حولـهـاـ،ـ تـأـكـلـهـاـ الغـيرـةـ والـحـسـدـ فـيـتـغـيـرـ لـوـنـهـاـ وـتـحـسـ بـارـفـاعـ حـرـارـتـهـاـ.ـ ولـذـلـكـ رـاحـواـيـأـتـونـهـاـ منـوقـتـ إـلـىـ آخرـ بـمـاءـ منـعـشـ نـقـعـتـ فـيـ أـورـاقـ مـعـرـوفـةـ بـتـهـدـئـةـ النـفـسـ وـالـأـعـصـابـ.

أعجبـ الأمـيرـ بـرـصـانـةـ وـرـزـانـةـ زـوـجـتـهـ الـتـيـ دـعـتـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـمـطـافـ كـنـزـةـ وـوـرـدـةـ،ـ "ـأـخـتـيـهـاـ"ـ كـمـاـ صـارـتـ تـدـعـوـهـمـاـ،ـ إـلـىـ الـأـنـتـقـالـ إـلـىـ الـقـصـرـ وـالـعـيـشـ معـهـمـ.ـ اـعـتـرـضـتـ الـأـمـ بـادـيـءـ الـأـمـ ثـمـ عـادـتـ وـرـضـختـ،ـ وـقـدـ أـعـدـتـ لـهـنـ الـأـمـيـرـةـ الـجـدـيـدـةـ بـعـضـ الـمـشـارـيعـ.

بعدـ أـشـهـرـ حـبـلـتـ الـأـمـيـرـةـ سـكـيـنـةـ،ـ فـنـظـمـتـ مـعـ زـوـجـهـاـ،ـ اـحـتـفـالـاـ بـهـذـاـ الـحـدـثـ،ـ حـفـلـاـ رـاقـصـاـ أـمـلـتـ مـنـهـ أـيـضاـ تـعـرـيفـ أـخـتـيـهـاـ بـسـادـةـ نـبـلـاءـ يـغـوـنـ الزـوـاجـ.ـ وـبـعـدـ وـلـادـةـ الصـبـيـ انـهـمـكـتـ سـكـيـنـةـ،ـ إـلـىـ جـانـبـ التـحـضـيرـ لـحـفـلـ الـعـمـادـ،ـ بـالـتـحـضـيرـاتـ لـخـطـبـةـ أـخـتـيـهـاـ الـتـيـ مـاـ عـادـتـ تـعـرـفـانـ مـاـ يـحـبـ فـعـلـهـ لـتـمـحـوـاـ مـنـ ذـاـكـرـةـ سـكـيـنـةـ صـورـةـ سـلـوكـهـمـاـ الـفـظـيعـ.

كانـ الرـجـلـ العـجـوزـ يـزـورـ سـكـيـنـةـ مـنـ حـينـ إـلـىـ آـخـرـ،ـ فـيـطـيـبـ لـهـمـاـ السـيرـ فـيـ الـحـدـيقـةـ وـهـوـ يـتـلـوـ عـلـيـهـاـ نـصـائـحـهـ:

-ـ المـهـمـ يـاـ صـاحـبـةـ السـمـوـ هوـ أـنـ يـعـرـفـ الـمـرـءـ كـيـفـ يـرـدـ الإـسـاءـةـ

والكره لأصحابهما. ترفعي عن تلك المشاعر السيئة وحافظي في الوقت نفسه على التواضع والبساطة. لا تتركي أبداً الحسد والغيرة يسوّدان قلبك، فإن تركتهما يتسرّبان إلى قلبك ملاً عروقك سماً. ليست الطيبة ضعفاً. ارفقي بالناس وهم يعرفون أنَّ بإمكانك أن تكوني قوية أيضاً، وحتى بلا رحمة.

فسألته عندها:

- كيف نكتسب القوة؟

- عندما نكون على طبيعتنا.

فلفتتْه إلى أنه لو لا تدخل عرّابتها الجنية لما استطاعت أبداً دخول القصر، فوافقتها الرأي وأضاف:

- نعم، قد تكون المساعدة البسيطة ضرورية أحياناً، لكن لو لم تكوني مهياً لتصبحي أميرةً أو ملكة لما توصلتِ إلى ذلك قطًّ. لقد قست عليك الحياة، وفي الوقت نفسه برهنت لك أن الشر موجود في كل مكان. الألم يعلمنا. لقد لمست عندك الجنية قوَّة لم تَعيها. بالمناسبة، هل تؤمنين فعلاً بوجود تلك الجنية؟

- لا لا عايشه؟ طبعاً! وإلاً كيف كنت لأحصل على تلك الأثواب الرائعة وتلك الأحذية البلورية النادرة جداً، وأن أبدي تلك الإرادة الحديدية؟

- فليكن! لكن لا يمكنك أن تغيّري رأيي في أن الجنية هي أنتِ نفسك!

قهقهت ضاحكةً وتابعت نزهتها مع العجوز الأعمى الذي أوصاها بأن تقرأ من دون تأخير حكايات ألف ليلة وليلة.

حَكِيمُ أَبْو حُصْلَةَ

كان هناك في قديم الزمان مملكة اسمها شاما، تبانت الآراء حول نباهتها ولباقيها. البعض، من ممالقيها، لا يبني بمتدح جمالها و”حدّة ذكائها“ كما كان يحلو لهم القول. في حين كان آخرون يجدون جمالها سطحياً، مجرد مظهر براق يحجب وراءه قبحاً طبيعياً. وما كانوا يصرّحون بذلك علانيةً، لكنهم لم يتورّعوا عن الإدلاء برأيهم مضيفين: ”رجاءً لا تذكروا هذا عن لساننا!“. وكان لزوجها انشغالات أخرى تستغرق كلّ وقته. وكان يدعوها ”حبية قلبي“ فيروقها ذلك. أحياناً كان يتساءل: ”متى ستنجح لي حبية قلبي وريثاً؟“ فتجيبه دوماً: ”الأمر لله“.

يوم حملت، نظمت حفلةً كبيرةً في القصر ودعت جميع نساء المدينة الحوامل. كانت تلك لحظة مؤثرة شعرت فيها بالبهجة تغمرها، مع أنّ القابلة أصبت بوعكة صحية في ذلك اليوم وأضطررت إلى ملازمة الفراش، فيما اضطرّ الزوج إلى المغادرة في غمرة الاحتفال

ليس هر على والده الذي توفي للتو.

بعد بضعة أشهر وضعت الملكة صبياً لا يشبه المولودين العاديين. كان أقرب إلى السواد وأصغر من الحجم الطبيعي وكثير التجاعيد، وله فوق ذلك حَدْبة صغيرة في ظهره، وفي وسط رأسه خصلة كثيفة من الشعر الأسود الداكن. لم يجرؤ أحد على التلميح إلى أن الولد سيكون أحذب، ولم يُدِّي الزائرون أي ملاحظة. وفي يوم كان الملك يروح ويجيء في الغرفة، أشار على القابلة أن تأتي إليه وقال لها:

ـ هذا الطفل ليس طبيعياً!

ـ أنت مخطئ يا سيدى، إنه طبيعي تماماً. الأطفال لا ينكشف جمالهم على الفور. يجب انتظار بضعة أيام قبل أن تتضح قسماتهم وشكلهم.

ـ لا. ابني ليس جميلاً وأنا مقنع أنه لن يكون كذلك أبداً. ثم ما خصلة الشعر هذه على رأسه؟ هل سبق لك أن رأيت طفلاً بهذا الشكل عند ولادته؟

ـ سيدى، هي ليست غلطة أحد.

أخرجت الملكة الجميع من الغرفة وراحت تبكي لاعنة نفسها:

ـ أي ذنب اقترفت كي ألد ابناً شنيعاً إلى هذا الحد؟ حتى إنه لا يبكي. يحرّك شفتيه فقط ليمسك الثدي عند الرضاعة. وأجابها صوت امرأة:

ـ كَفَى عن التذمر. هذا الصبي يتمتع بهبة استثنائية. سيتحل بالكثير من الفكر والنباهة. صحيح، لن يكون جميلاً، لكن ذكاءه

الهائل سيمنحه لباقهً وظرفاً نادرين في هذا العالم. القبح والجمال مجرد مظاهر، المهم ما وراء ذلك، ما في الداخل. كفت الملكة عن البكاء والتفتلت لتنتظر من يكلّمها.

لم تر أحداً.

- أنا الحنية ميمونة، تلك التي لا تأتي سوى بالأخبار الجيدة.

أعني إلى حدٌ ما...

اغتاظت الملكة وردت عليها:

- أوتعتقدين أن هذه الولادة خبر جيد؟

- نعم، حتى أنها فأل حسن. سترين كم سيفاجئك هذا الطفل.

اختلافه عن الآخرين إشارة من السماء تبيئك بأن هذه الولادة حدث سعيد! لذا تحلى بالصبر.

هجر الملك قصره. رفض، في اليوم السابع بعد الولادة، الاحتفال بهذا الحدث ولم يُعطِ الطفل اسمًا. حتى ديك واحد لم يُذبح في المناسبة. كانت والدته تدعوه "الولد" والقابلة "الصبي ذو الخصلة السوداء". وقد تلقى الملك لوماً من أحد أعمامه:

- علينا تقبل ما منحنا إياه الله. هذا الطفل هبة من الله، لا يحق لك رفضه، وبالخصوص عدم إعطائه اسمًا. ستُعاقب لأنك تتجاهله.

لم تحمله قط بين ذراعيك ولم تعره أي اهتمام. أنت مخطئ. أمرك بتصحيح هذا الخطأ الفادح.

- كيف؟

- بمنحه اسمًا! إنسان بلا اسم كأن لا وجود له. كيف تريد تمييزه عن الآخرين؟

قرّر الملك تنظيم حفل لتنسمة الطفل، وأوّل عذر بذبح عجل وبسبعة خراف.

بقي اختيار الاسم، فاقتصر عليه عمّه تسميته "حكيم" وهو يعني "العقل" و"صاحب الفطنة".

تردد الملك بين هذا الاسم واسم "أمين" أي "الوفي". واختارت الملكة اسم حكيم على أمل أن يحمل هذا الطفل إلى العالم بعض الحكمة. أما القابلة فظلت تدعوه "الخصلة السوداء"، فصرفت من الخدمة.

أول مرّة سمع حكيم اسمه يُلفظ افتر شغره عن ابتسامة عريضة. لم يسبق له أن ابتسم. أسعد ذلك أمّه كثيراً، وبدأت نظرتها إليه تتغيّر. لم تعد ترى عيوبه الجسدية، والجدير بالذكر أن ابتسامة حكيم كانت فاتنة ساحرة، وجميلة بكل بساطة.

سبق حكيم عمره في كل شيء. مشى في الشهر السابع ونطق بأول كلمة في الشهر التاسع وركب جملة في الشهر الثاني عشر. وفي عمر السنة ما عاد بحاجة إلى الحفاضات، ما إن يشعر بالحاجة إلى قضاء حاجته حتى ينادي مربّيته ويفهمها بنظراته أن عليها أن تجلسه على المبولة. إلا أن حدبته الصغيرة كانت تتضخم وخلصلة شعره تكبر.

مرّة جديدة تدخلت الجنية ميمونة وقالت:

- قصوا له هذه الخصلة ومسدوا حدبته.

لكن الملكة لم تجرأ على لمسه.

وراح حكيم يكبر مغضياً على بشاعته بشعره وفصاحة كلامه، كما تمتع بحسّ الفكاهة فعرف كيف يُضحك والديه عندما يكون

مزاوجهما سينأً. وسرعان ما أصبح حكيم محور اهتمام العائلة. نسي الجميع خصلته وحدبته وعينيه الصغيرتين الغائرتين وتكشيراته وقصر قامته. كان شعلة معرفة وذكاء. وثبت أن الجنية كانت على حق، وبات الملك والملكة فخورين بابنهما الذي شعَّ ذكاً وفِي كل مكان لدرجة أنه أصبح أسطورة، أو أقله مضرب مثل.

وكان حكيم، من جهة أخرى، طيب القلب إلى أقصى درجة. فكم من مرّة دعا إلى القصر أولاداً مشردين وحمل والده على مساعدتهم! لم يكن يوازي طبيته سوى حس العدالة الذي تميّز به. حتى أنه كان يحكم في الخلافات بين جيران أو يعمل على فرض حقوق امرأة طلقت ظلماً. وترك له والديه حرية التصرف على أمل أن يحسن صورته عبر تدخلاته إذ كان بحاجة إلى ذلك خصوصاً بعد أن خسر الحرب مع المملكة المجاورة من جهة الشرق.

وراودت الملك فعلاً فكرة تعيين حكيم وريثاً للعرش، لكن شقيقه الأصغر هو الوريث الشرعي كما كان يشغل منصب الصدر الأعظم. ثم إن الملكة في البلد المجاور من ناحية الشمال وضعت ابنتين توأمين. إحداهما رائعة الجمال، بيضاء البشرة واسعة العينين حريرية الشعر، ضحوك وهادئة، فيما الأخرى على العكس تماماً: صغيرة وصلعاء، طولة الأنف وكثيرة التجاعيد، وتبكي دوماً. وراحت الأم تتنقل بينهما وقد أسقطت في يدها ولم تعرف كيف تفسّر هذا الوضع الغريب. تتفحّصهما الواحدة ثم الأخرى وتبكي. عندما علم الملك بالخبر غضب كثيراً وقال:

– هذا ما كان ينقصني، ليس أنها لم تنجو ولداً ذكرأً وحسب،

بل وضعت فتاتين معاً! هذه مأساة مضاعفة، هذه لعنة. لا شك أنّ شقيقتي سيسعد بذلك، إذ سأضطر لتسميته وريثاً لي وإلى ترك العرش له عند وفاتي.

لم تنبس الملكة بكلمة. كفكت دموعها وأدارت ظهرها لزوجها. فجأةً سمع طرق على الباب، والأمر غير مألوف، فما من أحد قادر على الوصول مباشرةً إلى غرفة الملك والملكة. مرّت لحظة صمت ثم فتح الباب وظهرت امرأة، لا هي عجوز ولا شابة، ملتفة بوشاح أبيض، اقتربت من التوأميين وقدّمت نفسها وسط ذهولٍ عام:

– أنا ميمونة، الجنية التي تأتيكم بالأخبار الجيدة.

ورد الملك:

- في الحقيقة عندنا ما يكفي من الأخبار الجيدة!
- لا يا سيدي، كن صبوراً وأقبل بما أتاك به القدر.
- نعم، مع بنتين، من أين نأتي بالصبر...

تنحنت الملكة وأشارت على الجنية بالاقتراب:

– أوضحي...

– هنالك خبر جيد وآخر أقلّ جودة. بأيهما أبدأ؟

ردّ عليها الملك وقد نفذ صبره:

– لا يهمّ، تكلّمي...

– الفتاة الأولى، الجميلة، ستكون أميرة غبية. عذرًا لكنني أكتفي بقول ما أعرف. لا أكذب ولا أختلق شيئاً.

ورد الملك:

– لا أستغرب الأمر! بنت غبية، تتلاءمان...

فقط عاته الملكة:

- سيدى، لا تفوه بالحمقات!

طلبت الجنية كوب ماء، شربت وارتاحت قليلاً، ثم توجهت نحو سرير الأميرة الثانية:

- أما هي فأقترح، بعد إذنكم، أن تسمّوها نور، أي "الضوء" و"الإشراق". ستتمتّع هذه الفتاة بالذكاء والفكّر والطيبة. نورها الداخلي سيشعّ حولها حتى تُنسى الناس ما فاتتها من جاذبية وجمال. انتظروا، سُيُشرق بها العالم.

قال الملك مستغراً:

- هذا ما ينقص! امرأة قبيحة يشرق بها العالم! إنك تنطقي
بالترّهات أيتها الساحرة!

في تلك اللحظة تحديداً طرق عصفوران على زجاج النافذة الرئيسية، وألّا يَحْفَظُ الطرق، ففتحت لهما إحدى الخادمات، وتحوّل العصفوران ملاكين أبيضين يحومان فوق سرير الأميرة القبيحة. وبطقة من إصبعي الجنينة اختفى الملاكان، ثم قال:

- سيدى، لو كنت ساحرة لما دخل ملاك إلى هذه الغرفة. أنا جنية ولست مسيبة للumasى.

وارتفعت السجادة الموجودة في وسط الغرفة عن الأرض ثم عادت ووقيعه. فأوضحت الجنية أنّ هذا إشارة إلى ضرورة مغادرتها، لكنّ عندها قبل ذلك شيء تقوله:

- سيدى، لا يمكننى منح الأميرة الأولى عقلاً، فقد استأثرت الثانية بكلّ عقل المملكة. لكن ما باستطاعتي فعله للحسناء هو منحها

قوَّةً معينة، وهي أن تضفي الجمال على كلّ كائن ينال إعجابها، وهي قدرة هائلة شرط لا يُسَاء استعمالها.

لاذ الملك بالصمت مكسور الخاطر. راح ينظر إلى زوجته كأنها عدوته وسبب شقائده. ثم نهض وهو بركل مهدى الطفتين، لكنه أمسك في اللحظة الأخيرة وراح يحدّث نفسه: «لو كنا في الزمن الماضي لرأدُّهُما فوراً. في الماضي، كانوا ييقون على المواليد الذكور فقط وبعض الإناث في حال كانت عائلاتهن قادرّة على حمايّتها. لكن منذ مجيء الإسلام، ومنذ أن حرم النبي محمد هذه الممارسة، أنا مرغم على العيش تحت سقف بيتي مع بنتين، ييدو أن واحدة منهما فقط ستتمتع بالعقل. لكن ما لي وللعقل؟ ما أريده أنا هو صبيّ، صبيّ جميل ورائع. لكن ييدو أن لعنة نزلت على الملكة لا أعرف ممّن». .

وقد نصحته الجنية قبل مغادرتها بما يلي:

- سيدِي، اعرُف كيف تتقبّل ما و Henrik إياه الله العلي العظيم. أنت لا تعرُف أين يوجد الخير. لا يمكنك التكهن بالمستقبل. إذن أطع ربِّك وكف عن التذمر والتشكي.

ثم اختفت مخلفة وراءها رائحة عطرٍ ناعمٍ زكيٍ ما خفف قليلاً من الجوّ الخانق.

لم يعد الملك يأتي على ذكر الموضوع وراح يتصرّف كأن لا أولاد له. وإذا حدث واضطُر إلى زيارة الملكة لم يكن يسألها عن أخبار الأميرتين. لكن في إحدى الليالي قالت له الملكة إنه يجب تسميتها.

- عمن تتحدثين؟

- عن ابنتيك!

- ابنتي؟ أنا ليس لي أولاداً!

في اليوم التالي استدعت الملكة والدها ورجته أن يذبح خروفين مع الحرص على وضعهما في اتجاه مكة، للاحتفال بتسمية الفتاين. وسُمِّيت الأولى "جوهرة" والثانية "جميلة". وجرى الاحتفال بشكل مختصر وقد رفض الملك حضوره. في النهاية، لم يؤخذ باقتراح الجنية بتسمية الأميرة "نور"!

مع الأيام راحت جوهرة تتفوه بالمزيد من الحماقات، وكلما تقدّمت في تعلّم الكلام تلاشى جمالها. أما جميلة فكان قبحها يتزايد إنما تزداد ذكاءً وإثارةً لإعجاب مَنْ حولها. إلا أنها كانت مبتليةً بنوع من حبّ الشباب المبكر أحمرّ بسببه وجهها كلّه، وقد تقلّصت عيناهَا لدرجة أنها كانت تخفيهما وراء غلالة صغيرة، كما وكانت تجد صعوبةً في السير بشكل مستقيم. كان جسمها منحنياً دوماً فيصعب عليها الوقوف متنصبةً. لكن ما إن تكلم حتى تأسر سامعيها. كانت مطلعةً على آخر المكتشفات العلمية وتناقش الحياة السياسية وتروي قصصاً مضحكةً ومؤثرةً.

كانت الملكة فخورةً بجميلة بقدر ما كانت حانقةً وغاضبةً من غباء جوهرة، متآلمةً في الحقيقة بعد أن هجر زوجها مخدعها، إذ توَقَّعت أن يتخلّى عنها الملك ليتزوج بامرأة أخرى تنجب له الصبيّ الذي يحلم به. ففي ذلك الزمن كان تعدد الزوجات لا يزال شائعاً خصوصاً عند الملوك الراغبين في إنجاب وريث. ويرُوى أن والد

هذا الملك تزوج في الليلة نفسها بأربع نسوة على القدر نفسه من الجمال. وقد ضاجع كلاً منهاً واعداً بالاحتفاظ بتلك التي تمنحه صبياً. وبعد تسعه أشهر وضعن جميعهن صبياناً، فأبقى الأربع وأسكن كلّاً منهاً في قصر. ولتعيين ولد العهد استقدم حكيمًا عجوزاً وطلب نصيحته، فقال له هذا الأخير:

– لا تعين أيّاً منهم. قل لهم إنّ الوراثة هو مَن يبرهن عن قدرة على الاستماع إلى الناس، وعلى فعل الخير وخدمة الشعب من دون كذب ولا خداع. والولد الذي يتحلى بهذه الصفات يفرض نفسه تلقائياً ويؤيده أشقاوه بشكل طبيعي.

في هذه الأثناء كبر حكيم، الصبي ذو الخصلة، وازداد شكله قبحاً، لكن ذكاءه حقّ المعجزات. لم يُتقن لغة الحيوانات على غرار الملك سليمان لكنه كان قادرًا على رصد أيّ إشارة تصدر عنها وتفسيرها. وهو ما انطبق على البشر الذين استعصى عليهم إخفاء أي شيء عنه إذ كان قادرًا على سبر أعمق الأفكار عند الجميع على حد سواء. فإذا ما انضم إلى مجلس أحسن الناس أنهم منكشفون كلّياً، مفضوحة عيوبهم كما أفكارهم. كانت تكفي نظرة واحدة من حكيم ليكتشف أمر الكاذب. وقد خشيته الناس واحترموه. وتحلى بالتواضع ودماثة الأخلاق من دون أي أحکام مسبقة، وبذل كل جهد ليكون موضع محبة الكل على السواء.

أما مع النساء فكانت الأمور أكثر تعقيداً. فقد تمكّن من إغرائهن لكن من دون أن يحظى بهن. وتلك هي مأساته التي تكتُم عليها. وفيما هو يتنزه يوماً في الغابة التقى جوهرة، الحسناء الغبية. كانت

حزينة ومكتبة جدًّا، وعلى وشك البكاء في كلّ لحظة. ومن أول نظرة أدرك حكيم ذلك فقال لها:

- لا يحقّ لامرأة بهذا الجمال أن تكون حزينةً إلى هذا الحدّ.
- وما نفع الجمال عندما يكون مجرد حجاب يستر عيوبًا فظيعة؟

- يبقى الجمال ميزةً، خصوصاً للمرأة. أنا لست جميلاً ولا أمل لي إطلاقاً بأن أستيقظ ذات يوم لأجد نفسي في جسدٍ بهي. ولدث مشوّهاً وأسابقى كذلك حتى الموت. لكن يجب أن نعرف كيف نستفيد مما يُعقل علينا.

مسحت جوهرة دمعةً وقالت متنهدةً:

- جمالي سطحيٌّ وحسب. ليتنى قبيحة مثلكولي ذكاوك.
- هناك في الحياة ما تمنحنا إياه الطبيعة، وهناك ما نفعله بهذه الموهبة لنعيش بشكل أفضل. لقد تقبّلت على الفور وضعني وأردت أن أجعل منه ورقة قوة بيدي. أعلم أن الفطنة هبة، لكن كلما زادت كلّما احتاجنا المزيد منها. لقد نميت هذا الذكاء الذي وهب لي، وطورته إلى أن أصبح ميزي في ما أنا عليه.

- يا لسوء حظي! فأنا تعيسة لأنني أعلم أنني محكومة بالغباء...
- إن أردت بإمكانني أن أخلصك من هذا العذاب. فأنت تعين حالتك في حين أن كثيرين لا يتبعون إلى قصورهم، ويرهقون المجتمع بتعجرفهم الفارغ.

- أتعني إذن أن بإمكانك مساعدتي؟ كيف ستتمكن من ذلك؟
- لدى القدرة على منح الذكاء. قست على الطبيعة من جهة

وعَوَضْتُنِي عَنْ عِيوبِي بِالذِّكَاءِ مِنْ جَهَةِ أُخْرَى. وَعِنْدِي مِنَ الذِّكَاءِ أَكْثَرَ مَا يَنْبَغِي.

- أَيْمَكْنُكَ الْقِيَامُ بِذَلِكَ؟ أَنْ تَمْنَحْنِي بَعْضَ الذِّكَاءِ؟

- نَعَمُ، لَكِنْ بِشَرْطٍ ...

- سِيَعْدِقُ عَلَيْكَ أَهْلِي الْمَالِ وَالْذَّهَبِ.

- لَا، لَسْتُ بِحَاجَةٍ لِهَذَا التَّوَافِهِ. الشَّرْطُ هُوَ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي. تَرَاجَعَتْ جَوْهِرَةُ خَطْوَةٍ إِلَى الْوَرَاءِ وَكَادَتْ أَنْ تَقْعُ أَرْضًا. ثُمَّ تَمَالَكَتْ نَفْسُهَا كَاتِمَةً ضَحْكَتُهَا.

لَمْ يَسْتَغْرِبْ حَكِيمٌ رَدَّهُ فَعْلَاهَا، وَأَضَافَ قَائِلًا:

- أَمْنِحْكَ عَامًاً لِلتَّفْكِيرِ. يَجِبُ أَنْ تَعْتَادِي فَكْرَةً أَنْ تَصْبِحِي زَوْجَةً أَقْبَحِ رَجُلٍ فِي هَذِهِ النَّوَاحِي. لَكِنَّكَ، فِي الْمُقَابِلِ، سَتَحْصِلُنِي عَلَى الذِّكَاءِ وَتَصْبِحِينِ أَكْثَرَ ارْتِيَاحًا فِي الْمُجَمَعِ. سَيَصْبِحُ لِجَمَالِكَ مَعْنَى. رَاقَتِ الصَّبِيَّةُ فَكْرَةُ الزَّوْاجِ هَذِهِ لَكُنَّهَا كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى بَعْضِ الْوَقْتِ لِتَخْيِلَ نَفْسَهَا بَيْنَ ذَرَاعَيِّ هَذَا الرَّجُلِ. قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: "طَالَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَنْجَذِبُ إِلَيْهِ، لَكِنْ مَا إِنْ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْكَلَامِ حَتَّى تَرَاءَى لِي كُلَّ شَوَّابِهِ".

فَكَرِّرَتْ مَلِيًّا وَبَحْثَتْ الْأَمْرَ مَعْ شَقِيقَتِهَا التَّوَأمِ وَمَعْ وَالدَّتِهَا، وَهُنَا اخْتَلَفَتِ الآرَاءُ.

قَالَتِ الْأُمُّ بِوَاقِعِيَّتِهَا:

- يَا ابْنِيَ، أَسْوَأُ مَا تَوَاجِهُهُ الْمَرْأَةُ هُوَ أَنْ تَصْبِحَ عَانِسًا، فَتَتَحَوَّلُ أَشْبَهُ بِبَضَاعَةِ غَيْرِ مَرْغُوبَةٍ حَتَّى إِنْ عُرِضَتْ لَا تَجِدُ مَنْ يَأْخُذُهَا. لَذَا سَلِّمًا بِأَنَّ الرَّجُلَ رَجُلٌ، لَا دَاعِيَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا. مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ

أن يكون جميلاً، لكن ليس هذا هو المهم. بالنسبة إلى المرأة الأمر مختلف. جمالها مفيد لها، قد يكون أحياناً شرط الزواج. وأدلت جوهرة برأيها وقد بدأت تكتسب بعض الفطنة:

- نعم يا أمي، الرجل هو رجل.

فعلقت شقيقتها التوأم:

- لا أكفر عن التساؤل: أمن الأفضل أن تكون الفتاة جميلة وبلياء، أم قبيحة وذكية؟ لا أتحدث عن حالي، فقد سلمت بها منذ زمنٍ طويلاً وسأحمل عبء مصيبتي حتى النهاية. إنها الحقيقة، ليس بيدي حيلة وليس بإمكان أحد أن يغير شيئاً.

أطلعت الملكة الملك على الأمر، فلم يجد رأياً. وبعد فترة قررت جوهرة الزواج بحكيم، لكنها قررت ألا تطلعه فوراً على ذلك مفضلاً انتظار مرور سنة. وبمجرد أن قررت بينها وبين نفسها أن تقول "نعم" لحكيم أصبحت أقل غباؤة.

كان تحول جوهرة صارخاً. فاضت بالذكاء الذي منحها إياه حكيم. قلَّ كلامها لكن القليل الذي تقوله بات له وقعٌ جيد في الآذان. وقد بات جمالها الجسدي متساوياً مع كلامها. لم تكن الملكة تصدق هذا التغيير، فيما انبهر الملك بابنته، ولأول مرة عانقها وقال لها إنه يحبها. وراح شباب القصر يغازلونها وينظمون مباريات في المناظرات الخطابية لاستعمالتها. عندما كانت تنظر إلى نفسها في المرأة كانت تدرك كم أن الجمال الجسدي مخادع. لم تعد تثيرَ وجوبات تعتمد على ذكائهما، الذي أصبح خصباً ومتالقاً، لتحظى بإعجاب كلِّ محيطها.

في غضون ذلك الوقت كان حكيم يتظاهرها.

وفي حالة من السعادة قررت في أحد الأيام التنزه في الغابة المجاورة للقصر. كانت تحلم وتخيل نفسها في مكان آخر، في عالم آخر، محاطة بأناس أذكياء ومحضرين. وفيما هي تمشي سمعت أصواتاً تقول:

“أعطي هذه القدر...”

“اجلب الدست...”

“أشعل النار...”

توقفت ونظرت حولها ثم، إذ خفضت رأسها، رأت الأرض تنشق عند رجليها. لم تخُفْ بل، بالعكس، اغبطة بهذه المعجزة التي تحصل أمامها، إذ شاهدت منزلًا كبيراً ينشط فيه كثير من الناس. زاد استغرابها وتقدّمت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع حكيم:
- صديقتي العزيزة، اليوم مضت سنة تماماً على العرض الذي قدّمه لك. فماذا قررت؟

تاظهرت بالتردد، وقد باتت تعرف أنه لا يجب الاستسلام فوراً للرجل. حتماً فعل الذكاء فعله...

- لم أقرّ بعد. صحيح أن هبتك غيرت حياتي، لكن كلّما أمعنت في التفكير كلّما صعب علىّ اتخاذ قرار.

- حيّتنِي يا صديقتي العزيزة! إن كنت قد غيرت حياتك فلكي أحظى برضاك، فلنسر معاً صوب النقطة نفسها عند الأفق، كي أشارك معك كلّ ما يجعل الحياة محتملةً وجميلةً ورائعة. لقد صبرت وانتظرت انقضاء العام. راودتني أحلام، تخيلت مشاريع

تلعبين فيها الدور الرئيسي. وضعت خططاً لحياتنا المشتركة. راهنت على فطنك الجديدة. إذاً، ماذا قررت؟ لن تجعليني أتألم، أليس كذلك؟ تكلمي، لقد استعددتُ لكلّ شيء. أنا مستعدّ لسماع كلّ شيء، لمواجهة كلّ شيء!

بعد لحظة تفكير قالت جوهرة:

- من قبل، كنت غبية ولم أرد الزواج بك. لقد أعماني غبائي. لكن الآن، وقد اكتسبت الذكاء وال بصيرة، كيف تريدينني أن أتزوج شخصاً مثلك؟

- هل ستجعليني أندم على ما فعلته لأجلك؟
مالت برأسها وقد أحست بالخجل:

- عندما أزَلت عيبي الأساسي، فتحت عيني، لدرجة أنني بُتْ أرى
بووضوح تام ما كان غبائي يمنعني من رؤيته.
تسرب الشك إلى نفس حكيم، وأحس أنه أمام معضلة، وهذا ما لم يحصل له منذ زمن طويل. فقال في نفسه: "لقد نصبت فخاً لنفسى
بنفسي، كالغبي"، ثم طلب من جوهرة أن تعطيه ذراعها ليتمشيا في
الغاية. ترددت لحظة ثم مددت له ذراعها.

- قوللي لي، يا صديقتي العزيزة، هل تشعرين بالتعاسة إزاء ذكائي
وروحي المرحة وفكري المنفتح والسمح؟ هل أن فكرة ارتباطك
برجل لا يتطابق مع النموذج الذكري تزعجك إلى هذا الحد؟
وإذ لزمت جوهرة الجميلة الصمت، قرر حكيم أن يشرح لها
سبب ولادته مع هذه الخصلة وهذه الحدبة:

- كان يفترض بوالي أن يتزوج بنسيبةٍ له مشهورة بجمالها

وطبيتها. طلت والدته يدها، وكما هو معهود لم يتقابل العروسان قبل ليلة الزفاف. وكانت نسيبته تُدعى حُسْنَة، ولها شقيقة كبرى قبيحة جداً وبلهاه لم يوفق الأهل إلى تزويجها. لذا، عشية ليلة زفاف والدي سَلَّمُوه الشقيقة الكبرى! عندما اكتشف والدي الخديعة كان الأوّان قد فات، لأنّه فضّ بكارتها، فسكت عن الأمر ولم يُثِر فضيحة. وأنا ابنه الوحيد، ورثت عن أمّي قبحها وعن والدي ذكاءه واستقامته.

تلك هي قصتي.

توقفاً وبدت جوهرة حزينةً ومنفعلة، واعترفت له بأنّها تحبّ كلّ شيء فيه، ثم سكتت. ابتسم حكيم وأخذ يدها وقبلها:

– إن تزوّجنا أعرف أنك ستجعليني أشدّ الرجال جاذبية.

– لكن كيف ذلك؟

– الجنية نفسها التي منحتني القدرة على خلع الذكاء على من أريد، منحتك أيضاً القدرة على إضفاء الجمال على الشخص الذي تحبينه!

– أن أحبك...

كررت هاتين الكلمتين، ثم اتكأت على ذراع حكيم ووشوسته:

– لقد ربحت! سأجعل منك أجمل أمير في العالم!

وفجأةً ضاءت الغابة وانشققت أمام حكيم وجوهرة طريق من نور. خُيل للمرأة أنها ترى ملائكةً تُحوم فوق رأسيهما، وتهادت إلى مسمعها موسيقى ذات لحن آسر. وكلّما تقدما كان شكل حكيم يتغيّر في نظرها. ازداد طولاً بضعة سنتيمترات إلى أن أصبح أطول من زوجته العتيدة بقليل. وإذا استقام جسمه اختفت حدبته ولم تعد

عيناه فجوتين غائرتين. اتّخذ أنفه جحماً طبيعياً وزالت في الوقت نفسه تلك الخصلة التي كانت تزيد جداً من بشاعته.

هكذا باتت الأميرة تراه. لم يتغير شيء في شكل حكيم الخارجي، لكن الحب يحول الحجر تقاحه والشتمة إطراء.

ساور جوهرة الشك إذ تساءلت ما إن كانت هذه العملية التجميلية ستجعله غبياً. قرأ حكيم أفكارها وطمأنها قائلاً:

– جمالٍ رهن بك، كما أن ذكاءك رهن بي. طالما تحببني تريني جميلاً. الأمر إذاً يعتمد عليك. لقد خلقنا لنلتقي ونتكامل. هذا هو الحب!

– نعم يا أميري، نحن الآن مرتبطان مدى الحياة! أضاف أن الناس يخلطون الجمال والطيبة، والقبح والشر. الأمور لا تُحدّد بهذا الشكل. كل شيء رهن بخامة النفس. ثم ضحك وقال لها:

– يمكن المرأة أن يكون غبياً وشريراً، دنيئاً وذكياً، جميلاً ولصاً، بشعاً ودمثاً...

ثم روى لها قصة أحدب فقير، بشع مثل كراكمودي، رأى فتاة شابة تمشي على حافة نهر، وكادت أن تنزلق وتغرق فسارع إليها وسحبها نحوه كي تتمكن من السير على اليابسة. وإذا رأى بعض المارة المشهد أو قفوه وأبرحوه ضرباً وشتموه متهمينه بأنه أراد استغلال الفتاة. لقد قُرنت بشاعته بالشر!

اعترفت جوهرة بأنها هي نفسها كان عندها هذا الحكم المسبق، وذكرت المثل القائل: ”من الأفضل أن يكون المرأة جميلاً وبصحة

جيدة، لا فقيراً وبشعاً ومرضاً». وعلى ذلك رد حكيم بالقول: «لا أحد يختار مظهره».

في اليوم التالي أطلعت والدها على قرارها، فأصدر الملك أمراً بإقامة حفل زفاف كبير.

لم تكن عيناً جوهرة لترى في حكيم سوى الجمال والصفات الحسنة، ولم تتوّرّع عن الاستهزاء بما كان يراه فيه الآخرون. كانت تحب زوجها وهذا الأهم في نظرها. وأكثر ما أحبت هو أوقات النقاش الطويلة التي ساعدتها على التخلص من قناعاتها وأفكارها المسبقة.

أنجبا الكثير من الأولاد، وكلّهم جميلون وأذكياء. وبعد زمن طويل، عندما أصبحت جوهرة جدة، كانت تحب أن تروي لأحفادها قصة أميرة جميلة وغبية، ازدادت، بفضل الحب، جمالاً واكتسبت الكثير من الذكاء. واستنبطت من هذه القصة العبرة التالية: إياكم والمظاهر، الجمال غشاء النفس وهو لا يعني دائماً الطيبة والفضيلة.

^

الإبهام الصغير

كان ما كان في قديم الزمان خطاب وخطابة يعملان بشقّ النفس لتأمين لقمة عيشهما. كانوا فقيرين لدرجة أنهما كانوا يقتاتان أحياناً بما يرميه الجيران من فضلات الطعام. كان لهما سبعة أولاد تراوح أعمارهم بين سبع وعشرين سنة. فثلاثة مرات متتالية وضعت المرأة توائم. أما الولد الأخير فولد منفرداً. لكنه بخلاف الآخرين كان هزيلاً وقصير القامة، لا يتسم وبنوع خاص لا يصرخ. حتى ليُختَل لمن يراه أنه يسمع بعينيه الصغيرتين الغريتين، عينين مشدودتين كعيني آسيوي.

كان صغير الحجم لدرجة أن والده سماه "الإبهام الصغير" لأنه بدا له بحجم هذه الإصبع. وهو ما اعتبرته العائلة نذير شؤم خصوصاً أنهم في تلك الفترة انتقلوا من الفقر إلى الضيق الشديد. كانت ولادة الإبهام الصغير إذاً أشبه بمسألة أو لعنة لم يجد الوالدان تفسيراً لها. اعتبروا أنهما مصابان بشقائين: أفواه كثيرة يجب إطعامها وولد يحمل

المشاكل. قالت لهم الولادة: - ليس هذا الصبي طبيعياً. إنه منغولي لأن عينيه مشدودتان، وسيكون ذكاؤه ضعيفاً. وهو في الوقت نفسه هبة من الله. عليكم حمايته لأنه سيحميكم.

منذ ذلك اليوم صار والده يناديه أحياناً "الإبهام الصغير" وأحياناً أخرى "الصيني". وأول كلمة تلفظ بها: "...غولي، ...غولي". عرف بعض الجيران بوضعهما وصاروا يضعون خفية الطعام قداماً بابهما، خشية أن يجرحوا مشاعرهما بالتصدق مباشرةً عليهما. لكن الجميع كان على علم أن عندهما الكثير من الأولاد ويتساءلون كيف يتذمّران أمرهما لإطعامهم.

لم يكتثر الإبهام الصغير بتهكمات أشقائه. كان يصمت، ويبتسم أحياناً، وهي طريقة في التعبير عن طبيته ولا مبالاته. لكن كلما تصرف بطيبة كلما أسوأوا معاملته. كانوا إلى مائدة الطعام يعطونه أصغر حصة، ويتجاهلون حتى إطلاعه على توفر شيء ما للأكل. لم يحقد على أحد منهم ولا ذ بالصمت والعزلة. وفي أحد الأيام قالت امرأة لوالدته التي التقها في الحمام:

- إنه ابن الشيطان، من الأفضل إبعاده عن أخوته. الولد غير الطبيعي هو دوماً مصدر مشاكل.

في الواقع كان الإبهام الصغير ذكياً. ولأن عينيه مشدودتان وصغيرتان وغائرتان، لم يكن فيما أي إشراق، علماً أن هذا الصبي غير المحبوب والذي يلقى سوء المعاملة كان يعرف كم أن حياة أهله صعبة. وقد استشعر، حتى وإن لم يبح بذلك، أن والديه سيرتكبان

عاجلاً أم آجلاً عملاً سيئاً. حدس بذلك من دون أن يعرف تحديداً ما الذي ينwoون فعله للخروج من حالة الفقر المدقع هذه. فقلبه كان دليلاً وهو أسرع من الجميع في فهم كل ما يجري، وهذا هو سرّه. في ذلك الزمن، إذا اعتبر أحد الأولاد غير طبيعي واختلفت ردّات فعله عن الآخرين، وخصوصاً إذا تأخر في النطق، كان يُستبعد من العائلة، إذ يخجلون به فيخفونه أو، أسوأ من ذلك، يرمونه في أقرب بئر. أمّا والداه اللذان كانوا يخافان الله فصارا يأخذانه إلى أحد مزارات الأولياء ويتركانه هناك بضع ليالٍ مربوطةً إلى شجرة على أمل أن يخرج الشرّ منه. لكن الإبهام الصغير تمتع بحاسة سادسة تحميه من مصيبة من هذا النوع. كان متتبهاً ومتيقظاً، فصحيح أنّ مظهره الخارجي لا يسعفه إلا أن قلبه وذهنه كانوا ينقدانه.

في إحدى الليالي، وإذا غفا الأولاد جمِيعاً ما عدا الإبهام الصغير، صارح الزوج زوجته بعزمها على التخلص من أولادهما. فتظاهر الإبهام الصغير بأنه غارق في النوم وتابع الحديث باهتمام كبير. لم يفاجئه الأمر، بل ارتعد من الخوف، لكنه بدأ التفكير في حلّ.

قال الأب:

- لم أعد قادرًا، لا يمكنني أن أؤمن ما يكفي لسدّ جوع هؤلاء الأولاد السبعة. قد نتحمل نحن الاثنان الجوع، لكن أولادنا ضعفاء، هم بحاجة إلى حليب وخبز يومياً. أعرف جيداً أنّ ما سأقوم به أمرٌ مُدان وأعلم أنّ أهلاً ما كانوا ليفعلوا ذلك إطلاقاً. أرواح أجدادنا لن تسامحنا أبداً. لكن ما العمل عندما نرى أولادنا يموتون جوعاً؟ ما العمل عندما نكون عاجزين ويسقط في أيدينا؟ ثم إن ولادة

”المنغولي“ إشارة من النجوم على أنه يجب إيداع فوراً في الغابة.
فردَت الأم:

- ما تقوله يقلقني. هل تذكر أن ربنا لن يغفر لنا أبداً؟ كيف
أترك فلذات كبدي في الغابة وأرميهم فريسة للذئاب والحيوانات
المفترسة؟

زاد الوالد اضطراباً وقال:

- أنا أيضاً أفضل الموت على أن أترك فلذات كبدي يموتون
جوعاً. على الأقل إذا تركناهم في الغابة قد يجدهم رجل بـرّ فيأولهم
وينقذهم من البوس. وقد يجدون بأنفسهم ما يأكلونه، فالجوع
سيدفعهم إلى الدفاع عن أنفسهم للبقاء على قيد الحياة. أنا لم أنجح
في ذلك. إننيأشعر بالخجل، الخجل الشديد...

وراح يككي، وكذلك زوجته. ناما متعانقين من دون أن تجفّ
دموعهما. فرأيا في منامهما ملاكاً متّشاً كلّه بالأسود يدور حولهما
وهو يهدّهما بأشد عقاب:

- من يتخلّ عن ولدٍ له يتخلّ عنه القدر بدوره! ومن يؤذ ولدًا
يمُت في عذاب شديد!

استيقظ الإبهام الصغير في الصباح الباكر وخرج من دون أن يثير
ضجة فلم يتتبّه أحد إلى غيابه. قصد الغابة المفضية إلى البحر. قادته
خطواته إلى هذا المكان من دون أن يعرف السبب. كان مقتنعاً أن
عنه مهمة ينجزها، وهي إفشال خطة أهله وإنقاذ إخوته.

في الطريق، التقى في مكان مكشوف من الغابة عجوزاً يطعم
عصافير من مختلف الألوان. كان الرجل يكلّمها فيما يسحب من

كيس معه حبوب قمح وذرة ويرميها لها. عندما رأى الإبهام الصغير لم يقل له أي كلمة، وقدم له قطعة خبز ساخنة محسوسة بقطيع دجاج فأكلها بنهم وشكر الرجل العجوز. وإذا تحرك مغادراً سمع صوتاً يقول له:

- أين تذهب؟ قد تضيع في المكان.

- أنا هنا لأستدل على الأماكن المعتمة حيث ينوي أهلي رمي أولادهم.

- هم ليسوا أهلاً، إنهم وحوش.

- أعرف، لكنهم أهلي، ولا يمكنني التقليل من احترامهم. كثيراً ما سمعت أنه يجب محبة الأهل ومعلمي المدرسة إذ يقال: "احفظ جميل من وھبك الحياة ومن علّمك القراءة والكتابة".

أعطاه العجوز كيساً مملوءاً بأصداف متنوعة الأشكال:

- خذ، إليك هذه الأجسام البحرية الرائعة. إفعل بها ما تشاء، وإن أحببت سمع صوت البحر ضع أذنك على الصدفة الكبرى بينها فتعرف ما يرويه لك البحر.

شكره الإبهام الصغير مقبلًاً يده كما يفعل مع والده، وذهب مفتشًا عن طريق العودة.

قاد خطاه شعاعٌ من نور. فتش في الكيس وأخرج منه أكبر صدفة وألصقها بأذنه، فسمع هدير الأمواج وخشونة الزبد وصوت تكسر المياه على الصخور. بعد قليل استند قليلاً على جذع شجرة، وإذا جلس سمع صوتاً من بعيد يقول له:

- قريباً يصبح قمنا بدرًاً ويرسل ضوءه على الأرض والبحر، يفسد

نظام الأمواج ويحرم البشر النوم. عندها، أنت الولد المختلف، أنت غير المحبوب، أنت المفعم بالحب والطيبة، كن واثقاً بأنك سوف تنقذ أشقاءك، وتوئّم لهم ما كانوا هم سيمتنعون عن تأمينه لك. هذه هي الحقيقة. أنت أكبر من النمية. أنت أمير. لا تنس ذلك...

تبع تلك الكلمات صوت موسيقى. ونهض الإبهام الصغير وتابع سيره. وبوصوله إلى المنزل رأى والديه وأشقاءه يتوجهون نحو الغابة فحنى رأسه وانضم إليهم من دون أن يفوّه بكلمة. وراح يلقي، كل عشرة أمتار، صدفة على الأرض، وقد تميّز بعضها بألوان فوسفورية براقة تلتمع من بعيد.

كان الوالد يمشي في المقدمة، وعندما وصلوا إلى مدخل الغابة قال:

- سنجمع الحطب ونجعله حزماً نبيعها في القرية. هيا إلى العمل، لا نضيئن دقّيقـة واحدة. سيروا إلى الأمام، وعلى الأخص لا تستديروا أبداً لتروا ما يجري وراءكم!

أطاع الأولاد وجмуوا الكثير من الحطب، وعند انتهاءهم كان الوالدان قد اختفيا. بحثوا عنهما ونادوهما، فلم يأتِهم أي جواب سوى صدى صراغهم. وقف الإبهام الصغير على انفراد متظراً أن يزول وقع المفاجأة. وفجأة خيم الصمت على المكان. تبادل الأولاد النظرات، بعضهم بكى، وبعضهم صمت مخبولاً. ظنّوا أنّ والديهما يلعبان معهم لعبة الاختباء وانتظروا أن يكشفا عن نفسيهما.

كان الإبهام الصغير قد احتفظ بقطعة خبز بالدجاج، فأخرجها من كيسه وقسمها سبع حصص، ولاحظ أن الخبزة تضخّمت فأكل

منها الجميع حتى شبعوا. فإذا أخ البكر، الذي كان يسخر دوماً من الإبهام الصغير، يشعر بتبيكـت الضمير:

- سامحني، لقد كنت شريراً، لقد كنـا جميـعاً سـيئـين مـعـكـ. لكنـكـ تـعـرـفـ، المـشـكـلـةـ أـنـكـ لـسـتـ كـالـآـخـرـينـ. أـمـاـ الـيـوـمـ فـأـنـاـ أـلـمـسـ أـنـكـ أـفـضـلـ مـنـاـ كـلـنـاـ مـعـاـ. أـنـتـ سـمـحـ وـطـيـبـ الـقـلـبـ.

وـمـنـ دـوـنـ أـيـ تـعـلـيقـ أـشـارـ عـلـيـهـمـ بـأـنـ يـتـبعـوهـ:

- سـأـعـيـدـ كـمـ إـلـىـ الـمـنـزـلـ، يـكـفـيـ أـنـ تـبـعـ هـذـهـ الـأـصـدـافـ الـبـرـاقـةـ. رـاحـواـ يـتـقـدـمـونـ وـيـلـمـمـونـ فـيـ طـرـيقـهـمـ تـلـكـ الـأـشـيـاءـ الرـائـعـةـ. وـعـنـدـ خـرـوجـهـمـ مـنـ الغـابـةـ رـقـصـواـ وـغـنـوـاـ. وـوـضـعـ الـإـبـاهـمـ الصـغـيرـ الصـدـفـةـ الـكـبـيرـةـ عـلـىـ أـذـنـهـ فـسـمـعـ صـوتـاـ يـقـولـ:

- درـاهـمـ... درـاهـمـ...

فـهـمـ مـنـ ذـلـكـ أـنـ مـاـلـاـقـ دـخـلـ الـمـنـزـلـ. وـبـالـفـعـلـ كـانـ الشـيـخـ أـحـمـدـ، سـيـدـ الـقـرـيـةـ، قـدـ أـرـسـلـ لـهـمـ الدـرـاهـمـ الـعـشـرـةـ التـيـ كـانـ يـدـيـنـ بـهـاـ لـهـمـ، وـمـعـهـاـ دـجـاجـ وـشـرـائـحـ لـحـمـ كـبـيرـةـ وـأـطـبـاقـ فـاكـهـةـ مـجـفـفـةـ وـمـرـاطـبـينـ عـسلـ صـافـ وـبـعـضـ الـفـاكـهـةـ الـمـوـسـمـيـةـ. كـانـ هـنـاكـ مـاـ يـكـفـيـ لـإـطـعـامـ قـبـيلـةـ بـأـسـرـهـاـ.

وـصـلـ الـأـوـلـادـ قـرـبـ الـمـنـزـلـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ إـبـاهـمـ الصـغـيرـ، فـأـشـارـ عـلـيـهـمـ بـالـتـوـقـفـ لـلـتـنـصـّـتـ عـلـىـ مـاـ يـتـحـدـثـ بـهـ وـالـدـاهـمـ. فـإـذـاـ دـهـشـةـ الـوـالـدـيـنـ وـفـرـحـتـهـمـ تـحـوـلـانـ بـسـرـعـةـ شـجـارـاـ. سـمـعـواـ الـأـبـ يـتـجـشـأـ وـيـشـكـرـ اللـهـ عـلـىـ تـلـكـ النـعـمـ. لـكـنـهـ بـيـنـ جـشـائـنـ تـسـاءـلـ مـلـاحـظـاـ:

- أـيـنـ هـمـ أـوـلـادـيـ الـآنـ؟

ازـدـادـتـ الـأـمـ غـضـباـ وـلـمـ تـلـبـثـ أـنـ اـنـقـضـتـ عـلـىـ زـوـجـهـاـ وـأـنـزـعـتـ

من يده فخذ دجاج كان يأكله:

ـ يا لك من وحش أناي، لا تجید إلا الأكل، الأكل والتجشّو
كالخنزير. في الحقيقة، أنت خنزير، فقد الإنسانية، لا تفكّر إلا
بنفسك وقد جلبت العار على قبيلتنا. أتخيل ما كان ليقوله والدك أو
جدك لو علموا أنك رميت أولادك في ظلمات الغابة؟

مسح الزوج فمه بكلم جلبابه، تجشاً مجددًا ونهض عازماً بقوه
على ضرب زوجته. التقط حطبة ضخمة ورمها عليها، لكنها تفاصتها
وصرخت بكامل قواها:

ـ أولادي، أين أولادي؟ إلهي! آه يا إلهي! أطلب منك الغفران،
أرجعهم إلي!

عندما شقت صاعقةً كبد السماء، ثم برقت وأرعدت. ارتجَّ
المنزل وبعد لحظة سمع صوت طلب نجدة:

ـ أمي، نحن هنا، لقد عدنا، افتحي لنا من فضلك. أمي، نحن
أولادك، لقد أفلتنا من الغابة ونجينا من الذئاب والغيلان!
لم يصدق الأب ما يسمع فقال:
ـ هذا مستحيل. أنا أهذى.

إلا أنه فتح الباب فدخل الأولاد السبعة وقد أنهكهم التعب وهزلوا،
وانهاروا على الأرض من شدة الإرهاق.

اختلت الأم بنفسها في إحدى الغرف وراحت تصلي الله الذي
استجاب دعاءها. ثم أعدت لهم عشاءً طيباً.

عندما فاجأها الزوج وهي تصلي انفجر بالضحك وقال لها:
ـ أتعتقدين أن لا شغل لله سوى تلبية طباتك؟ ليس الله من أعادهم.

إنه الشيطان الذي يريد أن يخضعننا مجدداً للتجربة.

أكل الأولاد وناموا على الفور. في اليوم التالي لم يتبقَّ أي طعام، ولا حتى فتات خبز. فقد مرَّت الكلاب والهررة بالمكان ونظفت الردهة من كل شيء. وفي أواخر النهار عاودهم الجوع وسمع الأب يقول:

- معدتي لا تحتمل الخواص. إنها تحتاج بأصوات حادة.

فأجابته الأم:

- لو كنت رجلاً وأباً جديراً بهذا الاسم لما قبعت هنا متشكياً؛
لκنت أحسست بالخجل من نفسك وخرجت بسرعة لايجاد أي
عمل لإطعام عائلتك، لكنك مجرد شخص أناي !
وباشرت الأم التفتيش عن عمل. كانت مستعدة لتنظيف ردهات
المنازل الكبيرة وغسل ثياب الآخرين أو القيام بأي عمل لإطعام
أولادها. في هذه الأثناء، أيقظهم الأب قائلاً:

- هذه المرة، علينا السير لفترةً أطول كي نجد طعاماً. اتبعوني.
كان الإبهام الصغير قد خرج من المنزل بعد أن لاحظ غياب
والدته، وإذ لم يجدها عاد أدراجها فوجد باب المنزل مغلقاً بالمفتاح،
فادرك أنَّ والده قد قرر مجدداً تضليل الأولاد في الغابة. ترقب قليلاً،
ثم أعطته جارة لهم قطعة خبز كبيرة وأبلغته أن العائلة بأكملها غادرت
منذ الصباح الباكر. كان الخبز شهياً فأكل ربع القطعة وبكل حرص
احتفظ بالباقي داخل قلنسوته وانطلق للبحث عن أشقاءه. وبدلأ من
رمي الحصى أو الصدف استعمل قطعة الخبز ليحدد معالم الطريق.
مشى ولم ينتبه إلى أنه يبعد أكثر فأكثر عن المنزل. وعندما قرر العودة

أدراجه لم يجد قطع الخبز التي رماها وراءه، فقد أكلتها العصافير والحيوانات الأخرى. ولم يلبث أن هبط الليلة وارتعب وسط الظلمة الشديدة. خاف من الظلام ومن المجهول ومن الصمت ومن أدنى صوت في الغابة، وراح يرتجف وأحس أن حرارته ترتفع. بكل بساطة، تاه فعلاً هذه المرأة.

ألهمه حسه بالتوقف وانتظار نهاية الليل. بدأ المطر ينهمر فيما الهواء يعصف بقوة وعنف بالأشجار الضخمة. شبه الإبهام الصغير نفسه بحبة رمل، بورقة يابسة، بحصاة مدفونة تحت التراب. تعطل تفكيره واشتدّ خوفه ضاغطاً على عنقه ومعدته. يغمض عينيه فيرى وحوشاً وحيوانات برأسين وأفاع طائرة وأسراياً من الوطاويط وعناكب عملاقة تحيك شباكها حوله وأشجاراً تنحنن لتسحقه. دفعته غريزة البقاء إلى تسلق إحداها، فالتف على نفسه فوق غصن كبير أمكنه منه مراقبة كل ما يحدث ما وراء الغابة. لكنه كان منهكاً لدرجة أنه غفا على الفور. لم ير لا حلماً ولا كابوساً، واستيقظ بعد قليل فشاهد ضوءاً صغيراً يتلالاً في البعيد. كان ضوء منزل يتصاعد منه الدخان. فقال في نفسه: "حتماً هناك أشخاص يسكنون هذا البيت. سأقصده وأنقذ نفسي!".

مع الفجر سلك الطريق، وعندما وصل أمام المنزل انتابه إحساس داخلي وارتياب: "عادةً أرى بقلبي، وأنا هنا لا أرى شيئاً. قد يكون هذا المنزل فخاً. حتى أنه قد لا يكون موجوداً، وقد تكون ضحية هذيانـي... أنا ضائع، ضائع... لا أرى سوى السواد ولم أعد أميـر أي شيء محدد".

وفيما هو يكرر تلك الكلمات سمع صوت امرأة يكلّمه:
- أهلاً وسهلاً بك أيها الصغير! أشقاوكم هنا، ينتظرونكم! تعال،
لا تحف. إنه مجرد منزل صغير يسكنه زوجي الغول. غول ليس
كالغيلان! هو رائع لا يقتات إلا بلحם الأولاد الطازج. اقترب،
ادخل... لكن من أنت؟ لست كالآخرين! من أين تأتي؟ لماذا عيناك
صغيرتان إلى هذا الحدّ وعلى شكل خط؟

فقال لها الإبهام الصغير:

- أنا آت من بعيد، من مكان لا تغيب فيه الشمس أبداً ولا تنضب
فيه ينابيع الماء. من مكان الرجل فيه ذئب والمرأة شيطانة. إن دنوت
مني تصابي بمكروه كبير.
تراجعت المرأة وصرخت:

- الشيطان هنا!

كان الأولاد مقيدين ويكونون بصمت، وظهر عليهم الغول، لم يكن
كبيراً ولا صغيراً، لا وحشاً مرعاً ولا حيواناً مسخاً. رجل عادي، لا
يكاد يلفت الانتباه. بدین ویدو كرب عائلة طیب. لا شيء في شکله
الخارجي يوحی بأنه من أكلة الأولاد.

ادرك الإبهام الصغير فوراً أن ليس بالضرورة أن يكون الغول مسخاً
ليكون مفترساً. فالجمال والطيبة، كالشر وال بشاعة، ليسا متلازمين
دوماً. قد يكون المرء جميلاً ويتصرف كال مجرم. ثم تأمل هذا الغول
وتساءل عن مكمن الشر فيه.

صرخ الغول بزوجته: "يا امرأة! أطعمي هؤلاء الصغار، يجب
تسمينهم! أنا أحس بشهية غول!"، وقهقهه بعدها بصوت عالٍ ضاحكةً

صاخبةً وثقيلةً جداً، فانبعثت من فمه رائحة كريهة ملأة الغرفة. كان هذا الرجل أسوأ من الحيوان.

رمت على الأرض أمامهم عصيدةً ردية من حبوب الشمار اليونانية التي تستعمل لزيادة الوزن، وفيها أيضاً بضع قطع من اللحم الفاسد. أكل الأولاد كما لو كانوا حيوانات. واستغل الإبهام الصغير ذلك ليهمس في أذن أحد أشقاءه أن لديه خطة لإخراجهم من هنا وأن عليهم بالصبر والصمت.

كان للغول سبع بنات قبيحات جداً، حتى لم يكن القول إن الطبيعة انتقمت عبرهنّ. وكلّما ارتكب والدهنّ المزيد من الجرائم زادت بشاعتهن. تفوح منها رائحة نتنة ولهنّ أسنان طويلة ومرّوسة، وكأنّ شريرات بحق بعضهن البعض ويضرّين أمّهن، وإذا ما واجهنّ أولاداً آخرين انقضضن عليهم يمتصن دماءهم. كان والدهنّ يحبّهن لدرجة العبادة وينظر إليهنّ كمالو أنهنّ أميرات جميلات وذكيات ورائعات. كان يغمرهنّ بالمجوهرات فینمن وعلى رأس كلّ واحدة منهنّ تاج من الذهب.

في منتصف الليل، سرق الإبهام الصغير تلك التيجان واستبدلها بقلنسوات أشقاءه. عاد لينام وهو يتخيّل ما سيلي ذلك من هلع. لم ينتظر المجزرة التي كان الغول على وشك ارتكابها، فأيقظ أشقاءه وأشار عليهم بعدم إحداث أي صوت. غادروا المنزل على رؤوس أصابعهم ولم يتبه أحد لهروبهم. مشى الإبهام الصغير في الطليعة بخطى حثيثة للاستعداد عن منزل الشوئم هذا.

في غضون ذلك ذبح الغول بناته السبع على أنهنّ الفتيان التائهون،

وعندما انتبه للخطأ الذي ارتكبه بدأ يصرخ بكل قواه إلى أن أيقظ القرية بأكملها. ملأت الدماء المكان وخدشت الأم وجهها مرّة تلو الأخرى كأنما تعاقب نفسها على عدم تيقظها. وراح الزوج يرغني ويزبد ويقسم على تقطيع الصبيان الذين احتلوا عليه إرباً. ثم راحت الأم تلطم صدرها إلى أن سقطت مغميّاً عليها حيث ما زال الدم حاراً على الأرض. سمعت بشكل مبهم زوجها يسأل عن جزمه الألف ميل القفاراة ليلحق بالأولاد. لكنها كانت عاجزة عن التصرف وعندما استعادت وعيها كانت ملطخة بالدماء لا تعرف أدمها هو أم دم بناتها. ازداد الغول وحشيةً وترك زوجته في حزنها الكبير وانتعل جسمته الشهيرة وانطلق مزاجراً.

ابعد الإبهام الصغير وأشقاوه لكن هذا لا يعني أنهم باتوا في منأى عن الخطر، وقررروا الاختباء في ما يشبه المغارة تحت صخرة. وجلس الغول اليائس والمنهك على هذه الصخرة، وراح يشحد سكاكيته الكثيرة محدثاً نفسه:

”بخسارتي بناطي قد أخسر قواي. يجب أن أثار لهن قبل مغيب الشمس وإن أصبحت لا شيء. لن يبقى أمامي سوى أن أقتل نفسي أو أن أتحول دبّاً شريراً. كانت بناطي السبع رأسمالي من أجلهن أعيش وأقتل. الآن وقد غبن عن هذا العالم سوف أموت. لكن قبل ذلك سأقتل هؤلاء اللقطاء الذين أذلوني. سيكون ثاري عظيماً“.

سمع الإبهام الصغير وأشقاوه كل ذلك وارتعدوا كلهم خوفاً. لكن فجأةً خيم صمت عميق تبعه شخير قوي كصوت الرعد، هو الغول قد غفا. خرج الإبهام الصغير زحفاً ورأى أن الغول لم يعد خطراً بعد أن

غرق في هذا السبات المفاجئ. رمى حصاةً عليه فلم تصدر منه أيَّ ردَّة فعل، فعاد إلى المغارة وأشار على أشقائه أن يتبعوه. كان عليهم سحب جزمه الضخمة من رجليه، توَّزعوا المهمة وشدُّوا بكل قواهم وتوصلوا إلى نزع هاتين الآلتَّين كانتا تسمحان له بالانتقال إلى بعد ما يمكن بأقصى سرعة.

في تلك اللحظة بالذات ظهر جنٌّ نصفه إنسان ونصفه حewan، نحيف وأصيل، ضاحك النظرات ممدود اليدين. فوجئ الإبهام الصغير، وارتاب في الأمر أولاً، ثم دنا من الجنٍّ وسأله:

- من أرسلك؟

- سؤال في غير محله! ما هم من أرسلني! أنا هنا في مهمة لمساعدتك على الخروج من هذه الورطة.

- ماذا تقترب؟

- حسناً فعلتم بنزع جزمه. أعطوني إياها، سأتلفها، وعندما يستيقظ لن يتمكن من انتعالها والركض. أقترح عليك امتطاء هذا البساط السحري الذي سيقودك حيث تشاء.

وكما في ألعاب الخفة طَّقَ الجنٌّ بإصبعيه فظهر بساطٌ رائع. طلب الإبهام الصغير من أشقائه الاختباء مجدداً في المغارة وجلس على البساط الذي انطلق بسرعة مذهلة. وقف الجنٌّ عند مدخل المغارة وراح يعزف على الناي. أما الغول فكان يتقلب في نومه وقد اشتد شخيره.

وما هي حتى أوصل البساط الإبهام الصغير أمام منزل الغول حيث وجد زوجته تبكي. كانت تمزق ثيابها وتضرب رأسها بالحائط.

- يا سيدتي! زوجك في خطرٍ كبير. لقد أرسلني لأطلب منك أن تبعشي له معي كلَّ ما تملكون من ذهب ومال، وإنْ فإنَّ اللصوص الذين يأسرونَه مقيَّد اليدين والرجلين سيقطّعونه إرباً. الوضع في غاية الخطورة. وما أنا إلا رسول، لكنَّ اللصوص قبضوا على إخوتي وهم أيضاً في خطرٍ كبير.

- كيف وصلت إلى هنا؟

- بعد أن جرَّده اللصوص من جزمته أعطوني هذا البساط الطائر. لم تقنع المرأة بما قال، فجعل الإبهام الصغير ييكي ليبرهن لها أنه يقول الحقيقة. لكنها ألحفت في السؤال:

- أيريد اللصوص كلَّ ما نملك من ذهب ومال؟

- نعم سيدتي. كلَّ شيء. يجب أن تسرعي لأنَّهم سيذبحونه عند هبوط الظلام. الوقت يداهمنا، كما أنَّ البساط لا يطير إلا على الضوء الطبيعي.

نظرت إلى السماء، لم تكن الشمس بعيدةً جداً عن الأفق، ستغيب بعد أقلَّ من ساعة. ثم عادت تتحقق معه:

- أعطني دليلاً. قل لي أين يوجد الذهب والمال؟

فكَّر الإبهام الصغير برهةً فسمع منْ يهمس في أذنه: "... في مقبرة أهله"، هو الجنِّي أملَى عليه الجواب.

- قال لي إنَّ الذهب والمال في مقبرة أهله.

فردَّت المرأة عندها:

- هذه المرة أصدقك.

وذهبَت وراء المنزل حيث نبشت كيسَيْ خيُش وسلَّمتهما للإبهام

الصغير. وقبل جلوسه على البساط سأله لماذا عيناه مشدوّدان؟

- لأنني صيني يا سيدتي.

طار ووصل في غضون دقائق حيث كان أشقاوته في انتظاره. وجد أن الغول ما زال نائماً فيما اختفى الجنّي. فجلس الأولاد السبعة على البساط الذي نقلهم بقوة الهواء والضوء إلى منزل أهلهم. وضع الإيهام الصغير أمام والدته الكيسين الملئين بالمال والذهب وقال لها:

- لقد ولّى زمن المجاعة والفقر. أسلّمك هذه الثروة، لكن بالأخص لا تعطيها لوالدي الكسول الذي لم يبحث قطّ عن عمل. وفقت الأم وسط أولادها وقالت لهم:

- أحبّكم جميعاً، لكنّ قلبي إلى أصغركم أميل. هذا الذي فاجأنا، هذا الذي ولد مع بعض المعوقات، لا جميلاً ولا كبيراً ومن دون مناعة. ليست المصيبة في إنجاب الكثير من الأولاد، بل بالعكس، هي نعمة يجب أن نعرف كيف تشرّرها. ولد الإيهام الصغير مختلفاً. في البداية لم يكن يتكلّم، فسخرتم منه وبعضكم كرهه، ووجده الناس شاذّاً. قالوا إنه شبه إنسان، حتى أنهم نصحوني أن أخفّيه أو أن أرميه في بئر. حتى أن أحد أفراد عائلتنا قال لي إنه قد يجلب السوء وأنه رسول الشيطان ليودي بنا إلى الكوارث. طبعاً كل ذلك مجرد ترّهات. فهذا الولد الذي لا يشبه سواه من الأولاد هو الذي أنقذنا للتّو من البوء. هو الذي حمل الرخاء والسلام إلى عائلتنا. هذا الولد نعمة من الله. إنه رسول السعادة والحقيقة والخيال. بفضل طيبته وذكائه وخياله الواسع تمكّن من إنقاذنا

جميعاً. إنه مختلف لكنه إنسانيٌّ، في منتهى الإنسانية.
حمل الأولاد ستة شقيقات الصغير ورفعوه صارخين:
- فليعيش الرجل الصغير العظيم! فليعيش أخونا، أجملنا وأفضلنا!
مسحت الأم دمعةً. أما الأب فتناول معولاً ورفشاً وقال:
- أنا ذاهب إلى العمل!

إهاب الحمار

كان في قديم الزمان ملك متّيم يحبّ "سندوس"؛ آخر امرأة ترورج بها. ليس أن جمالها كان يجعل الرجال يقفنون صاغرين أمام بعائدها وأناقتها، بل كان يُخرج الطيور من أو كارها لتغّرد فوق رأسها ولمواكبتها كلما تنزّهت في حدائق القصر. كانوا يتحدثون عن سندوس الجميلة كأمرٍ بدبيهي قلب حياة الملك رأساً على عقب. وقد أراد بعدها إغفال حريميه المؤلّف من اثنتي عشرة امرأة، كلّ واحدة منها تمثّل منطقةً من مملكته. وكان في الحرير ثماني سمراءات وثلاث شقراوات وامرأة صهباء. كان يحبّهن ممتلئات الجسم ويرغّب فيهن على تناول النشويات ليُسْمِنَّ. واتّبع بعضهنّ، النحيفات جداً، نظاماً لتناول الشمار اليوناني. وشكّل وصول سندوس انقلاباً بالنسبة إليهنّ.

لم يرددَهنَّ الملك إلى بيتهنَّ بل حرّرّهنَّ وقدم لهنَّ الهدايا، حتى أنه وجد لهنَّ أزواجاً في القصر. فقد أحبّ سندوس لدرجة أنه كان

مستعداً لفعل أي شيء ليبرهن لها عن تميزها في نظره. وحتى أقاربه فوجئوا بتغييره.

زواج الملك جعله أكثر رأفةً برعاياه وأكثر اهتماماً بمشاكل شعبه. ذلك أن تلك الزوجة الرائعة كانت متحدرة من بيئة متواضعة وأمكنها إفهام الملك أن هنالك الكثير من الأمور التي يجب تغييرها في طريقة حكمه للبلد. فقد ولّى زمن التعسّف والترقيات غير القانونية والامتيازات الفضائحية. لقد انتهت سهرات العريدة التي كانت حديث الناس في الأكواخ، وتبذير ثروات البلد وسيطرة سياسة الجشع التي كان ممنوعاً التحدث عنها تحت طائلة السجن بتهمة التهجم على قدسيّة الملك وعائلته.

تغير الملك ولستروس الفضل في ذلك. طرد بعض وزرائه المعروفين بعدم كفاءتهم والمتمرسين بشتى أشكال الفساد، وأعاد تنظيم حكومته ومنع صراع المصالح، وكان يصغي كلّياً إلى زوجته وينفذ ما تشير به عليه لتحسين أوضاع الشعب.

أما ما تبقى من الوقت فكان يمضي بين ذراعي سندوس التي عرفت كيف تُمتعه وعلّمه أن الحب ليس سلسلة من المجامعتات وحسب. راح الملك يكتشف حلاوة ممارسة الجنس برفق ولطف، وهذا ما حسن من طبيعته وجعله مميّزاً.

كان في المكان حمار، لا هو كبير ولا صغير، شكله عادي جداً، وقد أُسكن غرفة جميلة عند مدخل القصر، لا يحق لأحد أن يضايقه أو حتى أن يلمسه. لم ينقص الحمار أي شيء، تقدّم له أفضل أنواع الأعشاب وأفضل الخضار، ويُسقى من مياه الشفة، وغالباً ما كانوا

يتحققون من حرارته للتصرف بأسرع ما يمكن في حال مرض.
حارث سندوس في أسباب الرعاية التي أحيط بها هذا الحيوان.
كانت تحب الحمير والأحصنة، لكن لم كل هذا التمييز؟ وفي أحد
الأيام حدثت زوجها في الأمر فابتسم وقال لها:

– هذا الحيوان كنز. يبدو أنه ثمرة تهجين مدھش. وعلى ما يبدو
هو يتكلم لكنني لم أسمعه قط، إلا أنه يفهم لغتنا. غداً أريك ما الذي
يعطينا إياه هذا الحمار وستفاجئين.

في اليوم التالي، وبعد الاستعلام عن الساعة التي يقضى فيها
الحيوان حاجته الطبيعية، حضر إليه الملك وزوجته، فوشوشه أحد
الحراس بكلام ما في أذنه، فإذا الحمار يهز رأسه ويطلق من مخرجه
كمية كبيرة من قطع الذهب تلتمع تحت الشمس وتتفوح منها في
الوقت نفسه رائحة طيبة.

انبهرت سندوس، وانحنى الملك والتقط بعض القطع النقدية
وقدمها لجميلته:

– المسيح، ما زالت ساخنة!
ثم سألت إن كان يتمتع بالقدرة على الكلام، فهزّ الحارس برأسه
إيجاباً وكذلك فعل الحمار وانفجر ضاحكاً.

قالت سندوس:

– هذا ليس حماراً كغيره، إنه ”السيد الحمار!“.
وأجابها الملك:

– بهذا الذهب سنبني الطرقات والمدارس والمستشفيات، ونشر
الخير حولنا.

أرادت سندوس معرفة قصة هذا الحمار، فأخذها الملك من ذراعها وراح يحكى لها وهما يتذمّرُان في حدائق القصر. قال لها:
- حبيبي، هنالك أحياناً أمور في الحياة لا يمكننا فهمها ولا تفسيرها. لقد عدلَتْ منذ زمنٍ طويلاً عن محاولة فهم كلّ شيء. كان والدي حكيمًا كبيراً ويقول لي دوماً: "الذكاء، يا بني، هو عدم فهم العالم". كان فيلسوفاً محبوباً من شعبه. أخيراً، في أحد الأيام، أهداه أحد الفلاّحين هذا الحمار عربون شكر على تدخله لإنفاق الحقّ في قضيّة سرقة أرضه. فوجئ والدي بهذه الهدية، فقال له الفلاح: "سيدي، هذا كلّ ما أملك. اسمح لي أن أقدمه لك. الآن وقد استعدت أرضي سيكون لدى ما يكفي لشراء قطيع. هذا الحمار كان ضائعاً وقد أويته عندي البارحة. وبما أنه حيوان جميل، أرجو أن تقبل مني هذه الهدية".

لم يكن الفلاح يعلم أن حماره يصنع ذهباً. لكن والدي شعر أن هذا الحمار مختلف عن سائر الحيوانات. وهو من أسكته في هذه القاعة وعيّن إبراهيم للاهتمام به.

عندما أخرج قطعاً ذهبيّة للمرة الأولى فقد إبراهيم وعيه، وسارعت زوجته إلى كبير الوزراء تطلب منه الحضور لمعاينة هذا الأمر الغريب. وعندما أبلغ والدي بالأمر لم يفاجأ، وقال لي: "كنت أعلم، لكنني لم أجرو على التصريح بذلك".

ولم ترد سندوس إلا بجملة واحدة:
- معك الحقّ، ولا أريد أن أفهم!

عندما ولدت شهرزاد أقام الملك احتفالاً دُعِي إليه كلّ الأزواج

الذين ولد لهم طفلٌ في اليوم نفسه. عَنْ القصر بالزوّار من مختلف الفئات الاجتماعية، وسخا الملك بلا حدود، لكن ليس من مال خزينة الدولة بل من مَدَخراته الخاصة. وقد استغرب البعض هذا القدر من الاحتفاء بولادة فتاة. لكن سرعان ما أعلن الملك وقف جميع أشكال التمييز التي تُمارس بحق المرأة، وعيّن مجلساً أعلى لإصلاح قانون الأسرة. ولم يرق الأمر لرجال الدين الذين لم يتردد بعضهم في التعبير عن ذلك، وبعبارات قاسية، في خطب صلوات يوم الجمعة. فاستدعاهم الملك وتلا عليهم بعض الآيات القرآنية التي لا يميّز فيها الله بين الرجل والمرأة، فتلا كبير الأئمة سنّاً بدوره آيات تؤكّد العكس. عندها تجرأ الملك على القول:

– طبعاً، لكن الله عادل وقد دعا إلى المساواة بين المؤمنين والمؤمنات.

أُقفلت القضية عند هذا الحدّ وأقرّ قانون العائلة الجديد بعد بضعة أشهر، بالرغم من أنّ بعض رجال الدين استمروا في الاعتراض عليه في الجوامع وداخل جمعيات الخير والفضيلة.

شعرت سندوس بالفخر لأنها ألهمت زوجها هذا القدر من الحكمة والطيبة. وقد ضاحت شهرزاد أمّها جمالاً وذكاء، وكان الملك يمضي بعض الوقت معها ويحكى لها القصص ويتنزّه برفقتها في حدائق القصر ويهتمّ بتربيتها عن كثب. وسارت كل الأمور على خير ما يرام.

كلّ الأمور ما عدا صحة سندوس. كانت تصاب بنوبات سعال وتفقد من وزنها. وهرع الأطباء من كلّ أنحاء البلد لكن وضعها

تدور يوماً بعد يوم، وراح الملك يحتجب عن الأنظار ليكفي في سرّه.

استقدم من الخارج أستاذة في الطب وأخصائيين في أمراض الرئة. لكنهم جميعاً عادوا أدراجهم معتبرين له عن أسفهم. استنفدت كلّ الوسائل، وتفاقم المرض وراحت سندوس تفقد حيوتها. ولم تعد حرارتها تنخفض حتى صارت المسكينة تغرق في هلوسات لا تنبئ أبداً بالخير.

وقييل أن تسلّم سندوس الروح حملت الملك وصيّة:

- سامحني لأنّي فارقتكم قبل الأوان بكثير، إنما الأعمار بيد الله العلي العظيم. أرجوكم أن تكمل حياتكم وأن تهتمّ بابنتنا الحبيبة كما كنت تفعل دائماً. والأهم أن تتزوج من بعدي...

فاعترض الملك باكيّاً:

- لا، أبداً، لن أتزوج ثانية أبداً، لن أستبدلوك أبداً. ما من امرأة جديرة بالنوم في سريرك...

- لا يا سيدي، ستتزوج مجدداً، إنما عدّني أن تكون أجمل وأفضل مني!

- لكن ما من امرأة أجمل وأفضل منك...

وكان آخر ما قالته سندوس:

- سامحني، في بوعدرك، المعدنة، سيدي، حبيبي... توفيت في منتصف الشتاء، والبلد تحت طبقة كثيفة من الثلج، وسادت الشعب حالة من الكآبة. توافت النساء من كل الطبقات إلى القصر لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليها. وخيم الحزن الشديد في

أرجاء البلاد. لم يعد الملك يخرج ولم يعد يجمع وزراءه ومستشاريه. امتنع عن استقبال أيّ كان. أحس بفاجعةٍ كبيرة ولم يعرف كيف يصمد في الحياة بعد هذه الخسارة.

من جهةٍ، توقف السيد حمار عن إعطاء الذهب وراح يكى بصمت. أما شهرزاد فسرعان ما استلمت زمام الأمور وحلّت مكان والدتها على رأس جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة. كانت جميلة ومفعمة بالحياة، رشيقه ومشرقه. ومع أن حزنها كان عميقاً وصادقاً، إلا أنها تخطّته بالعمل. وسرعان ما دفع هذا والدها إلى الخروج من حزنه ومواودة العمل لإنتهاء المشاريع التي بدأتها زوجته الراحلة. وبسحر ساحر عاد الحمار يعطي ذهباً مرة كل يومين.

مضى الوقت لكن ذكرى سندوس بقيت حيّةً كما من قبل. حتى أن الملك راودته بعض الرؤى، أي ما يسمونه اليوم بالهلوسات. وعندما ينظر إلى ابنته يرى زوجته الراحلة. بالطبع كانتا مشابهتين جداً إنما ليس لدرجة الخلط بينهما، ومع ذلك صار يهياً للملك أنه يرى قسمات زوجته ترتسم في ملامح ابنته. وعندما يحملها بين ذراعيه لمداعبتها كان يضمّها بقوّة لدرجة أنها تشعر بالانزعاج. وأدركت شهرزاد أن والدها بدأ يفقد اتزانه وصارت تتفادى معانقته. بدا واضحاً أنه لم يعد يداعبها كأب إنما كرجل يرغب في امرأة. وقد صعب عليها تقبل هذه الفكرة التي أدركتها بفضل ذكائهما وحدسها الصادق. لكن لم يكن عندها من ترکن إليه، وفي الليل يصيّبها الأرق وتفكر أن والدها العاجز عن نسيان زوجته قد يقترب يوماً ما وفي لحظة جنون ما لا يمكن إصلاحه. هذا تحديداً ما كانت تقوله في

نفسها في إحدى الليالي عندما سمعت طرقاً على الباب، فوقفت
وسألت:

– من هنا؟

جاوبها صوت امرأة:

– أنا شمسة، شمسة العجوز.

وسمسة جنية، وشهرزاد لا تعتقد بوجود الجنيات، لا بل كانت
تحذرهن. لكن شمسة اعتنى بها في صغرها وهي اعتبرتها كمربيتها.
– يا ابنتي، أعلم أنك لا تナمين. لقد أحضرت لك حشائش تغليّنها
وتشرّبّنها لتخلّصي من الأرق. وأنا أعرف لماذا تجدين صعوبةً في
النوم. أعرف كلَّ شيءٍ، لكن فلتنتظر ونرى. على أية حال، سأكون
هنا إن احتجتِ إليّ.

ثم غادرت وتناولت شهرزاد الشراب الساخن وغرقت في نومٍ
عميق.

في اليوم التالي، استدعى الملك ابنته ليتحدث إليها. حرصت
شهرزاد على تغيير مظهرها فصبغت شعرها الأشقر الرائع باللون
الأسود وارتدت ملابس مهملة وذهبت عند الملك كما لو أنها غريبة.
لكن بالرغم من حرصها على تبشير نفسها لم تنجح فعلاً في ذلك، لا
بل أن مظهرها المهمّل ترك وقعًا معاكساً لما كان مرجوًا. فقد أطلق
والدها صرخة استحسان وهو يفتح لها ذراعيه:

– لكنك أجمل من ذي قبل!

تراجعت خطوةً خشية أن يضمّها إليه بقوة، فقال لها:

– افتربي يا ابنتي، عندي ما أقوله لك.

جلست قبالته على كنبة وقالت خافضةً عينيها:

- كلّي سمعُ لك يا أبي.

- قبل أن تلفظ والدتك أنفاسها الأخيرة طلبت مني أن أتزوج مجدداً وأنا رفضت ذلك. لكنها أصرّت عليّ ووضعت هذا الشرط الصعب التحقيق، وهو أن تكون زوجتي الجديدة أجمل منها. وأنت تعلمين يا ابنتي العزيزة أنْ ما من امرأة يمكن أن تكون أجمل من والدتك.

فردّت عليه بنبرة جافةٌ:

- إذن لا تتزوج!

- يا ابنتي، لا تروقني هذه النبرة.

- عذرًا يا أبي. أكمل.

- لا يمكنني ألا أتزوج، وديننا يرغمي على ذلك وشعبي لِن يفهمُ الأمر... أعلم أنه يرغب أن أنجب وريثاً للعرش... لقد فكرت في الأمر وأجريت بعض التحقيقات في كل أرجاء البلد. من المستحيل إيجاد امرأة أجمل من سندوس. لكن منذ ليالٍ كنت نائماً وساورتني الفكرة التالية: ليس من امرأة سواك يا ابنتي تفوق سندوس جمالاً. فلك عيناها الواسعتان وهذا الشعر الرائع وقامتها الرشيقه الناعمه، وللك مشيتها وأناقتها وذكاؤها وروحها المرحة. باختصار، لديك كل شيء منها وأنت الجديرة بتمثيل جمالها وطبيتها، ولذلك قررت أن أتزوجك.

نقرت شهرزاد من هذه الكلمات، فنهضت وهربت باكية. تحدّث الملك مع فقيهٍ موقدٍ من مكة. فزواج الرجل بابنته أمرٌ

يحرّمه الدين. وأفهمه هذا الأخّاصائي أن ذلك يتعارض مع كلّ الشرائع وقد يتسبّب بکوارث طبيعية كالزلالز أو الفيضانات التي قد تتسبّب بتدمير البلد نهائياً. ثمّ استشهد بالآية ٢٣ من سورة "النساء": ﴿هُرَمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ...﴾.

حاول الملك، وهو يعي وقاحة قراره، أن يُقنع الإمام أن شهرزاد ليست ابنته وأن سندوس وصلت حُبلى إلى القصر. وانتهى به الأمر أن صدق كذبته وأشاع الخبر أنه قرر الزواج من شهرزاد بعد أن اكتشف أنها ليست من ذريته.

كان مُصمّماً بقوّة وأجرى تحقيقاً في عائلة زوجته للتأكد من صحة أقواله. عاد الرجال الذين أرسلوا الاستقصاء ومعهم اسم وعنوان والد شهرزاد المزعوم، وهو يتيم من أقرباء سندوس ترعرع معها واستغلّها عند بلوغها سن النضوج.

حيكت الدسيسة بكلّ براءة، لدرجة أن أحداً لم يعد يلوم الملك، خصوصاً وأن ابنته كانت تطابق بحملها الشروط التي وضعتها المرحومة. وحدّهم رجال الدين عبّروا عن استيائهم لكن لا أحد منهم تجرأ على معارضته الملك. إلا أن أحدهم، وهو بمثابة عميدهم، اقترح على الملك الحل التالي:

- شهرزاد ليست ابنته ولا ابنة زوجتك الراحلة. أنت وجدتها في أحد الأيام موضوعة في سلة على عتبة القصر. تبنيتها من باب

الإحسان ولأن قلبك لا يتحمل رؤية طفلة بريئة مرميّة. وإذا كان لا بدّ، يمكنك الزواج بها لكن شرط إقامة الدليل على أنها قادمة من بلد بعيد.

أعجب هذا الطرح الملك وقرر تبنيه.

لكن شمسة، البعيدة عن القصر آنذاك، استشعرت أن أموراً غريبة تُحاك وأن الصغيرة بحاجة إليها، فقصدت القصر ووجدت شهرزاد في حالة مُزرية، تبكي مُنتحبةً وترتجف ممزقةً ثيابها.

- لا تخافي يا ابنتي، عندي خطّة تنذك من هذه الأحابيل. ثقي بي وحسب وسترين أن الزواج لن يتمّ أبداً. في البداية، غيري تصرفك وأطيعي والدك. لكن بما أن والدتك وضعـت تلك الشروط، عليه في النهاية، إن كان يصرّ على هذا الزواج الشاذ عن الطبيعة، أن يتلزم بها. وهذا يتطلّب وقتاً. نعم، الوقت هو الكفيل بإنقاذنا!

عندما سمعت شهرزاد هذا التعبير من شمسة كفت عن البكاء ومسحت دموعها وابتسمت، لأنها حدت أنها ستفلت من هذا الفخ. الأمر يتطلّب منها أن تناضل وألا تجاهـه الملك مباشرةً، بل أن تلعب لعبتها بمهارة لتجعلـه يعدل عن هذا العمل الجنوني.

- يا ابنتي، اذهبـي وقابلـي والدك. قولي له إنك قررتـ أن تخضـعي له وتـعطيـه، وبكلـ لطف اشتـرطـيـ عليهـ، لـقبـولـ طـلـبـهـ، أـنـ يـؤـمـنـ لـكـ ثـوـبـاـ عـجـيـباـ، وـلـيـسـ المـهـمـ نـوـعـ الـقـمـاشـ إـنـمـاـ المـهـمـ أـنـ يـكـونـ بـلـوـنـ الطـقـسـ.

انشـغلـ بالـشـهـرـزـادـ وـرـمـقـتـ الـجـنـيـةـ العـجـوزـ بـنـظـرـةـ قـلـقـةـ.

- يا ابنتي، مهما كانت ثروة الملك، ومهما كانت سلطـتهـ كبيرةـ، لـنـ يـتـمـكـنـ منـ إـيـجادـ ثـوـبـ بـلـوـنـ الطـقـسـ.

أطلعت شهرزاد الملك على طلبه فلم يفهم ما هو هذا اللون واستدعي كل كبار خياطي العاصمة وأمهلهم أربعاً وعشرين ساعة ليأتوه بهذا الثوب.

كان بين الخياطين شخص يهودي يُدعى عمران الكوهين، حذر على الفور ما هو لون الطقس. فانسحب إلى مشغله وجمع على الفور عدّة أقمشة مختلفة الألوان تعكس تماماً ألوان السماء في ذلك اليوم، وفيها الأزرق اللازوردي الناعم والأبيض المائل إلى الرمادي لتمثيل الغيم، والأبيض السكري للربط بين الأبيض والرمادي. فُصل الثوب وخيط بخيطان من ذهب. فهذا الخياط الذي ينتمي إلى عائلة كبيرة من يهود إسبانيا الذين طردتهم إيزابيل الكاثوليكية العام ١٤٩٢، والذين تخصصوا في الحرير والخيطان الذهبية، كان الوحيد في العاصمة الذي يملك منها.

وصل عمران إلى القصر فسارع الملك إلى استقباله واستدعي ابنته. أعجبها الثوب كثيراً وشكرت الخياط قبل أن تنسحب لتجتمع بشمسة التي كانت تنتظرها في الغرفة المجاورة. في الواقع، كان الثوب يتتطابق مع ألوان الطقس في ذلك اليوم. فتنهدت شمسة عميقاً لكنها قررت عدم الاستسلام.

- يمكنك أن تقولي ليس هذا لون الطقس، لكن هذا لا ينفع إذ إن هذا الخياط سيتدبر أمره لا يجاد حلّ. لذا ستطلبين منه ثوباً أكثر لمعاناً مصنوعاً من قماش غير عادي، مثلاً حرير مستورد من البلد الذي يقع على قمة أعلى جبل. ثوب له بريق القمر ولون المجرّة.

كررت شهرزاد الكلمات نفسها على الملك الذي استدعي كبير

حاخامي المدينة وأمره بإيجاد خيّاط موهوب أكثر من عمران وأن يأتي به بأسرع ما يمكن.

كان كبير الحاخامين حريصاً على المحافظة على العلاقات الجيدة التي كانت قائمة آنذاك بين اليهود والمسلمين، فذهب لمقابلة موشيه، المطّرِّز والخياط الأكثر مهارةً في الطائفة اليهودية. كان طاعناً في السن وتوقف عن العمل، لكن لم يكن بإمكانه رفض طلب الملك الذي طالما ساعد وحمى اليهود المولودين في هذا البلد. فرافق الحاخام الكبير وأنصب إلى أوامر الملك، وكرر وراءه:

- ثوب حريري من أعلى الجبال بلون القمر والمجرة... حسناً سيدى، اعتبر الأمر حاصلاً، حفظك الله وأطال عمرك...
بعد يومين، كان الثوب جاهزاً، أكثر لمعاناً من القمر ونجومه، ومن حرير ذي نعومة لا تُضاهى. سرّ الملك وأمر بإعطاء موشيه كيساً صغيراً من قطع الذهب، فرفضه هذا الأخير قائلاً:

- سيدى، خدمتك كانت من دواعي سروري. لا أريد أن أفسد هذا السرور والفرح بقطع من الذهب. أرجوك سيدى أن تعذرني. يمكنك أن تمنع هذا المال لمن هم بحاجة إليه أكثر مني، مع أنني أعلم أن ابنتك تهتم أساساً كثيراً بالمحجاجين وتبذل الكثير لتحفّف عنهم وطأة العيش. أشكرك سيدى.

تأثّر الملك بردة فعل موشيه وأرسل أفضل عماله للمباشرة بترميم كنيست من الكُنس العشرة الموجودة في العاصمة. وبدا هذه المرة مقتتناً بأن شهززاد لن تجد ما تعرّض عليه بعد. وبالفعل، ذهلت بجمال ولمعان الثوب. فما الذي يمكنها اختراعه لتعجزه؟ انسحبت

متذرّعةً بتجريب الفستان وذهبت للتحدث إلى الجنية التي نصحتها بعدم الاستسلام والمطالبة بأشياء يصعب إيجادها أكثر فأكثر. ونصحتها أيضاً بالاستمرار بادعاء الرضى والتصرف كفتاة صغيرة مطيبة ومصممة على إسعاد والدها. قالت لها: "الحيلة يا ابنتي، الحيلة كفيلة بإنقاذنا أيتها الأميرة!".

ذهبت شهزاد إلى الملك وقالت له:

- شكرأً يا أبي على هذا الثوب الرائع. أنا في غمرة السعادة. لم أعتقد أن بالإمكان إبداع مثل هذا الجمال.

- حسناً أيتها الأميرة! ألم يعد هذا الزواج يخيفك؟

- آه يا أبي، أنا مضطربة جداً، لكتني سمعت أنك قد لا تكون أبي الحقيقي. لو كان هذا صحيحاً لا شيء إذاً يمنعنا من الاحتفال بزفافنا. لكن قبل ذلك أودّ، إلى جانب الثوب بلون الطقس والثوب بلون القمر، أن أستكمل مجموعتي بثوب من لون الشمس، لكن ليس الشمس العادية، بل تلك التي تولّ الشعاع الأخضر، تلك التي قبل مغيبها بلحظات تبعث السعادة في قلب من تتمنى لهم رؤيتها.

- سأحقق لك ذلك يا أميرتي.

استدعي الملك هذه المرة ساحرّة هي الأكبر سنّاً والأكثر فجوراً وبشاعةً والأشدّ فعاليةً بين كلّ ساحرات البلد. جاءت من أقصى الجنوب، وعندما وضعت بقاحتها أرضاً خرج منها أفاع وعقارب ونمل ضخمة سوداء حيناً وصفراء حيناً آخر، وصرّاصير ذات مجسّات طويلة. ثم صرخت فيها بلغة مجهولة فعادت على الفور إلى كيس الخيش.

- لا تحف يا سيدى، هؤلاء أولادى. يحبّون أن يعرفوا أين هم.
مُرْنِي، أنا تحت أوامرك سيدى.

نصحها الملك أولاً أن تحسن تربية "أولادها"، ثم قال لها إنه
بحاجة إلى ثوب بلون الشمس عندما تبعث الأشعة الخضراء. نظرت
إليه و مطّلت شفتيها استياءً وقالت:

- استقدمني من آخر الدنيا من أجل ثوب! يا سخرية الزمن! ما
من أحد للقضاء عليه أو تعذيه أو حتى تنكده. مجرد ثوب... ولمن
هذا الثوب المميّز؟ هل أنت مجرم مجددًا، سيدى؟ سبق أن نبهتك إلى
ضرورة اتقاء جنس النساء، وإلى أنه خطير كالطاعون وجذاب كلمعان
الأفعى عندما تتشمم. أما عن هذا الثوب، فالأمر صعب، ليس هذا
من اختصاصي. أنا فعالة أكثر في مجال الأذى، لكنني أعرف مبتدئةً
في هذه المهنة قادرة على نبش ما تبحث عنه. امنحني بعض الوقت
للاتصال بها وستحصل على ما تريده. على فكرة، من مصلحتك أن
تتصل بي من وقت إلى آخر، فأنا متعطلة وفي حال لم أمارس المهنة
قد أخسر رخصتي. أعني، قوّتي. قل لي سيدى، ألا تريدينني أن أهتمَّ
بالمخادع الكبير الذي سرق المالك وأجرى صفقات باسمك؟ أو دَّ
كثيراً أن أعدّه وأن أذيب الحجر الأسود الذي يحمله مكان قلبه.

غادرت القصر وذهبت على ظهر حمار كان ينتظر قدّام الباب. بدا
حماراً واهناً عاديًّا بسيطاً وخائراً القوى. لكن ما إن امتنعته الساحرة
حتى اجتاحته طاقة مفاجئة وراح يعدو بسرعة فاجأت الجميع. ولم
تلبث أن وصلت أمام مقبرة وتشاورت مع حارسها، فخرجت عندها
صبيةٌ من أحد القبور حيث كانت تنام وسألت عما يجري. عرفت

معلمتها فانحنت إكراماً لها.

- ثوب بلون الشمس... حسناً سيدتي، يمكن أن يُنفذ فوراً.

بعد ساعات مثلت الساحرة أمام الملك حاملةً ثوباً بهرء ضوءٍ لدرجة أنه آلم عينيه واضطرّ أن يميل بنظره عنه. كان يلتمع لدرجة أنه لم يعد هنالك حاجة لإشعال أضواء القصر. الآن لم يعد بإمكان شهرزاد أن تقول شيئاً. فقد حصلت على أثوابها الثلاث وتحقق كل أمنياتها، وبات عليها إيجاد شيء آخر لمنع هذا الزواج. كانت الجنية في تلك الأرجاء وقد راودتها فكرة جديدة. دنت من شهرزاد وهمست في أذنها:

- اطلبني منه جلد الحمار!

تراجعت شهرزاد وطلبت من الجنية أن تشرح لها، فقالت شمسة:

- حاولنا كل شيء، ووجد لكل شيء حلّاً. الآن، سنضرب صندوق ماله. إن طلبت منه إهاب السيد حمار كنزوة من أميرة شابة، سينخدع: فإذا أعطاك إياه يحرم نفسه من كل موارده. لكن حتى وإن كان مصرّاً على هذا الزواج مهما حصل، فلديه ما يكفي من الذكاء كي لا يتخلّى عن هذا المصدر الذي يدرّ عليه أموالاً هائلة، أقله ليؤمن لك حياةً تليق بك كأميرة عظيمة. أما إذا انصاع لرغباتك الجديدة فلدي خطّة أخرى.

كان هيام الملك بلا حدود، وكان مستعداً لكل شيء من أجل الزواج بشهرزاد الجميلة، ولذلك وافق بلا تردد على التضحية بالسيد حمار بعد أن أفرغه من آخر نقوذه الذهبية. ثم أعطى الأوامر بتنظيف إهابه جيداً وبتطهيره خصوصاً من روائحه الكريهة. وهذا يتطلّب

وقتاً، ووافقت الأميرة على الانتظار فيما راحت الجنية تعرض عليها خطتها:

– اسمعي، وضبي أغراضك، خصوصاً أثوابك الجميلة في حقيقة.
لن تضطري إلى حملها، سأعطيك عصاً سحرية وسترين كيف تلتحق
بك الحقيقة كما لو أن يداً خفية تجرّها. ستكونين داخل إهاب الحمار
مكسوّة بالكامل. ترتدينه كجلابة قديمة، كنوع من عباءة تخفي كلّ
شيء. عموماً، عندما يلتقي الرجال نساء محجبات بهذا الشكل من
رؤوسهن إلى أقدامهن فهم لا يتجرأون على مكالمتهن ولا حتى على
النظر إليهن. قد يعتقدون أنك امرأة خاضعة لأب أو زوج متغصب.
لا مشكلة في ذلك فالتهم هو أن هذا التنكّر سيمعن شرطة والدك
من العثور عليك. وفي حال شعرت بالضجر، أسمح لك باللّعب
بعصائي. لكن انتبهي جيداً، يكفي أن تقومي بحركة واحدة في غير
مكانها كي تعيدك إلى القصر. هذه العصا تفعل العجائب لكن يجب
أن تتقني تشغيلها.

اغتنمت شهرزاد حلول الظلام لتهرب. لم يرها الحرّاس وهي
تخرج. وكانت الحقيقة تتبعها من دون أن يلاحظها أحد. لم يعلم
الملك باختفاء الأميرة إلا في اليوم التالي. جنّ جنونه وأمر جميع
رجاله بالذهاب للبحث عنها واعداً إياهم بمكافأة جميلة. وبقي
وحده في قصره يذرع المكان ذهاباً وإياباً ويضرب أحياناً الجدران
بقبضتيه.

في وقت متأخر من الليل دخل مسجد القصر وتلا عدة صلوات.
راح يحكى كيما كان، خالطاً بين الآيات القرآنية والحديث النبوى

الشريف. وقف عاد فسجد وهو لا يدري ما يفعل. فاجأه أحد الأئمة في هذه الحالة وطلب منه التمدد لحظةً وذلك ظهره ورقبته المشتَجتين للغاية. كان يهدي وآثر الإمام صمّ أذنيه عما كان يقوله بحق الدين.

- يا ابنتي، يا أميرتي، يا زوجتي، يا حبيبي، يا حبي، أين أنت؟ حبي لك لا حدود له وناري لن تهدأ إلا عند عودتك. إن أردتِ يمكننا الزواج بلا ضجة. نبقي ذلك بيتنا، سرّنا وحدنا، يا ابنتي وخطيبتي المميّة، يا حبي، يا جنوبي، يا صلاتي التي لم تستجب. أنت السبب الذي لأجله أحيا. عودي، أنا لك وسوف أنتظرك...
ل الجهات شهزاد إلى مزرعة كبيرة فيها معرض حيوانات. وكان الحاكم عندما يذهب إلى الصيد يتوقف فيها أحياناً ويروح بعض أسراره للـ“ماما”， المزارعة العجوز المعروفة باتقاد ذهنها وإيجاباتها الجريئة. وما إن رأت الماما تلك المرأة المسكينة الملتفة بجلد حمار حتى ألمحها حدسها أنها هاربة وأن عليها مساعدتها. لم يكن من الشائع التفكّر بهذا الشكل. لا شكّ أن هذا المظهر المقرّر يخفي وراءه شيئاً ما. كانت الماما تتمتع بقلبٍ كبيرٍ وحدسها لا يخطئ أبداً. فأخذت على عاتقها حماية شهزاد من دون أن تطرح عليها أي سؤال. قالت في نفسها: “إن رغبت في البوح بسرّها لي أنصت إليها. أما حالياً فلنعطيها شراباً ساخناً وصحناً من العدس”. كانت شهزاد منهكة فغفت على الفور في الكوخ المخصص للصيادين. في اليوم التالي طلبت الاغتسال لأن رائحة جلد السيد حمار بالرغم من تنظيفه ظلت كريهة تستميل الذباب المؤذي جداً، والذي لم يكتف

بعضه بلسعها بل كان يطيب له أن يوشوها في أذنها بإهاناتٍ من نوع: ”عار عليك!“.

دعتها الماما إلى الاستحمام في الحمام العائلي. هناك، لاحظت النساء الجمال الممّيّز لهذا الجسد الضامر والممشوق. عرفت الماما فوراً أنها تنتهي إلى عائلة ذات شأن. بعد الحمام، لبست شهرزاد الثوب الذي بلون الطقس، فبدت خلابةً وخرج سكان المزرعة لتأملها.

صادف ذلك في الصباح المعتاد لخروج أمين، ابن الحاكم البكر، إلى الصيد وتعرّيجه على المكان ليلقى التحية على الماما. وعندما رأى شهرزاد انقطعت أنفاسه للحظات. لم يسبق له أن رأى صبية بهذا الجمال تُشرق بنورٍ ممّيّز يهير كلَّ من يحدّق فيها. ألقى الشاب أغراضه وأسرع إلى الماما يسألها عنها:

- من هي؟ أتعرفين من أين هي؟ ما اسمها؟

- لا أعرف شيئاً يا صغيري. كلَّ ما أعرفه أنها وصلت البارحة إلى هنا ملتفةً بإهاب حمار. وفي تنكّرها هذا ما يشير إلى أن قصتها معقدة. لكن هدئ من روحك، إن هي إلا امرأة جميلة، وأنّت فقدت توازنك.

- نعم يا صديقتي، لعلَّ سهماً أصابني في الصميم!

- آه توقف عن قول الترهات... أعتقد أن لا شغل لكيوبيد إلا إرسال أحد سهامه إليك؟ يُقال، كما تعرف، إنه أضاع قوته في الاحتفال الأخير. لم يعد لكيوبيد وجود. تعالَ ساعدني على ذبح هذا العجل، يجب التحضير لاحتفال نهاية الشتاء. غداً تصلنا الشمس،

أحسّ باقتربها من المزرعة. انظر إلى السماء كيف تنقشع غيموها أسرع من العادة. غداً سيكون نهار الأنوار. لقد دعوت أهلك. ستأتي معهم وأعرّفك بالحسناء المجهولة.

في اليوم التالي خرجت شهزاد مرتديّة الثوب الرائع بلون القمر، كما وضعت بعض حلّيّها. وقد وضّبت إهاب الحمار بعنابة في حقيقة على أساس أنها قد تحتاجه مرّة أخرى. وقد أصبحت حذرة وبدأت تشلّك بطبيعة الناس الطبيعية. عندما تفكّر في والدها ترى الحياة مكتفّهّةً وسط عاصفة عاتية وتشاهد في البعيد جسد والدتها وهي تلوّح بذراعها كمالاًً كانت تغرق وتطلب النجدة. طغت عليها أفكار سوداوية جداً، خصوصاً في الليل قبل خلوتها إلى النوم. في تلك الليلة، راودها حلم تختلط فيه صور ربيع بصور أخرى تتکسر في الظلماء إرباً وتنقضّ على الناس فتعيمهم. كانت تدور وسط هذا العالم الذي يتصادم فيه الخير والشرّ. وقد جسّدت تلك الأحلام والكراسي حالة القلق القصوى التي تعيشها.

استيقظت ووجهها يتصبّب عرقاً وحلقها جاف ويداها ترتجفان. عليها بأي ثمن الخروج من هذا الحلم فقررت ألاّ تعود إلى النوم. تبرّجت على عجل وانتظرت شروق الشمس، فنّاثت إليها زفقة العصافير تذكّرها بأمّها عندما كانت تتنزّه في حدائق القصر، وفّكرت: “هذه إشارة جيدة“.

في ذلك الصباح، صفت السماء، وتمكّنت شهزاد من إبعاد شبح الكابوس عنها وصورة ذلك الأب الذي فقد رشه وحاول ارتكاب المعصية الكبرى. ولا بدّ أنها، وعن غير قصد، لمست العصا السحرية

التي تركتها لها الجنية شمسة لأن الماما وصلت فجأةً تسألاها:

- بمِ أَخْدَمْكَ يَا سُموَ الْأَمِيرَةِ؟

- حَقًاً، أَتَعْرِفُنِي مِنْ أَكُونِ؟

- لا أَعْرِفُ تَحْدِيدًاً مِنْ تَكُونِنِي، لَكِنْ كُلَّ مَا فِيكَ يُوحِي بِأنِكَ أمِيرَةٌ. حضورُكَ، لِبَاسُكَ، نظرُكَ، وَهَذَا الصَّوْتُ الْفَائِقُ الْعَذُوبَةُ... مُشِيتُكَ الْأَنْيَقَةُ الَّتِي يَحْلُو تَأْمِلُهَا... إِرْوَى لِي قَصْتُكَ. مَا الَّذِي حَصَلَ لَكَ وَأَوْصَلَكَ إِلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟

أَحْسَستَ شَهْرَزَادَ بِالْأَمَانِ لَأَنَّ الْعَصَا اقتربَتْ مِنَ الْمَامَةِ. أَخْبَرَتْهَا كُلَّ شَيْءٍ كَمَا لَوْ كَانَتْ طَبِيبًا رُوحِيًّاً أَوْ قَدِيسَةً مُسْتَعِدَّةً لِمُسَاعِدَتِهَا. وَعِنْدَمَا أَنْهَتْ شَهْرَزَادَ قَصْتَهَا حَارَتِ الْمَامَةُ فِي مَا تَقُولُ بِفَعْلِ الصَّدْمَةِ، فَضَمَّتِ الْأَمِيرَةَ وَهَمَسَتِ فِي أَذْنِهَا:

- أَيْتَهَا الْأَمِيرَةُ، أَنْتَ هُنَا بِأَمَانٍ! وَلِيَذْهَبَ وَالدُّكُّ إِلَى الْجَحِيمِ إِلَّا إِذَا عَدَلَ عَنْ رَأْيِهِ وَثَابَ إِلَى رَشْدِهِ. مَا مِنْ مَجَمِعٍ فِي الْعَالَمِ يُسَمِّحُ بِهَذَا النَّوْعَ مِنِ الرِّيجَاتِ، رَبِّمَا الْحَيَوانَاتُ لَأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ مَاذَا تَفْعَلُ، أَمَا نَحْنُ الْبَشَرُ فَقَدْ أَسْتَسِنَّا مَجَمِعَنَا عَلَى أَسْمَى الْمُحَرَّمَاتِ. هَذَا مَا يَمْيِّزُنَا عَنِ الْحَيَوانَاتِ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ لِمُخَالَفِي مُشِيتِهِ حَيَاةً أَبْدِيهَ فِي الْجَحِيمِ. لَا بدَّ أَنَّ الشَّيْطَانَ سَكَنَ وَالدُّكُّ إِلَّا إِذَا كَانَ وَاقِعًا فِي شَرِكِ نَصْبِتِهِ لِهِ سَاحِرَةً تَعْمَلُ لِمَصْلِحَةِ أَعْدَائِهِ.

نَصَحَّتِ الْمَامَةُ شَهْرَزَادَ بِالْبَقَاءِ مُحْتَجِبَةً فِي الْمَطْبَخِ لِتُنْتَصِرَ فِي هِيَ إِلَى تَهْيَةِ النَّاسِ لِظَّهُورِهَا عَلَيْهِمْ. وَاقْتَرَبَتْ شَهْرَزَادَ تَحْضِيرُ الْخَبَزِ لِلضَّيْوفِ، فَأَمْنَتْ لَهَا الْعَجُوزَ مَا تَحْتَاجُهُ وَتَرَكَتْهَا تَحْضِيرُ الْعَجِينِ بِمَفْرَدِهَا.

انكبت شهرزاد على مهمتها بكل جوارحها وبدت سعيدةً جداً بذلك. لم تعد تفكّر بالليلة المروعة التي مرّت عليها. وبعد قليل انتبهت إلى أنها أضاعت الخاتم الذي تركته لها أمّها، فراحت تبحث عنه كالمجنونة لكن أقراص العجين قد أصبحت في الفرن. وتذكّرت أسطورةً روتها لها خالتها العجوز تقول إن مَنْ يجد هذا الخاتم سيصبح زوجها. فذعرت وهي تفكّر بكل الرجال السيئين، جميع الرجال الجشعين والأشرار الذين قد يجدون هذه الحلية وهم يأكلون فيتقدّمون بعدها للزواج بها. أطلعت الماما على قلقها، فوُجِدَتْ هذه الأخيرة في ذلك الفرصة المرجوة لكي يقع الخاتم بين يدي ابن الحاكم، هذا الشاب الجميل والعظيم الرفيع المستوى المتوقع له وظيفة مهمة في السلك الدبلوماسي. وقبيل توضيب الأرغفة المائة المخبوزة تحقّقت منها واحداً واحداً إلى أن وجدت الخاتم الرائع في أحدٍ فوضعته في جيبيها وخرجت لاستقبال الزوار. في غضون ذلك طلبت من شهرزاد ارتداء ملابسها والانتظار إلى أن يأتي من يأخذها.

عند الظهر وصل الضيوف. توقف الحاكم وابنه لإلقاء التحية على الماما التي اغتمنت الفرصة لتدسّ قطعة الخبز في جيب سترة الشاب الذي فوجئ بذلك وسألها عن سبب مبادرتها هذه، فانفردت به وشرحـت له عما تأمل أن يحصل. وبين التشوق والذهول طاب له الأمر.

ثم أوضحت له قائلةً:

- بعد الغداء، ستمرّ أمّاك بعض الصبايا لتجربة الخاتم. ومن

يطابق الخاتم إصبعها تكن زوجتك العتيدة. وإن ساء الأمر ولم تكن الصبية متحللةً بالمواصفات التي تتوقعها من امرأة، يحق لك إبطال اللعبة، لكن للفتاة عندها حق الاحتفاظ بالخاتم المرصع بحبات الماس نادرة.

بدأ استعراض الفتيات قبل تقديم أقران الحلوي بالحليب واللوز بقليل، تلك التحلية الخفيفة والشهيّة. ومررت الأصابع، منها التخين جداً ومنها الرفيع جداً ومنها الملتوى لكرّة العمل. عندها أرسلت الماما خادماً ليأتي بشهرزاد التي وصلت وهي تمشي على رؤوس أصابعها كما لو أنها تخشى إتلاف كلّ ما تلمسه. مدّت يدها إلى ابن الحاكم خافضة العينين، فانزلك الخاتم حول إصبعها كما لو أنه في مكانه المعتمد. وعندما التقت نظراتهما لبنا متسمرين لفترة طويلة، غافلّين عن كلّ ما يجري حولهما، لا يسمعان لا الموسيقى ولا صخب الضيوف، كأنهما وحدهما في هذا العالم، كما في الحلم أو في عالم آخر. وقد أحستا على الفور أنهما منذوران واحدهما للآخر. ولم يفهم والد الشاب ما يجري، فمالت الماما إليه وطمأنته. لكن ابنه كان منتقلًا إلى عالم آخر.

كاد أن يُغمى عليه. بدا شاحب اللون فقد القدرة على الكلام. فأوزع إليه والده بالذهب لوضع رأسه تحت المياه الباردة والانتظار قليلاً. فقد انفعل كثيراً للدرجة أنه فقد قواه وتركيزه. فانسحب على الفور. ولاحظت شهرزاد كم أن هذا الرجل حساس وظريف، فطلبت من الماما إطلاعها على قصته.

- اطمئني، إنه طبيعي جداً لكنه بكل بساطة انبهر بجماليك

وتداعت قواه. إنها ردة فعل معروفة بـ“تنادر عبلة”， تلك الملكة ذات الجمال الأسطوري الذي كان يتسبب بإغماء الرجال عند اقترابهم منها. أمضت كل حياتها وحيدة لأن كل الرجال كانوا يفقدون قواهم وهيبتهم أمامها.

شعرت والدة الشاب بالقلق، وبعد أن استخبرت عن أصول تلك الحورية أمرت ابنها بالابتعاد عنها:

- هي ليست من طبقتنا ولا نحن من طبقتها. ونحن لا نختلط مع هذا النوع من الأشخاص ذوي الأصول المجهولة.

بعد عودتهم إلى قصر الحكم أصيب الشاب بنوبة بكاء، واختبأ كي لا تراه والدته في هذه الحالة ولم يخرج من غرفته إلا في منتصف الليل فيما الجميع نائم. جال في الحديقة روحًا متألمة بكل معنى الكلمة. كان القمر بدرًا يضيء السماء حيث تتلألأ النجوم وتترافق الكلمات. كان القمر بدرًا يضيء السماء حيث تتلألأ النجوم والروح كما لو كانت تدفعه إلى المضي قدماً والتحلي بالجرأة للذهاب والبُوْح بحبه للحورية الجميلة المجهولة. لم يتمكن من إقناع نفسه بالتعقل وراح يترصد الإشارات التي سترسلها له السماء، وذهب أخيراً إلى المزرعة حيث راح يترقب بزوع الفجر للقاء شهرزاد.

لم تخرج الجميلة المجهولة من مخيّتها. عاد الشاب محبطاً إلى القصر وتوسل إلى والده أن يذهب ويطلب يد شهرزاد. اعترضت الوالدة بحجّة أنهم لا يعرفون شيئاً عن حياة تلك الشابة، ويجهلون من هم أهلها ومن أين وما سرّها.

- حذاري، حذاري! الزواج ليس فقط ارتباط بين شخصين بل هو أيضاً ارتباط بين عائلتين. لكن أين عائلتها؟ ممن تقدم بطلب يدها؟

أيد الوالد رأيها، فالقضية ليست بتلك البساطة، وأرجأ مشروع زيارة الصبية.

في غضون ذلك استمرّ الملك في أعمال التفتيش عن الأميرة، ولهذه الغاية أوفد رسولاً إلى حاكمه يطلب منه مساعدته على إيجاد ابنته. أعطاه مواصفاتها وذكر أنوابها المختلفة بلون الطقس والقمر وغيرها. كما تحدث عن خاتم مميّز مرصّع بالياقوت الأحمر والألماس. وهذه الملاحظة هي التي أثارت شكوك الحاكم. وقبل أن يحملّ الرسول جوابه، قصد مزرعة الماما وطلب مقابلة الفتاة الفارّة. لم يعد بالإمكان إخفاء الحقيقة. أطلع الحاكم على القضية، ومن دون أن يحكم على رغبة الملك في الزواج من ابنته قرّر تسريع الأمور، فسأل الماما إن كان بإمكانه إطلاع الملك على مكان وجود ابنته وبأنه يسمح لنفسه بطلب يدها لابنه البكر أمين، فوافقته الماما الرأي.

إذاك نصّ الحاكم رسالةً جميلةً إلى الملك وسلمها إلى الرسول. وعند إطلاعه زوجته على ما اكتشفه للتو سقطت كلّ أحكامها المسبقة وراحت تغنى محتفلةً بالخبر السعيد، فابنها سيتزوج بأميرة! شعر الملك بسعادة غامرة عندما علم أن ابنته بخير، وأنها إضافةً إلى ذلك مغمرةً بابن الحاكم، وأحسَّ فجأةً أن حملَ سقط عنه وسائل الله أن يسامحه على ضلاله الذي كاد أن يودي به إلى الجحيم حيث كان ليخسر روحه وحياته. لكن الصلوات وحدها لا تكفي، فقد كان عليه محظوظٌ بمشروع العار وإعادة الطهارة والطبيعة إلى علاقته. ومن غير ابنته لتخلصه من عذاباته. تطهير النفس من النيران التي عاثت

بها فترةً وإطفاء شعلة الحب الماكرة التي استحوذت على قلبه وعقله، ليعود أباً من جديد قبل أن يكون ملكاً ويظهر بوجهه جديد، فيكون التواضع والحكمة رمزاً هوبيه المستعادة، هوية والد العروس التي سيساعده ذكاها ولباقتها على التخلص من تلك الذكرى المرؤعة. الكل احتاج بعض الوقت. الملك كي يستعيد كرامته، وابنته كي تعتاد على هذا الأب الجديد، والحاكم وزوجته كي يستعدا لأجمل حفل زفاف.

ما كاد الملك يتوضأ ويستعد للصلوة حتى ظهرت له الجنية العجوز الشيرية وقالت:

- أما زلت لا تحتاج خدماتي؟

ثم أطلقت حيواناتها الجائعة وأخرجت من تحت ثوبها الوسخ سوطاً صفت به. فخاف الملك ووجد نفسه عاجزاً حتى عن طلب النجدة.

- نحن لوحدينا الآن. أنا مؤذية، مؤذية جداً، وأنا هنا لأنني علمت أنك ستعدل عن زواجك بابنتك! يا لها من خيانة! أنا من زرع تلك الفكرة في رأسكوها أنك تتخلّى عنّي، تتركني لتعود أباً، لتعود رجلاً وملكاً محترماً. لن تمرّ الأمور بهذا الشكل. أنت تدين بالطاعة لي. راح الملك يصلّي في صمته كي يغادر الشيطان المكان. أغمض عينيه وتتوسل إلى الله أن ينجده. وجلست العجوز على العرش وبالتالي عليه. سائل أخضر مائل إلى الأصفر راح يقطر من الكرسي الملكي. لكن الملك تذكر فجأة أنها لا تحمل رائحة بخور الجنة، فسارع إلى مخبأ وتمكن من إشعال عودٍ من الصندل يُستخدم في مناسبتين

خاّصتين جداً، المأتم والزفاف. انتابت العجوز نوبة سعال وسرعان ما فقدت قدراتها، ثم التهمها “أولادها” الذين كانوا يتظرون تلك اللحظة منذ زمنٍ طويٍ ليثأروا من تلك الأم الحقيرة التي جعلت الشر شغلها الشاغل. لم يعد هنالك على الأرض وعلى العرش سوى الرماد. قرع الملك الجرس مستدعاً أحد الخدم الذي نظف الغرفة بما سمح للملك بالتوهُّن وشكّر الله على إنقاذه. وسمع إذاك صوتاً يقول له بصوٌت خافت: “الله أو العقل”.

باستثناء الجنية شمسة والماما، لم يطلع أحد على تلك القضية الخطيرة. وسُيرت شائعات عن أن شهرزاد غادرت بحثاً عن المغامرة لتخبر حياة الناس البسطاء، لأن الحياة في القصر تأسراً في رفاهية تعزلها عن الواقع. وكيف لا يتم التعرّف عليها وإعادتها فوراً إلى القصر، خطرت لها فكرة التفكير بإهاب حمار كان قد مات للتو، فطلبت إعداد الإهاب لها ولبسه كالمعطف مخفيةً بذلك هويتها الحقيقية. عندما وافق والدها على قتل السيد حمار الذي كان يأكل العشب و“يتغوط قطعاً ذهبيةً”， كما كان يُقال في أوساط الشعب، فعل ذلك من دون تفكير لأنه كان فريسة نزوة مقيمة منحرفة. لم يعرف ما كان يفعل، ولم يعد سيد نفسه. وبالطبع فرغت خزائن القصر بسرعة وبات عليه رفع الضرائب على الأكثر ثراءً. كانت تلك الوسيلة الوحيدة لتأمين النفقات. وبالتالي سمحت كلّ هذه القصة بتصحيح إحجاف فادح وذلك بإرغام الملائكة الأثرياء على دفع ضرائب تتناسب مع نسبة ثرائهم، إضافةً إلى الزكاة (التي تُحسب على أساس عشر المداخيل). صدرت احتجاجات من هنا وهناك، لكن الملك مارس

سلطته وسرعان ما رضخ الأغنياء للأمر. أما الناس البسطاء فقد عبّروا، من جهتهم، عن فرّحهم وأشادوا بالملك رئيس الدولة الشجاع والعادل.

أقام والد شهرزاد، وقد أصبح "ملك الفقراء"، حفل زفاف بسيطاً ومتواضعاً، بلا تبذير ولا بذخ. وقرر دعوة كل العرسان المتزوجين في اليوم نفسه. حضر الفقراء بأعداد كبيرة. أما الأغنياء فأثروا الاحتفال في بيوتهم. ووجد الحاكم في الفكرة شيئاً من الأريحية، لكن زوجته، التي لم تتمكن من الاحتفال بزفاف ابنها كما كانت ترغب، رأت فيها نوعاً من الحرمان.

بدا العروسان الشابان في غاية الجمال حتى أن كل الحاضرين ابتهجوا بالنور المشعّ منها.

تم قبول الهدايا شرط ألا تكون تفاخرية وباهظة الثمن. أتى بعضهم بمطرّزات بأيدي زوجاتهم، وغرس البعض الآخر شجرةً عند مدخل القصر، وقدم آخرون مخطوطات تركها لهم أجداد أجدادهم. وخطر لأحد الفلاحين فكرة إهداء العروسين حماراً حديث المولد. كان يمشي ببطءٍ وشعر بالارتياح بمجرد دخوله القصر، فاتّجه من تلقاء نفسه إلى المكان الذي عاش فيه السيد حمار.

تمرّكز أخيراً في المنزل وكان يصدر من حين إلى آخر نهقة رضى بسيطة. كانوا يطعمونه العشب الطريّ، ويوماً بعد يوم تركّزت الأنظار على قفاه، وقد سلّى ذلك الملك. وانفجرت شهرزاد وأمين بالضحك عندما وصلهما الخبر.

في غضون ذلك اختفى الفلاح. وفي الحقيقة هو لم يكن فلاحاً

حقيقياً، إنها شمسة تنكرت بزيّ رجل. وهي من خطرت لها هذه الفكرة. كانت الجنية موجودة نهار الزفاف لكنها حرصت على ألا يراها أحد. وحدها شهرزاد شعرت بوجودها وحدّثتها قليلاً. حتى أنها سمعتها تطالبها بالعصا السحرية التي نسيتها عند الماما. لكن سرعان ما طمأنتها شمسة قائلة: ”لا عليك، سأذهب لإحضارها، فالحمار ليس جاهزاً للتغوط بعد!“.

بعد أيام من الزفاف، حجَّ الملك إلى مكَّة. كان عليه غسل آثامه والتخلص نهائياً من تلك البقعة السوداء التي تحرمه النوم. فقد الكثير من الوزن وتنازل عن المزيد من صلاحياته. كان عليه الانبعاث في جسدٍ جديدٍ وذاكرةٍ جديدةٍ.

في المدينة المنورَة حيث أقام دون الكشف عن هويته، تردد على مجموعة من الشعراء الصوفيين الذين علّموه الزهد وبساطة حُبِّ الله. بعد بضعة أسابيع أصبح ”متزهداً“، أي أنه فقد الاهتمام بالممتلكات المادية وكرس نفسه بالكامل للروحانية.

عند عودته إلى بلده، انعزل في كوخ صغير جاثم على أعلى الجبل وطلب من ابنته خلافته. وافتقت على ذلك شرط مسألة الشعب والحصول على موافقته. فاعتبرها أكثر من تسعين في المئة من الأصوات جديرةً بالخلافة.

كانت تلك المرة الأولى في البلد تستلم السلطة فيها امرأة شابة وذكية، محترمة ونزيهة.رأى فيها العالم أجمع الأمل الذي طال انتظاره لإخراج البلد من التقليدية والرجعية. وجمعت حولها شباباً حيوين ومثقفين. أما أولئك الذين صوّتوا بـ”لا“ فبتأثير من كبار

الملائكة الذين عارضوا كلّ ما تقوم به.

وختاماً لقصة الحمار فقد راح يعطي ذهباً مرّة في الأسبوع، ما سمح للملكة بتمويل بناء بعض المستشفيات. وطلبت لأنّها تم الكشف عن مصدر الأموال هذا. وأجرت حساباتها ووجدت أنها بحاجة إلى خمس سنوات لإتمام مشاريعها. ثم استفسرت من طبيب بيطري حول معدل حياة هذا الجنس من الحيوانات فطمأنها بأنه يتراوح بين أربعين وخمسين سنة.

هذه قصة يصعب تصديقها. لكن إذا ما استثنينا تدخل بعض الجنيات والمنطق، وإن وافقنا على فكرة أنه يمكن الطيبة والذكاء أن يجتمعوا للتخفيف من آلام العالم وتناقضاته، يصبح كلّ شيء ممكناً بما في ذلك الحمار الذي يتغوط ذهباً.

الأُماني الفارغة

كان ما كان في قديم الزمان إسكافي فقير ظلمه الحظ والحياة. كان يُدعى زاهر، أي ”المحظوظ“، وقد بات مفتناً بأنه ولد في هذه الحياة نتيجة خطأ تعزوه العائلة إلى صبية عين. عاش، مع هذا القدر السيئ وقلة الطعام والحرمان من الحب، في وحدة قاسية، وقد تزوج نسيبة له تكبره بخمس سنوات، ارتفعت هذا الزواج على أساس أنه أفضل الممكن كونها هي أيضاً لا حظ لها، ولم ينفعها انتماؤها إلى عائلة جيدة حسنة الصيت في إيجاد عريس لها. وكثيراً ما كانت تقول إن القدر يوم جمعهما كان مرهقاً بالعمل فلم يحسن صنيعاً. غالباً ما تبقى سيدة المزاج عاجزة عن كبت غيرتها من شقيقاتها الصغيريات المتزوجات جميعهنّ من رجال أغنياء ووسيمين.

كان اسمها ذا وقع جميل، ”بشرى“ أي ”التي تبشر بالأخبار السارة“، وكانت جميلة وحيوية ومندفعه. وبالرغم من الشقاء الذي

يرزحان تحته، هي وزوجها، ظلت مصممة على الخروج من حالة
البؤس هذه.

بطبيعة الحال لم يُرزقا أولاداً، وهذا أيضاً من دواعي شقائهما.
وكان زاهر يصنع البوابيج ويبعها من الأجانب القلائل الذين يمرّون
بالقرية. أما أهل القرية فكانوا يتعلّون الصنادل البلاستيكية ومعظمهم
يشفق على "زاهر المسكين" الذي راح يغرق أكثر فأكثر في الحزن
والكآبة. وبات الكل مقتناً بأنه لا يمكن مساعدته بشيء، وممّا كان
يُقال عنه: "لا حظ له! هذه هي الحياة، ناس تموت من التخمة وناس
من الجوع!".

وإحساس زاهر هذا بأن لعنة ما تُنكسد حياته هو وبشري جعله
مؤمناً بحتمية القدر. وإن صدف وشارك في الصلاة في المسجد
الكبير، فما كان يطمئن أبداً. وفي أحد الأيام غادر المسجد وهو
يشتم الحياة والعالم أجمع، وكاد أن يفقد عقله لف्रط ما أطلق من
شتائم. ذاك أن بابو же الجميل من جلد النعاج قد سرق من أمام
باب المسجد، فقرر عدم العودة إلى هذا المسجد الذي غالباً ما
يغادره المصليون حفاة.

في أحد أيام الجمعة، أغلق متجره قبل الموعد وذهب يتمشى
في الغابة على أمل أن ينسى هموم حياته. لم يكن هنالك أحد. في يوم
الجمعة هذا، يوم الراحة والصلاحة، اعتبر يوم خلاص. فقرر القيام
بالحمّاقات وبدأ يدخن الحشيش. في ذلك الزمان كان الحرفيون
يدخنون حشيشة الكيف. أخرج زاهر غليونه الطويل وأسند ظهره
إلى شجرة وراح يدخن. ولم يلبث أن أعطى الحشيش مفعوله،

فتخيل نفسه نائماً على غيمة صغيرة يمسكها ملائكة طارت به إلى أماكن رائعة. ثم تخيل أنه تعرض للهجوم والقتل، فارتعش قليلاً وقال في نفسه: "الموت أفضل من هذه الحياة التعيسة". وأغرقه تأثير الدخان في حالة انعدام الوعي تقريباً. وبالرغم من كل شيء، فكر بزوجته التي تنتظره في المنزل وألمته فكرة عجزه عن منحها ما تستحقه كزوجة، وراح يسعل ويصق من دون توقف إذ ليس معتاداً على ابتلاء دخان تلك العشبة. فقال في نفسه: "حتى أني لا أستطيع الهروب من واقعي عبر تنشق قليل من حشيش الكيف. أنا ملعون، وغير موفق في أي شيء".

كان يمشي متمهلاً عندما شق البرق كبد السماء. رفع رأسه ولم ير غيوماً. واختفت الملائكة، وكل شيء. من أين أتى هذا البرق المفاجئ؟ ثم سمع الرعد. كيف يحدث ذلك في سماء زرقاء إلى هذه الدرجة؟ ومجدداً عزا ذلك إلى العشبة الملعونة وقال في نفسه: "لقد انتهى أمري. لم يبق أي شيء طبيعي. هذا عقابي لأنني دخنت هذا الشيء الذي يعتبره جميع الحرفيين منشطاً". ثم سمع صوتاً وخُيل إليه أنه وسط مسرحية راح ممثلها الرئيسي يصرخ بأعلى صوته، فظنّ أنه مصاب بالحمى وأنها هي سبب تلك الهلوسات. وفعلاً أحس بالحرارة والعرق يتصرف من جبينه. توقف عن تدخين غليونه، وجلس عند جذع شجرة وانتظر ريثما يزول هذا الدوار. ولم يلبث أن توقف رأسه عن الدوران واستعاد نبض قلبه وتيرته الطبيعية. لكنه عجز عن الوقوف والعودة إلى منزله. فأقسم أنه لن يلمس بعد الآن هذا الغليون اللعين الذي أوصله إلى تلك الحالة.

وإذاك سمع صوتاً يقول له:

- زاهر! أنت لست وليد خطأ! إن كنت تُدعى زاهر فلأن الحظ في انتظارك... لكنك لا تتوارد أبداً حيث يمر. على كلّ حال يجب أن تكون أكثر دهاءً وأن تولي أهميةً لما فيك من حسنات. لكنه لم ير أحداً. ازداد قناعةً أنه ضحية ضربٍ من الجنون.

فلتفت حوله لكنه لم ير أحداً، ومجدداً سمع الصوت الجمهوري

يقول له:

- لا، أنت لست مجنوناً. الحظ يدور ويجب الإمساك به على الطاير. اسمعني جيداً. أعدك بتحقيق أول ثلاث أمنيات تمنّاها. وليس هذا العباً ولا مزاحاً، أنا جاد في ما أقول.

فأجابه زاهر من دون أن يفوته حسّ الفكاهة:

. وإن يكن، لستنا في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة.

. لا يا عزيزي، إنما في إحدى قصص شارل بيرو.

- آسف، لكنْ ليس هذا الرجل من بلادنا. لم أسمع باسمه من

قبل.

- لا يهم، كفّ عن التحلق وهات أول أمنية من أمانياتك الثلاث. وإن لم تفعل شيئاً، سيتآلم شارل المسكين في قبره. فطالما يستمر الناس في رواية قصصه يبقى حياً. لكن إذا صدف وشكّكتها، يصبح طي النسيان. النسيان كما تعرف، تلك الجرّة الضخمة التي يُرمى فيها الأشخاص الذين لا أهمية لهم والذين لا يذكرهم أحد. وتحت الجرّة، هنالك النار... .

- إنه الجحيم!

- أحسنت، لقد فهمت قصدي. هيا، أسرع...
- يجب أن أتشاور في الأمر مع زوجتي بشرى.
- ممتاز، أنت زوج جيد، إذاً سأنتظر.

خفّ زاهر إلى المنزل، يكاد يشعر بالسعادة في تشوّقه إلى إبلاغ الخبر السعيد لزوجته التي ما إن رأته على هذه الحالة حتى هتفت:

- آه! لا بد أنك بعت مخزون البوابيج! أو قمت أخيراً بصفقةٍ جيدة؟ أو صارت جارك النذل الذي يسلبك الزبائن؟ لقد تجرأت أخيراً على رفع سعر البوابيج المخيطة بخيوط الذهب؟
- لا، بل أفضل من ذلك. التقيت شخصاً خارقاً، شخصاً سيجعلنا أثرياء.

- الأشخاص الخارجون الذين يحرصون على سعادة غيرهم لا يتجلّلون في الشوارع، وأنت دوماً لا تحترس بما فيه الكفاية. أخبرني، ما القصة؟ فجأةً التقيت بشخص يكترث لحياتنا ويريد تحسين معيشتنا! يبدو أنك دخنت الحشيش. يا إلهي! اقترب قليلاً كي أشتّم رائحة فمك... لقد دخنت الكيف، الأمر واضح للعيان وللأنف. اذهب وضع رأسك تحت الماء وعد لمساعدتي. أوضح لها أنه لا يتحدث عن إنسان بل عن صوت آتٍ من السماء، فكادت بشرى تفقد وعيها.

- وأنت صدّقته! إنه الفقر يُريك الأوهام يا صديقي المسكين. ليس أنك دخنت وحسب، بل يبدو أنك أكلت قطعة حلوى من تلك التي تُحشى بمكونات تسبب الهلوسة. ضع بعجتك أرضاً وتعال

ساعدني في جلي الصحون.

أصرّ زاهر ثم اقترح أن يتمنى أمنية واحدة، فقط للتحقق. فجلس

أمام المدفأة وراح يحلم بصوت عالٍ:

- أود أن أرى على هذه النار خروفاً صغيراً يُشوى على

مهل ...

وقد بدأ لعابه يسيل. أما زوجته المديرة ظهرها فظلت تسخر

منه:

- هو كذلك، حمل وجّه زيت زيتون وجّه أخرى من السمن والقمح والسميد والبلح والزبيب. ما يكفينا لفصل الشتاء بأكمله ...

لكن كلّما كانت تعدد أمنياتها كانت تتحقق، وزاهر لم يكدر يتفاجأ

فقال لها:

- انظري!

كادت أنفاس بشرى أن تنقطع، فقد رأت خروفاً رضيعاً يدور على سيخ فوق النار، وأكياساً وجراراً مرصوفة بجانب المدفأة! لكن لم يكفها كل ذلك فأعطت ملاحظة أحزنت زوجها:

- أنت لا تفكّر إلا في الأكل، وبدل أن تطلب ذهباً ولوّلاً وألماساً تطلب خروفاً! يا لك من رجل مسكون. عهـدتـكـ أـحـمـقـ إنـماـ لـيـسـ إـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ. ولـحـسـنـ الـحـظـ لاـ تـزالـ أـمـانـاـ أـمـنـيـاتـانـ يـيدـوـ أـنـ السـمـاءـ مـسـتـعـدـةـ لـتـحـقـيقـهـمـاـ لـكـ. السـمـاءـ أـوـ رـجـلـكـ الغـرـيبـ الأـطـوارـ هـذـاـ.

- حسناً. لنذهب إلى الغابة، وهذه المرة فلنفكّر جيداً قبل أن

نفّوه بآية كلمة.

شعر زاهر بالانزعاج وببعض الإهانة، ومن باب الانتقام خطر له
لوهله أن يتمنى أن يصبح أرمل، لكنه لم يقدم على ذلك كونه رجلاً
صالحاً ورقيقاً كُلُّبٌ رغيف الخبرز.

الفقر مُرشِد السوء، يحمل الناس على ارتكاب الأخطاء وادعاء
ما ليسوا عليه وإلى انتهاك المحظور. كان زاهر يعي كل ذلك، لكنه
لم يكن يعرف كيف يجعل زوجته ترضى بالواقع وتشكر الله لأنها
بصحة جيدة.

- أتعرفين يا بشرى أن أفضل رأسمال للإنسان هو الصحة، صحة
الجسد والروح؟

- نعم أعرف كلامك الفارغ هذا... أن تكون بصحة جيدة
وتموت جواعاً... أن تكون بصحة جيدة وتتأمل مغيب الشمس...
ما لنا وكل هذا؟ أريد أن أكون جميلة وثرية، أريد أن أكون مكسوةً
بالجواهر والأثواب الرائعة، أريد أن أكون محظوظة الأنوار، وإن
أحسَد على معيشتي... أريد كل شيء، والخروج نهائياً من الفقر
والتمتع بالحياة بكل جوارحي. لقد سئمت هذه الحياة الوضيعة
والمزراية...

- لكننا نحب بعضنا البعض! أنا أحبك، ولن أقوى على العيش
بدونك...

- نعم، أنت محق، توقف عن العيش في الأوهام.
- بما أنك تشكيكين في كل شيء، تعالى معي إلى الغابة وستسمعين
صوت الشخص الذي يريد تحقيق أمنياتنا.

كان زاهر مضطرباً جداً، لكنه فرض الصمت لحظة دخول الغابة.
أشار على زوجته بالسكتوت. كانت بشرى تحمل الخروف المشوي
حول عنقها، غير قادرة على نزعه عنها كما لو أنه التصق بجلدها،
فراح ترغي وتنبذ أكثر فأكثر، وانفجر زوجها بالضحك ما زاد من
غضبها. أصبحت الآن كريهة بالدهن السائل على وجنتيها وكتفيها.
وكلما فكرت في ما مستطبله زاد تغيير شكلها الخارجي.

- أمنيتك هذه فخ! كل هذا غلطتك. برهن عن رجولتك
وخلصني من تلك اللحمة الكريهة، لا أستطيع نزعها عن جلدي.
اطلب من رجلك أن ينزعها عنّي إن كان موجوداً حقاً.

لم ينزل زاهر عند رغبة بشرى، وتناول قطعة لحم كبيرة منعه من
الكلام. في الوقت نفسه، كان شكل بشرى يزداد تغييراً. فراح جسدها
يسمن على مرأى العين المجردة وأنفها يتضخم بشكل مقلق. فما
العمل الآن بتلك المرأة التي خطئت مع روحها فانتقمت منها هذه
الأخيرة بتقييدها؟

لم ينبع بكلمة، وراح يفكّر في نفسه وهو ينظر إليها: "يمكنني
أيضاً أن أتمنى أن أصبح ملكاً، فهو منصب أفضل وأكثر ثباتاً من
الرئاسة. فالرئيس يخضع لتصويت الشعب، بينما إذا أصبحت
ملكاً سأقرر وأدير كل شيء وحدي. لكن وحدي، وهذا أمر جيد؟
السلطة! يا للخطأ! وكيف يمكنني الجلوس إلى جانب ملكة بهذا
القبع ذات أنف ضخم إلى هذا الحدّ وصدر مسطّح وعجيبة ثقيلة،
وتبعث من فمها رائحة كريهة؟ وما الذي سأفعله بكل هذا الذهب
وكل هذه السلطة؟ القيادة لا تستهونني، لطالما لامتنى زوجتي على

ذلك. لا أصلح رئيساً فكيف بالأحرى ديكاتوراً. فأنا أريد السعادة للجميع ومستعد للتضحيه بسعادتي كي يتمكن الآخرون من العيش برخاء وكرامة. لذا لن أطلب أمنية ثانية إن لم تكن البقاء بصحة جيدة والتمتع بحالة صفاء عميمه تبلغ نفس زوجتي وتجعلها لطيفة وطيبة وسمحاء. أليس من الأفضل لها أن تكون جميلة ومتواضعة بكونها زوجة حرفياً بسيطة، بدل أن تكون قبيحة وبدينة ومتزوجة من ملك؟ لا فائده من السعي وراء المجد والمال. الزهو سُمّ، وأنا أفضل صنع البوابيج على إعطاء الأوامر لزمرة من الناس البوئاء! وكأن بشرى سمعته، فبصقت قطعة اللحم وصرخت بكامل

قوها:

– لا طموح، لا شيء، فقط القبول بمشيئة القدر! أنت لست رجلاً، لست رجلاً حقيقياً، غازياً،أسداً، ذئباً، محارباً. لا. أنت بسيط. أنت مجرد حرفياً صغير يكتفي بالقليل. أنا من طينة أخرى! أنا أريد أن أكون ملكة، امرأة مهمّة تجلس بجانب العرش. سأكون جميلة لأن المنصب جميل. بدل ذلك يا زوجي المسكين، أنت تحلم بأمور صغيرة تافهة، وأنت عاجز عن اغتنام فرصة لا تتوفّر سوى مرّة واحدة في الحياة. ذلك أن زاهري متواضع! متواضع وأبله!

وإذا السماء ترعد وتبرق وارتजّ الغاب بأكمله، وراحت الحيوانات تركض في كل الاتجاهات، ونفرت العصافير عن أغصانها مبتعدةً عن المكان. إذا نظر زاهر إلى زوجته نظرة إشفاق، حتى أنه عطف عليها. ثم بدأت تبكي آسفةً على ما قالته للتّو تحت تأثير الغضب

والبؤس. فقال لها زاهر إن ممارسة الحكم، بمعزل عن المظاهر، مهمة أصعب جدًا، وإنهما غير مهياًين لها. فمن الأفضل إذن العدول عنها وإظهار بعض البساطة والتواضع. وسألها زاهر بعد أن ضمّها بين ذراعيه ومسح دموعها وبقايا دهن الخروف عن وجهها ورقبتها وصدرها:

- والآن، ماذا تتميّن؟

- أن أعود إلى ما كتّت عليه، امرأة بسيطة وطبيعية.
سُمع حينها الصوت يطالب بذكر الأميّتين الآخرين.

لم يُجِّب الزوجان، فعاد الصوت يقول:

- إذن أنتما لا تريدان لا ذهباً ولا ماساً، لا مالاً ولا مجوهرات.
ولا تريدان حتى عرشاً؟ أنتما حكيمان جداً وإنني أرى فيك بذرة
رجل متميّز، إنساناً صالحًا وطيباً، وليس ضعيفاً كما يظنّ الآخرون.
لكنني أريد أن أسمع بلسان زوجتك ما هي أقوى رغباتها...

رجا زاهر زوجته أن تتكلّم، وفي الحال سقط الحَمْل فمسحت
وجنتيها وكتفيها، وإذا همت بالكلام استعادت شكلها السابق:

- أعرف أن البؤس يصيّنا بالعمى والحسد والغيرة، وهو يملأنا
مشاعر سيئة. يفتح البؤس فجوات في نفوسنا ويمنعنا من رؤية
الحقيقة. نحن ننعم بصحة جيدة وليس عندنا أولاد، لكن بإمكاننا
التبنّي. يجب أن نقنع بما وهبنا إياه السماء، ولو قليلاً، ونتدبّر أمرنا
بما قُسِّم لنا. كلّ ما أريده هو العودة إلى منزلنا، إلى بيتنا، والعيش في
كف زوجي وحبه. لكن لو سمحت، اترك لنا جرار القمح وزيت
الزيتون والعسل. ربما نحن استحققناها هكذا نتمكن من إمضاء شتاء

أقل قساوةً من السنوات الماضية. كل هذا صحي... ثم، وكأنها أحسّت أنها تنازلت كثيراً في هذه المساومة، طلبت أموراً أخرى:

- نعم، الصحة وبعض المجوهرات، فقط ما يكفي لإثارة شيءٍ من الحسد والغيرة عند شقيقاتي اللواتي يحتقرنني لأنني فقيرة... وامنح زاهر القدرة على توسيع متجره وإيجاد زبائن جدد... بعض التحسين في حياتنا اليومية ونحن لك من الشاكرين.

فتوجّه الصوت إلى الزوج قائلاً:

- وأنت، هل توافق على ما تطلبه زوجتك؟

- نعم، أود أن يكون لي ما يكفي من القوة للمبادرة إلى أمور جديدة وما يكفي من الطاقة لتغيير حياتنا.

فرد الصوت:

- لكن هذا وقفٌ عليك فقط. أنا أصنع المعجزات ولا أُفبرك حياة الناس. قم وبasher العمل. أما زوجتك، فلتعمل على صقل مزاياها ولتنسِ عيوبها. إلى اللقاء أيها الطيبون!

سكت الصوت، فعادت الحيوانات تأوي إلى مخابيها. أما الطيور فانصرفت إلى رقصة باليه فخمة في السماء الزرقاء راسمةً أشكالاً متناسقة سحرت الزوجين المرهقين. كانت تلك إشارة إلى أن الحياة ستتجدد عليهما والسماء سترأف بهما.

يداً بيد عاد زاهر وبشرى إلى منزلهما مطمئنّي البال وسعیدين لأنهما تخلصاً من تلك الأوهام التي غالباً ما تؤذى أكثر مما تفید. وفي تلك الليلة مارسا الحبّ عدة مرات. وكانت تلك بداية حياة جديدة

لهمَا. وبعد بضعة أسابيع حلت بشرى. ولم يُسمع الصوت بعدها
قطّ في العادة، فتأكدوا أنّهما عاشا حلمًا أو اختلقا كل شيء ليتمكنا في
النهاية من إيجاد سبيل التجدد.

‘عشر ليالٍ وراوٍ’ حكايات للكاتب الفرنسي شارل بيرو، مستمدة من أساطير الأسلام وخرافاتهم، يرويها الطاهر بن جلون على طريقة شهرزاد في ‘ألف ليلة وليلة’. تأخذنا هذه الحكايات إلى عوالم بيرو الساحرة، التي أسبغ عليها الكاتب فتنة الشرق وسحره.

ثمة مفاجآت مدهشة، وطرائف حاذقة، ومواقف مثيرة تتخلل هذه الحكايات، كلها على موعد مع القارئ.

لا شك أن هذا الكتاب هو من أكثر ما خطَّ قلم الطاهر بن جلون فتنَّةً وسحراً.

الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي حائز جائزة غونكور الفرنسية عام 1987 وجائزة ‘إمباك الأدبية’ عام 2000. ترجمت رواياته إلى العديد من اللغات.



ISBN 978-6-14425-891-0



9 786144 258910 >

www.daralsaqi.com